موسوعة الحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة أجزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التى جاء بها الاسلام لهداية البشرية فى شئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصاد ، وفى مجال الحياة الاجتماعية والتربوية والعسكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين فى الحضارة التجريبية .

٦

المجتمع الإسلامى

أسس تكوينه — أسباب ضعفه — وسائل نهضته

تأليف

الدكتور أحمد شلبى

دكتوراه من جامعة كمبردج
استاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

ابتداء من الطبعة الثامنة (١٩٩٤)

رؤية جديدة — تخطيط جديد — مادة علمية جديدة — اداء جديد

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لصاحبها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

الطبعة الأولى — ١٩٥٨
الطبعة الثانية — ١٩٦٣
الطبعة الثالثة — ١٩٦٧
الطبعة الرابعة — ١٩٧٤
الطبعة الخامسة — ١٩٨٠
الطبعة السادسة — ١٩٨٣
الطبعة السابعة — ١٩٨٦
الطبعة الثامنة — ١٩٩٤

حصل هذا الكتاب على الجائزة الثانية فى المعرض الدولى للكتاب الذى عقد فى « كوالالمبور » خلال اغسطس وسبتمبر سنة ١٩٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحضـــــارة الإســـلامية ...

منحة الإســلام لهداية البشرية

: دكتور أحمد شلبى

كتب للمؤلف

أولا : موسوعة التاريخ الاسلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة مجلدات لتاريخ العالم الاسلامى كله، من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى حققتها الدول الاسلامية عبر التاريخ . (الطبعة الرابعة عشرة)

الجزء الأول : السيرة النبوية العطرة وعصر الخلفاء الراشدين .

الجزء الثانى : الدولة الأموية وأنصاف تاريخها .

الجزء الثالث : الخلافة العباسية والدور الحضارى خلال عصرها الأول .

الجزء الرابع : الأندلس الاسلامية ، انتقال الحضارة الاسلامية الى أوربا . المغرب - الجزائر - تونس - ليبيا من مطلع الاسلام حتى الآن .

الجزء الخامس : تاريخ مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى الآن - الحروب الصليبية - تاريخ الامبراطورية العثمانية .

الجزء السادس : الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلها الاسلام حتى الآن : موريتانيا - السنغال - جامبيا - غينيا - مالى - النيجر - نيجيريا - تشاد - السودان - الصومال - جيبوتى .

الجزء السابع : دول الجزيرة العربية والعراق من مطلع الاسلام حتى الآن . المملكة العربية السعودية - اليمن - جمهورية اليمن الجنوبية - عمان - دولة الامارات العربية - قطر - البحرين - الكويت - ثم العراق .

الجزء الثامن : الدول الاسلامية غير العربية بآسيا : ايران - افغانستان - الباكستان - بنجلاديش - ماليزيا - اندونيسيا - الأقليات الاسلامية فى الهند والصين وروسيا والفيلبين .

الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم . عصر جمال عبد الناصر : عصر المظالم والعزائم .

الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر انور السادات .

كتب للمؤلف

ثانيا : موســوعة الحضارة الاســلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة مجلدات، تبرز الاتجاهات الحضارية التى جاء بها الاسلام لهداية البشرية فى شئون الفكر ، والسياسة ، والاقتصاد ، والعلاقات الدولية ، وفى مجال الحيــاة الاجتماعية والتربوية والتشريعية والقضائية والعسكرية ، كمــا تبرز جهود المسلمين فى الحضارة التجريبية كالطب والرياضــة والفلك ...
(الطبعة العاشرة)

الجزء الأول : موجز عــام للحضارة الســلامية ـ المناهج الاسلامية : أصولها الصحيحة ـ انحرافاتها ـ وجوب تصحيحها .

الجزء الثانى : الفكر الاسلامى : منابعة وآثاره .
مآثر المسلمين فى مجال الدراسات العلمية والفلسفية .

الجزء الثالث : السياسة فى الفكر الاسلامى ـ مع المقارنة بالنظم السياسية المعــاصرة .

الجزء الرابع : الاقتصاد فى الفكر الاسلامى ـ مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعــاصرة .

الجزء الخامس : التربية والتعليم فى الفكر الاسلامى .

الجزء السادس : المجتمع : تكوينه وعلاج مشكلاته فى الفكر الاسلامى .

الجزء السابع : الحيــاة الاجتماعية فى الفكــر الاسلامى : نطاق الأسرة ونطاق المجتمع كالأفراح والمآتم والموسيقى والغنــاء .

الجزء الثامن : التشريع والقضاء فى الفكر الاسلامى .

الجزء التاسع : العلاقات الدولية فى الفكر الاسلامى .

الجزء العاشر : رحلة حياة : تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الاســلامية .

ثالثــا : التفسير الميسر للقرآن الكريم .

تفسير موجز وواضح يهدف لأن تفهم القرآن الكريم اذا قرأته أو سمعته ، مع وقفات تفصيلية عند بعض القضايا القرآنية المهمة .

كتب المؤلف

رابعا : مقـــارنة الأديــــان

سلسلة من الكتب فى مقارنـة الأديـان ، تعتمد عـلى ادق المراجـع بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالجدة والعمق ، وتشمل :

الجـزء الأول : اليهـودية : (الطبعة التاسـعة)

— دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهـود فى التاريخ من عهـد ابراهيم حتى الآن : الصهيونية ، أنبياء بنى اسرائيل، عقيدة بنى اسرائيل، يهوه اله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد فى الفكر اليهودى ، التابوت والهيكل ، الكهنة والقرابين ...

— مصادر الفكر اليهودى : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء صهيون .

— اليهود فى الظلام : الماسونية ، والروتارى ، الاغتيال ، التجسس ، البابية والبهائية .

— من صور التشريع فى اليهودية .

الجزء الثانى : المسيحية : (الطبعة التاسعة)

— المسيح والمسيحية فى نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .

— بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر .

— شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ، طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والأديرة ، خرافة ظهور العذراء فى كنيسة الزيتون ، حركة الاصلاح الدينى ونتائجها ونقدهـا .

الجزء الثالث : الاسـلام : (الطبعة التاسعة)

— الله فى التفكير الاسلامى ، النبوة فى التفكير الاسلامى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، الدين المعاملة ، المرأة فى الاسلام ، الرق وموقف الاسلام منه ، السياسة والاقتصـاد فى الاسـلام . آراء المفكرين الغربيين فى الاسلام ورسول الاسلام .

الجزء الرابع : اديان الهند الكبرى : (الطبعة التاسعة)

« الهندوسية — الجينية — البوذية »

— تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات فى الهند ، الأديان فى الهند .

— دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا ، مهابهارتا ، بهجاواسستها ، كيتـا .

— أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والنرفانا ، وحدة الوجـود .

— تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعيها .

كتب للمؤلف

خامسا : كتب فى الثقافة العامة وكتب بلغات اجنبية

٢٥ ـ كيف تكتب بحثا او رسالة

دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه

(الطبعة العشرون ـ مع ثلاثة ملاحق مهمة)

٢٦ ـ الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الاسلام ، واستمرارها حتى الآن :

عرض للهجمات الصليبية الغربية عسكرية وفكرية على العالم الاسلامى عبر العصور .

كتابان باللغة الانجليزية هما :

٢٧ ـ ISLAM : Belief - Legislation - Morals

٢٨ ـ History of Muslim Education

وباللغة الفرنسية :

٢٩ ـ Islam : Croyance - Législation - Morale

(مكتبة النهضة المصرية)

وباللغة الاندونيسية والماليزية :

٣٠ ـ Negara dan Pemerintahan Dalam Islam

٣١ ـ Masjarakat Islam

٣٢ ـ Hukum Islam

٣٣ ـ Sedjarah dan Kebudajaan Islam I

٣٤ ـ Sedjarah dan Kebudajaan Islam II

٣٥ ـ Sedjarah dan Kebudajaan Islam III

٣٦ ـ Perbandingan Agama (Jahudi)

٣٧ ـ Perbandingan Agama (Masihi)

٣٨ ـ Perbandingan Agama (Islam)

٣٩ ـ Perbandingan Agama (Agama2 yang Terbesar di India : Hindu-Jaina-Buddha)

٤٠ ـ Sadjarah Pendidikan Islam

٤١ ـ Politik dam Ekonomi Dalan Islam

٤٢ ـ Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam

٤٣ ـ Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dan Maschi

٤٤ ـ Perang Salib

٤٥ ـ Kurikulum Islam Dalam Perkembangan Sedjarah

٤٦ ـ Pengajian Al Quraan

٤٧ ـ Sedjarah Kehakiman Dalam Islam

(Pustaka National (Singapore))

كتب للمؤلف

سادسا : المكتبة الإسلامية لكل الأعمار

تخطيط يشمل ١٠٠ جزء ، يقرؤها كل فرد من افراد الأسرة ظهر منها ٨٠ جزءا كالآتى :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة (١٦ جزءا)

وتشمل سيرة الرسول ﷺ وجوانب منها تدون لأول مرة .

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة (٧ أجزاء)

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية (٥ أجزاء)

نزول القرآن وتدوينه — القرآن والعلم — فضائل القرآن — اعجاز القرآن — الأخلاق الاسلامية من القرآن الكريم

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم (٧ أجزاء)

المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج الى انصاف (٥ أجزاء)

لماذا انحرف تدوين التاريخ الأموى ؟ ماذا عن محاسن الأمويين ؟ مدعو التشيع وسمومهم — قمم فى التاريخ الأموى : معاوية — عبد الملك بن مروان — الوليد بن عبد الملك — عمر ابن عبد العزيز — التوسع الاسلامى والحضارى فى العهد الأموى — قصة استشهاد الامام الحسين والمسئول عنها .

المجموعة السادسة : صراع وشهداء وانتصارات (٦ أجزاء)

— من شهداء الإسلام .

— الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الاسلام واستمرارها حتى الآن

— شهر رمضان وانتصارات المسلمين فيه .

المجموعة السابعة : الاسلام والمرأة (٥ أجزاء)

حالة المرأة فى الحضارات غير الاسلامية — ماذا قدم الاسلام للمرأة ؟ نماذج من السيدات المسلمات من بيت النبوة « السيدة زينب والسيدة سكينة » ونماذج فى السياسة والآداب والعلوم والفنون — زيجات شهيرة فى التاريخ : « زبيدة — بوران — قطر الندى » .

الميراث فى الشريعة الاسلامية : دراسة شاملة .

تاريخ الطب فى الاسلام .

حركات فارسية ضد الاسلام والمسلمين عبر العصور . (٣ أجزاء فى مجلد واحد)

دور « دار العلوم » فى تطوير دراسة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية

(الأجزاء التالية ستظهر قريبا ان شاء الله)

كتب للمؤلف

سابعا : تعليم اللغة العربية لغير العرب
وقواعد اللغة العربية

— برنامج شامل ميسّر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
— أول سلسلة من نوعها فى المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
— دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
— تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

٤٨ — تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الرابعة)

يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة فالتعبير ، فالاملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطالب الى مرحلة متقدمة فى القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا فى هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الاسلامى والعربى اختيرت من أمهات الكتب العربية ثم صيغت فى اسلوب مناسب ، مع أسئلة وتمرينات مفيدة .

٤٩ — قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الرابعة)

عرض لجميع أبواب النحو العربى بطريقة تربوية سهلة ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف .

هذا الكتاب ضرورى للمثقف العربى وغير العربى

كتب نفدت ولن يعاد طبعها

٥٠ — فى قصور الخلفاء العباسيين :
أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .

٥١ — مصر فى حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .

٥٢ — الحكومة والدولة فى الاسلام :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .

٥٣ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحى .

٥٤ — النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور واثر الفكر الاسلامى فيها .
وأكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .

٥٥ — الجهاد والنظم العسكرية فى التفكير الاسلامى :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٩ من هذه القائمة .

محتـويات الكتـاب

الموضـــوع — الصفحة

الباب الأول

العـالم عند بعثة محمـد

الباب الثانى

تكوين الفـرد المسلم

الموضـــــوع | الصفحة

الباب الثالث

المجتمع الاسلامى فى عهده الزاهر وأسس تكوينه

الباب الرابع

تدهور العالم الاسلامى واسبابه

اولا — العوامل الداخلية التى اضعفت العالم الاسلامى

الموضـــــــــوع الصفحة

ثانيا — العوامل الخارجية التى اضعفت العالم الاسلامى

ثالثا — عوامل ضعف ينسبها بعض الناس للدين والدين منها براء

الموضـــوع	الصفحة

الباب الخامس

الطريق الى الاصلاح

الموضـــــوع	الصفحة
رابعا ــ الاصلاحات العلمية :	

مقدمة الطبعة الأولى

من المفارقات التى يلاحظها المشتغلون بالدراسات الإسلامية ، تلك الهوة الشاسعة بين مبادىء الإسلام وفلسفته وأخلاقه وحضارته من جهة ، وبين واقع أكثر المسلمين من جهة أخرى ، وطالما زلّ كثير من الناس لأنهم أرادوا أن يأخذوا الإسلام من أخلاق المسلمين وأحوالهم ، وطالما تجنّى كثير من الناس على الإسلام لأنهم ظنوا واقعَ المسلمين مظهراً من مظاهر الإسلام .

وهذا الكتاب مقارنة واضحة تشرح النظريات الإسلامية سياسية واقتصاديةً واجتماعيةً وأخلاقيةً من جانب ، ويشرح حال المسلمين من جانب آخر ، وتبحث عن الأسباب التى جعلت الكثيرينَ من المسلمين يضلون الطريق ، فيتركون أخلاق الدين الذى انتسبوا إليه ، ويأخذون أخلاقاً وصفاتٍ هى أبعد ما يكون عن ذلك الدين ، فهذا الكتاب إذاً وصف لما هو كائن وما يجب أن يكون .

ومن أعجب الأسباب التى قادت إلى هذه النتيجة القاتمة ، أن الدواء انقلب داءً ، وأن الطبيب الذى يرُجى البرء على يديه أصبح مصدرا من مصادر الآلام والأنين ، كما سنرى فى موقف بعض المعاهد التى خُصِّصت للدراسات الاسلامية ولكن روح الاسلام أفلتت منها ، وكما سنرى كذلك من مواقف بعض رجال الدين الذين كان يجب أن يكونوا مصدر إشعاع ، ولكنهم — للأسف — أساءوا فهم الاسلام فاتخذوه وسيلة لمقاومة الإصلاحات العلمية والاجتماعية .

وسيدرك القارىء مقدار الجهد الذى بذل فى هذا الكتاب ، فهو رحلة طويلة من جهة الزمان ومن جهة المكان ، إنه :

أولا : يتبع الاسلام والمسلمين منذ انبثق الاسلام حتى العهد الذى نعيش فيه •

وثانيا — يطوف بالعالم الإسلامى فى مختلف أقطاره •

وثالثا — يعالج مشـكلاته الحاضرة ويدلى بأحدث الآراء ليمضى العالم الاسلامى فى نضاله الذى يقوم به ليتغلب على الداء ، وليبنى حاضره ومستقبله على أساس متين •

يارب ، حقق النفع بهذا الكتاب ، واجعله خالصا لوجهك الكريم ،

دكتور أحمد شلبى

جوكجا كرتـا (اندونيسيا)	الأستاذ بالجامعة الإسلامية باندونيسيا
فى الثالث من يوليو سنة ١٩٥٨	ومدير المركز الثقافى العربى بجاكرتا

مقدمة الطبعة السابعة

يسرنى فى تقديم الطبعة السابعة لهذا الكتاب — ان اسمى إلى الله واهب النعم شاكرا عونه وتوفيقه ؛ وأن أثنى على قرائى الأعزاء الذين فاق إقبالهم كل حدود ، فدفعونى بذلك الى المزيد من الإجادة والصبر على العمـــل •

والمحاولة الحاسمة لاجادة العمل والصبر عليه تتضح فى هـــذا الكتاب أكثر جدا مما تتضح بسواه ، فالذى يقرأ هذه الطبعة ويقارنهـا بالطبعات السابقة سيدرك مـدى العناء الـذى تحمّلْتُه لإخراجهـا ، وسيحس أن هذا الكتاب قد كُتِبَ من جديد ، برؤية جديدة ، وتخطيط جديد ، وأسلوب جديد ، وقد شمل هذا التجديد أكثر أبوابه وأهم بحوثه فقد حذفتُ منه ، وأضفتُ إليه ، وعدّلت فى تخطيطه ، ليكون أصـدق تعبيرا عن موضوعه ، وكان ذلك العمل نتيجةً للكثير من الاطلاع وزيارات البلاد الاسلامية ، فمثل هذا الكتاب لا يعتمد فقط على المصادر والمراجع ، وانما يحتاج الى الصلات المباشرة بالشعوب الاسلامية ودراسة أحوالها ، وقد أتيح لى من ذلك الشىء الكثير فى الفترة السابقة ، فجعلت صدى ذلك يظهر فى هذا الكتاب •

وبعـون الله وتوفيقه ، وبتشـجيع القارىء الكريم قـد كملت

« موسوعة النظم والحضارة الاسلامية »

وظهرت أجزاؤها العشرة تبْرِز الحضارة الاسلامية الأصيلة التى جاء بها الاسلام ولم تكن معروفة قبل الاسلام كرأى الإسلام فى السياسـة والاقتصاد والتربية والتعليم والعلاقات الدولية والمرأة والرق وغيرهـا كما تبرز الحضارة التجريبية التى كانت موجودة قبل الاسلام ، وضعفت

واختفت قبل الاسلام ثم أحياها المسلمون وأضافوا اليها كالطب والرياضة والفلك ... وهو عمل نشكر الله عليه وننحنى لله لنجاحه .

وبعد ، لعلى أديت واجبى تجاه الحقل الذى تخصصت فيه ، وانى أعلن استعدادى لقبول أى توجيه علمى رشـيد قد يحسّن من أعمالنا العلمية ، أو يمنع خطأ قد نكون وقعنا فيه .

والشكر لله واهب النعم والتحية الخالصة للقارىء العزيز .

أ . د . أحمد شلبى

فى الرابع من ديسمبر سنة ١٩٨٥:

الباب الأول

العالم عند بعثة محمد

أحاط بالبشرية ظلام حالك تبيل بعثة محمد ، كان ظلاماً مُطْبِقاً ، وليلا طويلا ، نشطت فيه النزعات ، وانزوت الأفكار السليمة ، ودبَّ الجهل ، وانكمش العلم ، وعمَّ اليأس ، وقلَّ الأمل ، وأوشكت الانسانية أن تفقد كل ما حققته الأجيال الطويلة من تقدم ، وأن تتردى فى هـوة سحيقة هى إلى عالم الحيوان أنسب •

تعال بنا نَجُل جولة سريعة نصوِّر فيها حياة الجنس البشرى آنذاك :

اليهوديـــة (*) :

بنو إسرائيل خصهم الله بكثير من فضله ، وأرسل منهم لهم عدةً من الرسل ليكونوا مصدر هداية ومبعث ضوء ورحمة ، ولكن طبيعة أكثر بنى إسرائيل كانت الى الشر أميل ، فراحوا يعتدون ويفسقون دون رادع من ضمير أو خلق ، واستمرءوا الفجور ، وأنزلوا بأنبيائهم ألوانا مـن الاعتداءات الأثيمة ، دوَّنتها كتبهم المقدسة ، وصوَّرها القرآن الكريم بقوله « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقـا يقتلون » (١) • **وانتقم الله لأنبيائه ورسله من ضلة بنى إسرائيل ومن نسلهم الذين يعلم الله أنهم سيسيرون كأسلافهم طغيانا وسوء سيرة ، فجعلهم هدفا لمن يُنْزِلُ بهم العذاب المهين الى يوم الدين « وإذْ تأذَّن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب (٢) •**

ولم يستطع أنبياء بنى اسرائيل أن يحملوا الهداية الى أكثر هـذه القلوب الغلف ، وكان من اهتدى من بنى اسرائيل يسرع الى العودة الى الضلال ، فقد كانت نفوسهم تهفو للعمى ، وتنفر من الرضوان والهداية • وتقص علينا الروايات خبر أولئك الذين اتبعوا موسى من بنى اسرائيل

(*) عن اليهودية اقرأ كتاب « اليهودية » من سلسلة « مقارنـة الأديان » للمؤلف .

(١) سورة المائدة الآية ٧٠ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٦٧ .

وأنجاهم الله به مما أنزل فرعون بهم من ذل ومهانة ، ولكنهم سرعان ما تخطف أبصارهم أصنام لقوم يعكفون عليها ، فيقولون لنبيهم : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة (١) .

ويدعهم موسى فى رعاية أخيه هرون ، ويذهب ليتلقى الألواح من ربه ، وفيها لهم نور من الله وهدى ، ولكن سرعان ما يتخذ هؤلاء من حليهم عجلا جسدا له خوار ، يعبدونه ويسجدون له من دون الله « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، اتخذوه وكانوا ظالمين ، ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، قالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ، ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى ، أعجلتم أمر ربكم ؟ وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه . قال : ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ، فلا تشمت بى الأعداء ، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين . إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم ، وذلة فى الحياة الدنيا ، وكذلك نجزى المفترين » (٢) .

وأراد موسى أن يستغفر لقومه وأن يطلب من الله لهم الرحمة ، فاختار سبعين رجلا من أتقيائهم ، ولكن هؤلاء هتفوا به « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة (٣) » .

تلك صور من ضلالات بنى اسرائيل فى حياة موسى وفى حياة هرون ؛ أما ضلالاتهم بعد ذلك فتكاد تكون سلسلة من البغى يقتلون فيها النبيين ويحرفون الكلم عن مواضعه ، حتى خلا التاريخ أو كاد من هداية روحية

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٣٨ .

(٢) سورة الأعراف الآيات ١٤٨ — ١٥٢ .

(٣) سورة البقرة الآية ٥٥ .

يقدمها رجل من بنى اسرائيل الى الجنس البشرى أو شعاع من الضوء النفسى يكون فيه للإنسانية هدى أو بصيرة •

وفى كتابنا « اليهودية » تفصيل لمن أراد مزيداً من الدراسة عن اليهود •

المسيحية بين الشرق والغرب (*) :

وجاءت المسيحية وقد تكالب اليهود على المادة ، ورأوا فيها كل مقومات الحياة ، وتفننوا فى خلق الطرق للحصول على المال وتنميته ، غير مبالين بالوسائل التى يصطنعونها لنجاحهم فى ذلك ، فهانت بهذا القوى الروحية والمثل العليا ، فاتجهت المسيحية لمعالجة هذا الداء ، واتجه السيد المسيح عليه السلام الى الدعوة للصفاء الروحى والرحمة والتسامح والزهد • وخلت المسيحية إلا من لمحات ضئيلة عن النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية لا تكاد تذكر ، وأولى المسيحُ عنياته لتطهير النفس والروح ومحاربة الجسم والمال ، ومما أُثِرَ عنه فى ذلك قوله :

— سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ، ومن سخَّرك ميلا واحداً فاذهب معه اثنين (١) •

— لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ، لذلك أقول لكم : لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون (٢) •

— يعسر أن يدخل غنى ملكوت السموات ، وأقول لكم إن مرور جمل فى ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى ملكوت الله (٣) •

(*) عن المسيحية اقرأ كتاب « المسيحية » من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف •

(١) انجيل متى : الاصحاح الخامس : الفقرات ٣٨ — ٤٠ •

(٢) انجيل متى : الاصحاح السادس : الفقرة ٢٥ •

(٣) انجيل متى : الاصحاح ١٩ الفقرة ٢٣ وانجيل لوقا : الاصحاح ١٨ الفقرة ٢٠ •

كان هذا هو اتجاه المسيحية فى الشرق : العمل على تطهير الروح وتقوية الصلة بين الانسان وخالقه ، أما تنظيم الحياة الدنيا وإحكام الصلة بين الفرد والفرد ، فلم ينل من المسيحية عناية تذكر ، وعبرت هذه الديانة من الشرق الى أوربا فواجهت هناك — مع تجردها من المـادة — أناسـا شغلتهم المادة ، ولا تكاد تنقطع عندهم الحروب وحملات السلب والانتقام ؛ ولما اعتنقها هؤلاء أو بعضهم ، لم يجدوا فيها عناصر كافية لتنظيم حياتهم المادية ، فاتخذوها وسيلة لصـلة العبد بربه ، وبقيت صلة الفرد بالفرد خاضعة للقانون الأرضى الذى يضعه البشر •

وعلى هذا اتخذت المسيحية ثوب الزهد والتسامح وقنعت بهما ، وكان شعارها « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، واتجهت بكليتها إلى التطهير الروحى والتهذيب الوجدانى ، وصاغت نفسها على أساس أن الدين صلة ما بين العبد والرب وأن القانون صلة ما بين الفرد والدولة •

غير أن ذلك لم يقنع رجال الدين فى بعض العصور ، فكثير منهم عشقوا السلطة والنفوذ ، وعشقوا أن يدخلوا الحياة العامة لا لإصلاح الحياة العامة ، وإنما ليستفيدوا هم من الجماهير الجاهلة ، ولكن تدخلهم فى الحياة العامة أثار ثائرة الملوك والأمراء ، وقام نزاع بين هاتين القوتين ثم تمّ الوفاق بينهما على حساب الدهماء ، **فأخذت الكنيسة سلطة بيع صكوك الغفران وإصدار قرارات الحرمان ، وأصبح الملوك سادة يملكون الأرض ويملكون رقيق الأرض •**

وقبيل بعثة محمد خبا ضوء الطهر والزهد من المسيحية ، بما دخل عليها من خرافات وأباطيل حتى أصبحت ديانة وثنية • ويقول ديني العالم **الانجليزى عن نصارى القرن السادس الميلادى « أسرف المسيحيون فى عبادة القديسين والصور المسيحية ، ووجد خلاف عن طبيعة المسيح وما إذا كانت ممزوجة أو إلهية تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية كما تتلاشى قطرة من الخل تقع فى بحر عميق لا قرار له » •**

هذا فيما يتعلق بالمسيحية ، أما غير الذين من الشئون فى الغرب فقد كان متدهوراً إلى أبعد غاية ، لقد كان نظام الإقطاع سائدا ، وفى ظل الاقطاع كان هناك أمراء وعبيد ، فالأمراء يملكون الأرض ورقيق الأرض ، والعبيد يعملون دون أن تكون لهم حقوق أو يقام لهم وزن ، وكانت الحروب لا تكاد تنقطع بين هؤلاء الأمراء بعضهم والبعض الآخر ، وبذلك كانت أوربا تعيش فى ظلام دامس فى جميع نواحيها تقريباً .

الزرادشتية وبلاد فارس :

الزرادشتية عقيدة الفرس قبل الاسلام ، وتنسب الى مؤسسها « زرادشت » وقد انتشرت الزرادشتية فى شرقى ايران القديمة « بكتريا افغانستان » ثم امتدت غربا حتى ميديا « اذربيجان » ثم أصبحت الديانة الرسمية للإيرانيين فى ظل الدولة الساسانية منذ منتصف القرن الثالث ق م واستمرت دينا للإيرانيين حتى ظهرت الدعوة الاسلامية وغزت ايران ، وقد بقيت الزرادشتية عقيدة الأقلية الفارسية حينا ، ثم هاجر أتباعها الى الهند وعرفوا بالبرسيين ، وخلت ايران منهم .

ذلك هو الجانب التاريخى للزرادشتية .

أما عن جانب العقيدة فاننا نذكر أن بلاد فارس كانت حتى القرن السابع قبل الميلاد تتبع الفكر الطبيعى فى الأديان ، أى كان هناك من يعبد الشمس أو الأنهار أو الأشجار أو الأبطال ، وجاء زرادشت (٦٦٠ — ٥٨٣ ق ، م) مصلحا اجتماعيا ، اتجه فى تفكيره الى اصلاح اتجاهات مواطنيه الدينية ، فأدمج فى ديانته طائفة من المعبودات الفارسية القديمة بعد تهذيبها . وانتهى به التفكير الدينى الى القول بإلهين أو مجموعتين من الآلهة ، المجموعة الأولى آلهة خيّرة على رأسها « أهورا مازدا » والمجموعة الثانية مجموعة شريرة يتزعمها « أهرمان » والنضال بين هاتين المجموعتين يمثل النضال بين الخير والشر فى الحياة ، ذلك النضال الذى لا ينقضى الا بعد آلاف السنين حيث ينتصر الخير فيَهْزِم « مازدا » « أهرمان » .

وكان عنصرى الخير والشر يبرزان عند الزرادشتية فى صور مادية متعددة ، فالخير يتمثل فى النور والنار والهواء والماء ، وفى بعض الحيوانات المفيدة للانسان كالأغنام وكلاب الحراسة ، ولهذا اتجهت الزرادشتية لتقديس هذه الأشياء وحمايتها ، أما الشر فكان يتمثل فى الظلام وفى الحيوانات المفترسة والحشرات الضارة ، ولهذا ألزمت العقيدة ضرورة التخلص منها .

واتجاه زرادشت فيه تعدد آلهة ، وفيه ثنوية ، ولكن كثيرا من الباحثين يعدون الزرادشتة دين توحيد . لأن مازدا سيكون وحده فى النهاية بعد أن ينتصر على آلهة الشر .

ورمز زرادشت لمازادا ببعض المواد الصافية كالنار ، وقال بالبعث والحياة الأخرى والحساب ، حيث ينتهى المرء لنعيم دائم أو عذاب مقيم .

انحراف الديانة الزرادشتية :

تلك هى الخطوط الرئيسية فى مذهب زرادشت ، ولكن تعاليم زرادشت انهارت بعده ، وأصبحت الثنائية أبرز مظاهرها ، كما اتجه الفرس الى النار يعبدونها ويرونها إلهاً ، ويستعملونها فى شعائرهم الدينية متناسين أنها كانت فقط رمزاً للصفاء ، حتى أصبحوا يُعْرَفون بأنهم عبدة النار ، وقد أتاح هذا للكهنة المجوس الذين كان لهم السلطان الدينى قبل زرادشت أن يظهروا من جديد كوساطة بين الناس وبين الآلهة وكمسيطرين على وسائل التطهير ، وكوسائل لإرضاء الآلهة ، وسرعان ما أحيا الكهنة الطقوس التى كانت موجودة من قبل ، كعبادة الأصنام وتقديم القرابين وبخاصة للإله « مترى » الذى أصبح أبرز الآلهة ، بعد أن كان فى الزرادشتية أقلها شأناً .

اختفاء الزرادشتية الأصيلة :

ولما غزا الإسكندر المقدونى فارس فى أواخر القرن الرابع ق.م اختفت الزرادشتية ، وظلت مختفية مدة خمسة قرون ، فلما قامت الدولة الساسانية حاول هؤلاء العودة الى الزرادشتية باعتبارها جزءا من تراث

فارس المجيد ، ولكن الزرادشتية الساسانية كانت بعيدة كل البعد عن اتجاهات زرادشت ، وكانت تحقق أهداف الملوك وطغيان الكهنة .

مانى ونهاية العالم :

وفى أواخر القرن الثالث المسيحى ظهر « مانى » فى فارس ، وكان ظهوره فى عصر سادت فيه الشهوة ، فاختط طريقا يحارب به هذه الشهوة الجامحة ، فنادى بحياة العزوبة ، وحرم النكاح رغبة فى قطع النسل واستعجال الفناء ، وقد قتله بهرام سنة ٢٧٦ م قائلا : إن هذا خرج لتخريب العالم ، فالواجب أن يبدأ بتخريب نفسه ، وذهب مانى ولكن تعاليمه بقيت بعده إلى ما بعد الفتح الإسلامى .

مزدك والشيوعية :

وظهر مزدك سنة ٤٨٧م فاعلن أن الناس ولدوا سواء ، لا فرق بينهم ، فينبغى أن يعيشوا سواء ، ولما كان المال والنساء من أهم الأسباب التى تخلق الفوارق وتسبب الكراهية ، فقد قال مزدك بالشيوعية التامة فيهما ، يقول الشهرستانى (١) ، « أحل مزدك النساء وأباح الأموال وجعل النساء شركة بين الناس كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ » ولقيت هذه الدعوة قبولا لدى الشبان والمترفين والفجرة . بل أيدها القصر الامبراطورى » ويقول الطبرى (٢) « كاتف السفلة مزدك فى دعوته وشايعوه ، فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، لا يستطيع الامتناع منهم ، وحملوا قباذ على تزيين ذلك ، وتوعده ان رغض ، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ، ولا المولود أباه ، ولا يملك الرجل شيئا مما يتسع به » .

ما أقسى ما عانى الفرس قبل الاسلام من انحرافات تركت فى كثير من الأحوال طابعها على مر الأجيال .

---

(١) الملل والنحل جـ ١ : ص ٨٦ .
(٢) تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ : ص ٨٨ .

لوك فارس والدم الإلهى :

وادعى ملوك فارس ان دماً إلهياً يجرى فى عروقهم ، وأن فى طبيعتهم عناصر علوية مقدسة ، وصدق الفرس هذه الدعوى فأنزلوهم منزلة الآلهة قدموا لهم القرابين ، وأنشدوا لهم أناشيد الطاعة والعبودية ، واعتقدوا أنهم وحدهم الذين يجوز لهم أن يلبسوا التاج ، ويسيطروا على الناس أيا كانت سنهم أو كفاءتهم .

وفيما عدا الأسرة المالكة كان هناك المجتمع الايرانى بطبقاته الكثيرة التى تقوم هوة واسعة بين كل اثنتين منها : وكان كل انسان فى طبقة لا يستطيع أن يتعداها الى سواها من الطبقات مهما أوتى من كفاءة خاصة أو تجارب معينة (١) .

هذه هى بلاد فارس بما حوته قبل الاسلام من أعاجيب وانحرافات ، مكست أحيانا للأسف الشديد على بلاد فارس بعد الاسلام

الأديان فى الصين :

شهدت الصين فى القرن السادس قبل الميلاد حكيمين شهيرين هما « لاعوتسى » الذى ينطق اسمه أحيانا « لوتس » و « كونغ فوتسى » الذى ينطق « كونفشيوس » ، وأولهما أسن بحوالى خمسين سنة تقريبا ، وقد تقابلا وكان « لاعوتسى » فى شيخوخته و « كونغ فوتسى » فى شبابه وتدارس الثانى مع الأول بضع مشكلات ، لكن كان لكل منهما اتجاه ، فافترقا ، فقد كان الأول داعية قناعة وزهد وتسامح مطلق ، دعا إلى مقابلة السيئة بالحسنة ، على نحو ما نسب للمسيح فيما بعد ، أما « كونغ فوتسى » فكان يدعو الى العدالة والاستقامة ، ومقابلة السيئة بمثلها ، ومذهب الأول يعرف « بالتاوية أو الطاوية » أما مذهب الثانى فيعرف « بالكنفوشية » وهو أكثر انتشارا وذيوعا فى الصين .

كلمة عن الكونفوشية :

ولد كونفوشيوس سنة ٥٥١ وتوفى سنة ٤٧٩ ق م وقد توفى أبوه

---

(١) انظر كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٣٢ .

وهو طفل صغير ، وكان كونفوشيوس ذكيا موهوبا ، متطلع الى العلم ، وحصَّل منه قدرا كافيا ، ثم اتجه لنفسه يهذبها ، فعنده أن أحسن العلم ما أصلح حال صاحبه ، وشغل حينا بالوظائف الحكومية ، وخلال هـذه المدة عرف كثيرا من التجارب التى ساعدته على تفهم ما حوله من حقائق وانحرافات ، فوجد أن من الخير له ولوطنه أن يتفرغ للدعوة لأفكاره ، واتخذ من حياة الصالحين والحكماء الأقدمين طريقا يعتنقه ويدعو له ، فذلك يقود الى الحياة الأمثل •

وتكوَّن حوله مجموعة من المريدين الذين اعتنقوا اتجاهاته وتحمسوا لها ، ووضعوا نظاما أخلاقيـا وسياسيا رأوا أنه يقود للسلام ولخـير البشرية ، ومن أهم مبادىء هؤلاء ما يلى :

— ينبغى أن تعامل مرء وسيك عـلى النمط الذى تحب أن يعاملك بـه رؤساؤك ، وقد شاعت هذه القاعدة فأصبحت تمثل نقطة مهمـة فى البناء السياسى •

— الطاعة الكاملة من الأبناء للآباء وللأسرة ، وكان هذا المبدأ داعيـا للترابط العـائلى •

— طريق الوسط هو الأسلم ، حتى يبعد الانسان عن التهاون وعن التطرف •

— اتخذت الكونفوشية تعاليم رئيسية لها هى : العلم الغزير ، والسلوك الحسن ، والطبيعة السمحة ، والعزيمة القويـة ، وأعلنت أن هـذه المبادىء كلها تنضوى تحت العدالة •

وهكذا بدأت الكونفوشية اتجاها خلقيا ، وكانت حركة اصلاحية ، وظلت كذلك زمنا وبخاصة أن مؤسسها لم يدَّع النبوة ، ولا قال بـأى اتصال إلهى ، ولكن الأجيال اللاحقة دفعتها لتكون دينا بين المعتقدات التى انتشرت بالمنطقة فى الصين واليابان وكوريا كالطاوية البوذية •

وفى عصر أسرة سانج (٩٦٠ — ١٢٧٩ م) تطورت الكونفوشـية بواسطة أتباعها ، واتجهت للاهتمام بالتقدم عن طريق اكتساب المعرفة ،

وكان ذلك الاتجاه يخالف اتجاهات الأديـــان المعاصرة بالمنطقة ، فقـد اتجهت هذه الأديان الى التأمل والهدوء ولم تُعْنَ بالنشاط والحركة .

عادات صينية قديمة اختلطت بالكونفوشية :

وكان كونفوشيوس شديد التأثر بعقائد قومه الأقدمين ، فاتجه مثلهم الى عدم القول بالجنة أو النار والعقاب والثواب ، ولم يدرس مشكلةَ ما بعد الموت ، معللا أن مشكلات الحياة يصعب فهمها ، فكيف بمشــكلات مـــا بعد الحياة ؟

وكان الصينيون القدماء يربطون بين الأحداث الكَوْنية ، وبين أخلاق الملوك وأخلاق الشعوب ، فالعــواصف والفياضانات والزلازل والأوبئة وما ماثلها ، ليست عندهم إلا عقابا لانحراف الأمراء وانحراف الناس ؛ وقد تبنى كونفوشيوس هذه الفكرة .

وكان كونفوشيوس ككل صيني تخيفه الأحداث الكونية ، فهو يرتجف من قصف الرعد ، وعصف الرياح ، وهطول الأمطار ، وكسوف الشمس وخسوف القمر ، وهو يقابل ذلك بالتعاويذ والقرابين ، يحاول بها أن يقيَ نفسه شرور هذه الأحداث .

تأليه كونفوشيوس وعبادة الأرواح :

قلنا آنفا إن كونفوشيوس لم يدّعِ النبوة ، ولا قال بأي اتصال إلهي ، ولم يكن غير مصلح اجتماعي .

وكانت أفكاره حقا حافلة بالدعوة للخير والرحمة والاخلاص وأداء الواجب ، ولكن الصينيين من بعده انحرفوا بهذه الدعوة الخيِّرة واتجهوا إلى كونفوشيوس يبنون له الهياكل ويعبدونه ، ويقدمون أمام تماثيلــه الذبائح والقرابين ، ويركعون أمام تماثيله ويسجدون ، وبالاضافة إلى هذا ، شاعت بالصين قبيل الاسلام عبادة الأرواح وبخاصة أرواح الآباء والأجداد ، إذ كان الصينيون يعتقدون أن هذه الأرواح تعيش معهم بعد وفاة أصحابها .

من العادات الصينية :

والصينيون يحبون كثرة النسل ، ولكنهم يمجّدون الذكور ، وعندما يبشَّر أحدهم بابن يعلّق القوس والنشاب على الباب ، دليل مولد الذكر الذى يحمى العشيرة ، ويزود عنها الردى ، أما إذا بشّر بأنثى فإنه يعلّق على بابه مغزلا دليل الخنوع والضعف .

البوذية فى الصين :

ومن أهم الأديان التى كانت سائدة فى الصين قبيل ظهور الإسلام ، الديانة البوذية ، وكانت البوذية فى ذلك الحين قد فقدت بساطتها ، وتحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت ، وتبنى الهياكل ، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلّت ونزلت ، يقول الأستاذ اتريا « لقد قامت فى ظل البوذية دولة تعنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل .

وجاء فى دائرة المعارف البريطانية فى مادة بوذا ما يلى « لقد أصيبت البرهمية والبوذية بالانحطاط ، ودخلت فيهما العادات الساقطة ، وأصبح من العسير التمييز بينهما . لقد اندمجت البوذية فى البرهمية وذابت فيهـــا » .

الهنـــد :

يقول السيد أبو الحسن على الحسنى الندوى وكيل ندوة علماء الهند ما يلى : اتفقت كلمة المؤلفين فى تاريخ الهند على أن أحط أدوارها ديانة وخلقا واجتماعا كان ذلك العهد الذى يبتدىء من مستهل القرن السادس الميلادى فقد شاركت الهند فى التدهور الخلقى والاجتماعى الذى شمل الكرة الأرضية فى هذه الحقبة من الزمن ... وبلغت الوثنية أوجها ، ووصل عدد الآلهة الى ٣٣٠ مليونا ، وقد أصبح كل شىء رائع ، وكل شىء جذاب ، وكل مرفق من مرافق الحياة إلهاً يعبد ، وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والإلاهات الحصر ، وأربت على العد ، فمنها أشجار تاريخية :

وأبطال تمثل فيهم الله ، وجبال تجلى عليهـا بعض آلهتهم ، ومعـادن كالذهب والفضة تحمل سر الألوهية ، وأنهار ، وآلات حـرب ، وآلات التناسل ، وحيوانات أعظمها البقرة ، وغير ذلك ، وقد ارتفعت صـناعة نحت التماثيل فى هذا العهد حتى فاق هذا العصر فى ذلك جميع العصور الماضية ، وقد عكفت الطبقات كلهـا ، وعكف أهل البلاد مـن الملك إلى الصعلوك على عبادة الأوثان .

وظهر فى الهند نظام الطبقات فى أبشع صورة ، فقد ازدهرت فى الهند قبل المسيح بثلاثة قرون الحضارة البرهمية ، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندى ، وألف فيه قانون مدنى وسياسى أصبح رسميا ومرجعا دينيا فى حياة البلاد ومدنيتها ، وهو المعروف الآن بـ « منوشاستر » ويقسم هذا القانون السكان أربع طبقات هى :

١ — البراهمة : وهم طبقة الكهنة ورجال الدين .

٢ — الكشتريا : وهم رجال الحرب .

٣ — الوشيا : وهم التجار والصناع .

٤ — الشودرا : وهم طبقة الخدم والعبيد .

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقا ألحقتهم بالآلهة ، فجعلتهم صفوة الله وملوك الخلق ، وملكتهم مافى العالم لأنهم أفضـل الخلائق وسادة الأرض ، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم الشـودرا ما شاءوا ، لأن العبد وما ملكت يداه لسيده (١) .

العرب :

فى صور مـن وأد البنات ، وسبى النسـاء ، وعبودية إناة واللات

---

(١) انظر كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٣٨ — ٤١ وكتاب أديان الهند الكبرى للمؤلف .

والعزى ، وفى حروب لا تنقطع ، وغارات لا تهدأ كان يعيش العرب قبل الاسلام ولعل أدق تصوير وأخصره لحالة العرب فى الجاهلية هو ذلك الذى قرره جعفر بن أبى طالب أمام النجاشى ملك الحبشة حينما سأله هذا عن دين الاسلام والرسول محمد ، قال جعفر (١) : أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف (٢) .

العالم قبيل شروق الاسلام :

تلك صورة سريعة مجملة للعالم قبيل شروق شمس الاسلام ، تلك الحالة التى وصفها الأستاذ دينسون Dinson (٣) بقوله :

فى القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد كان العالم المتمدين على شفا

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ٢١٣ .

(٢) يرتبط هذا الكلام الذى قاله جعفر بن ابى طالب بأحداث رايتها بنفسى فى احدى البلاد الاسلامية غير العربية . أو قل أن هذا الكلام يتخذ أساسا لادعاءات ضد العرب وضد الاسلام . فهناك بعض متوسطى الثقافة لا يحبون العرب ولا يحبون الاسلام . وربما دفعهم هذا الاحساس الى مهاجمة العرب ومهاجمة الاسلام وهم يتخذون من كلام جعفر بن أبى طالب وسيلة فيصورون العرب بهذه الصورة البشعة التى رسمها جعفر . ويحقرون بذلك العرب والدين الذى نزل على واحد منهم .

وموقف هؤلاء لا يستحق دفاعا فيما أظن . فهو ليس الا نقصا فى الثقافة ، ولو فكر هؤلاء قليلا ليروا كيف كانت تعيش بلادهم فى ذلك الوقت السحيق وكيف كانت تعيش أوربا ، وما نسميه الآن أمريكا واستراليا . لو فكروا كذلك ، لوجدوا أن العرب كانوا أشرف حالا . لقد كان العرب يأكلون الميتة اى الحيوانات التى لم تذبح ذبحا حلالا ولكن كان سواهم يأكلون لحوم البشر . وكان العرب يأتون الفواحش ولا يزال سواهم ممن يدعون المدنية يأتون الفواحش جهارا حتى اليوم . وكان العرب يسيئون للجار ولا يزال سواهم يسىء للجار ولغير الجار .

ثم هل يعنينا أن العرب كانوا كذلك قبل الاسلام ؟ اننا نثبت ذلك لنرى كيف تغيرت أحوالهم بعد الاسلام . ذلك الدين الذى نظم أمور الدين وأمور الدنيا .

(٣) Emotions as the Basis of Civlization.

جرف هار من الفوضى ، لأن العقائد التى كانت تعين على اقامة الحضارة ، قد انهارت ، ولم يك ثَمّ ما يعتد به مما يقوم مقامها ، وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية الى ما كانت عليه من الهمجية إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام • أما النُظُم التى خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام ، وبهذا صارت المدنيّة التى كـانت كشجرة ضخمة متفرعــة ، امتد ظلها الى العالم كله ، صارت واقفة تترنح ، وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب •

وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ، ولد الرجل الذى كان خير دواء لهــذا الداء •

الباب الثانى

تكوين الفرد المسلم

كيف كوّن محمد أول مجتمع إسلامى

جاء محمد صلى الله عليه وسلم والعالم كما وصفنا ، وكان ظهوره فى جزيرة العرب القاحلة الجرداء ، التى قلت فيها الحضارة والرقى وكثرت الحروب والغارات ، جاء عليه السلام فكوّن فى هذا المجتمع ، وفى الجزيرة المتنافرة أول مجتمع إسلامى • كيف كونه ؟ وما مظاهر ذلك المجتمع ؟

وينبغى قبل كل شىء أن يتضح أن المجتمع الاسلامى الأول تكوّن فى المدينة لا فى مكة ، فقد كان المسلمون قبل الهجرة قلة بمكة يعيشون فيها أحيانا ، ويهاجرون منها فرارا بدينهم أحيانا أخرى ، فلم يكونوا من القوة ولا من العدد بحيث يكوّنون مجتمعا ، وعلى هذا فلم تكن مكة هى المدينة الاسلامية الأولى ، وانما كانت يثرب هى المدينة التى تكوّن بها أول مجتمع إسلامى •

وفى الجزء الأول من موسوعة التاريخ الاسلامى قدمت الكثير من التفاصيل عن جهود الرسول صلوات الله عليه بالمدينة ، تلك الجهود التى شملت الرسول كداعية ومُرَبٍّ للدعاة ، ووصفت حياة الرسول بين أصحابه ، وبيّنت موقف الرسول من الشباب ، ومن العمل ، ومن تربية الولاة ، والقضاة ، وغيرها من الموضوعات المهمة (١) •

تكوين الفرد المسلم بمكة

شىء مهم جدا بدأ فى مكة : ذلك هو تكوين الفرد المسلم الذى منه تكوّن فيما بعد المجتمع الاسلامى بالمدينة ، وتكوين الفرد المسلم الذى بدأ فى مكة عملية مهمة جدا فى التاريخ ، وانه لمن أبرز الأهداف التى حققها الاسلام بل حققها بسرعة هو تحويل الرجل العربى الى رجل مسلم ، وليست المسألة أن العربى أصبح مسلما ولكنها أعمق من هذا بكثير ، لأن

---

(١) موسوعة التاريخ الاسلامى ج ١ ص ٢٧٤ — ٤٤١ (الطبعة الثانية عشرة) .

الاسلام غيّر الشخص العربى تغييرا شاملا حتى كأنه خلقه خلقاً جديداً ولإيضاح ذلك نثبت المقارنة الدقيقة التالية :

من الوثنية إلى التوحيد :

فالرجل الذى كان يسجد لغير الله ، ويعبد اللات والعزى ومناة ، ويقدم لها القرابين ، ويطوف بالكعبة مردداً :

والــلات والعــزّى ومنــاة الثــالثة الأخــرى

فــانهن الغــرانيق العــلى وإن شــفاعتهن لتــرتجى

هذا الرجل ينقله الاسلام فى هذا الباب مرحلة واسعة ، فيجعله يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وإن الإنسان ليحس بدهشة بالغة عندما يفكر فى ذلك الموضــوع ، فقد كان العربى فى عبادته منغمسا فى المادة ، يغد الى اللات والعزى ومناة من مختلف البقاع ، ويحدث هذه الآلهة ، ويطلب منها ، ويقدم لها القرابين ، كيف استطاع بسرعة أن يترك هذا الإله وأن يهدمه بيده ، ثم يتجه فى عبادته الى إله لا يراه كما كان يرى الأصنام ، ولا يكلمه كما كان يكلّمها

إن عبادة المادة ترتبط بحاجات الناس . وقد عبد العربى اللات موقتاً أنها تنفعه وتضره ، ومن الممكن أن يدع الإنسان عبادة شىء مادى ليتحول إلى شىء مادى آخر ، يرى نفعه أعم وأشمل ، كالقصة التى أوردها القرآن الكريم : « فلما رأى القمر بازغاً قال : هــذا ربى . فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكون من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة ، قال : هذا ربى هذا أكبر » (١) ولكن التحول الذى أحدثه الاســلام فى العربى تحول واسع جداً ، لقد نقله من المادة كلها الى عبادة الله الواحد الأحد ، وارتفعت حساسية العربى وسمت نفسه فلم يعد يفكر فى المنفعة العاجلة ،

(١) سورة الأنعام الآيتان ٧٧ — ٧٨ .

ولم يعد يقتنع بأن ضوء الشمس وحرارتها كافيان لجعل الشمس إلها يُعْبَد فما بالك بحجر ينحته بيده وينصبه بقواه .

على أن إيمان العربى بالله وصل الى درجة عالية من العمق ، وصل الى درجة الحب والتفانى ، فقد رأينا العربى يدافع عن الاسلام بحماسة بالغة يرجو بها أن يصل الى إحدى الحسنيين ، أن ينتصر فينتشر دين الله وينال رضاه ، أو يموت فيلقى ربّه ويحظى بقربه ، وقد رُوِىَ أن عمير ابن الحمام كان يحارب قريشا مع المسلمين فى غزوة بدر ، فأحس بالجوع ، فاعتزل المعركة ليأكل ، وأخرج من جرابه بلحات يهدّىء بها ثورة الجوع فسمع وهو يأكل قارئاً يتلو قوله تعالى « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » (١) ، ولما سمع عمير هذه الآية الكريمة تاق للقاء ربه ، والتمتع بالجنة التى عرضها السموات والأرض ، ونظر الى البلح الذى وضعه أمامه وقال : كيف يشغلنى هذا البلح عن لقاء الله ؟ لئن حييت حتى آكله إنها لحياة طويلة . وألقى البلح عنه ، وأسرع الى المعركة يخوض غمارها ، ومازال يقاتل فى سبيل الله حتى قتل (٢) .

من السيف إلى المسالمة :

والرجل الذى كان يحكّم السيف فى أموره دون تفكير ، وينصر أخاه ظالما أو مظلوما ، أصبح هادىء الطبع لا يدافع حتى عن نفسه إذا اعتُدِىَ عليه ، فالتاريخ لم يسجل حادثة واحدة دافع فيها مسلم عن نفسه بمكة ، وكان رائدهم فى ذلك الرسول صلوات الله عليه ، فلقد أوذى بألوان من العنت دون أن يردّ عن نفسه أذى بأذى وأوذى أصحابه

---

(١) سورة التوبة الآية ١١١ .
(٢) ابن القيم : زاد المعاد ج ٢ ص ٨٨ .

وأتباعه حتى مات منهم تحت العذاب من مـات ، دون أن يقابلوا اعتداء باعتـداء أو صفعة بصفعة ، حتى لأذن الله لهم بالهجرة الى المدينـة ، وبالدفاع عن أنفسهم بقوله « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير (١) فهل كان من الممكن أن نتوقع هذا أو ما يقرب منه مـن العرب فى الجزيرة العربية وهم الذين كانوا يشعلون حربا تـدوم عشرات السنين لأتفه الأسباب ؟

من القوة الى القانون :

وكان العربى يرى فى القوة دستوره ورائده ، وكان يحترمها ويجلها ، يخضع لها ويُخضع غيره بها . كان يستطيع أن يهجم على الرجل يسير مع زوجته أو ولده فيحاربه ، فان غلبه أخذ منه متاعه وأهله ، وليس للمغلوب أن يشكو ، لأن المهاجم استعمل سلاح القوة ، وهو عندهم قانون وشريعة

وجاء الاسلام فشرع النظم ووضع القوانين ، وألزم المسلمين اتباعها والخضوع لها ، ودان المسلم للحق وأصبح القانون دستوره والعدالة رائده ، وما كان له إلا أن يتبع ذلك بعد أن امتلأ سمعه وقلبه بقوله تعالى « وأن احكم بينهم بمـا أنزل الله » (٢) « ومن لم يحكم بمـا أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (٣) « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (٤) . وقد لخص أبو بكر هذا الدستور الجديد فى خطبته التى افتتح بها خلافته حيث قال : الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه .

---

(١) سورة الحج الآية ٣٩ .
(٢) سورة المائدة الآية ٤٩ .
(٣) سورة المائدة الآية ٤٤ .
(٤) سورة النساء الآية ٦٥ .

من النهب الى الامانة :

وكان العربى يعيش حيث السلب والنهب والعدوان ، وقد سبق أن ذكرنا أنه بالقوة كان العربى يأسر العربى أو يأخذ أهله ، أما المال فكان أقل شأنا بطبيعة الحال ، وكان نهبه فى جنح الظلام أو فى وضح النهار عملا عاديا لا يمنعه الا شدة الحراسة ويقظة الحراس ، بل وجدت فى الجزيرة العربية طوائف تحترف النهب وتعيش عليه هى جماعات الأعراب ٠

ماذا أحدث الإسلام بالإنسان العربى فى هذا المجال ؟

لقد أصبح خُلُق الأمانة بعض كيان المسلم ، فلقد رُوِى أن أحد جنود المسلمين عثر على تاج كسرى عقب هزيمة الفرس فسلمه لصاحب الغنائم دون أن يطلع فيه أو يأخذ منه جوهرة تكفل له الغنى ، وروى الطبرى قصة أخرى من هذا النوع قال : لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الغنائم أقبل رجل ومعه حُقٌّ من الجوهر الفريد ، ودفعه الى صاحب الغنائم فعجب صاحب الغنائم ومن معه من ذلك الحُق وقالوا : ما يعدله كل ماجمعنا اليوم ٠ وسألوا الرجل : هل أخذت منه شيئا ؟ فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به ٠ فقالوا : من أنت ؟ فأجاب : والله لا أخبركم لتحمدونى ، ولكنى أحمد الله وأرضى ثوابه ٠

من الثأر الى القصاص :

ويتصل بالقوة موضوع آخر هو موضوع الثأر ، فقد سبق أن قلنا إنه كان على المغلوب أن يستكين ويستسلم ما دام ضعيفا ، فإذا تقوى أو وجد من ينصره ويعينه لجأ إلى السلاح الذى هزمه وهو سلاح القوة ليثأر لنفسه ، وعلى هذا كان الأخذ بالثأر أبرز صفات العربى ، وكان العربى يدين بالقاعدة العربية التى تقول إنه إذا قَتَل رجل من قبيلة فرداً فيحق لكل منهم أن يقتل من يصادفه من أفراد قبيلة القاتل ٠ ودخل العربى الإسلام فأدرك آداب الإسلام فى هذا الاتجاه ، عرف أنه لا تزر

وازرة وزر أخرى ، وعرف كذلك أن القصاص يقوم به ولى الأمر ، وعرف تحديد القصاص فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » (١) وقوله : « أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » (٢) وعرف ذلك الرجل المصير القاسى الذى يستحقه اذا اعتدى ، عرف ذلك من قوله تعالى « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (٣) وقوله « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا » (٤) بل عرف هذا الرجل ما هو أعظم من ذلك ، فقد علمه الاسلام خلقا أسمى من العدل وهو خلق العفو ، قال تعالى « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلا بالله » (٥) .

من الحياة القبلية الى المسئولية الشخصية :

وكان العربى يفكر بتفكير قومه ، أو قل كان لا يفكر ، وانما كان يخضع لتفكير جماعته ، كان عضواً فى قبيلته ، يسالم من سالمت ، ويقاتل من قاتلت • دون أن يسأل نفسه مرة واحدة : لماذا يقاتل ؟ وهل القبيلة على حق أو على باطل فيما تشنه من حروب وما تقوم به من هجوم ؟ وجاء الاسلام فبنى فى العربى شخصيته وعرّفه مسئوليته « لا يضركم من ضل

---

(١) سورة البقرة الآيتان ١٧٨ — ١٧٩ .
(٢) سورة المائدة الآية ٤٥ .
(٣) سورة البقرة الآية ١٩٠ .
(٤) سورة الاسراء الآية ٣٣ .
(٥) سورة النحل الآيتان ١٢٦ ، ١٢٧ .

إذا اهتديتم » (١) ووضّح الاسلام للعربى أنه لن يُعْفَى من المسئولية إذا اتبع غيره ولو كان ذلك الغير أباه أو أمه « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الايمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون » (٢) ووضح القرآن للعربى أن يتبع طريق المحسنين البررة وألا يتبع طريق العصاة ولو كان هؤلاء العصاة أقرب الناس إليه « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفاً . واتَّبعْ سبيل من أناب إلىّ » (٣) .

وخطا الاسلام فى هذا الاتجاه خطوة أبعد وأسمى ، فقد كان العربى كما قلنا يعيش لقبيلته ، ثم كان يركز حبه فى أولاده وعشيرته وماله ، أما الإنسانية ، وأما الحياة الروحية ، فلم يكن لها نصيب كبير فى نفسه ، فهتف به القرآن فى حزم وتهديد « قل إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره » (٤) . وقد روى أن العرب عندما سمعوا هذه الآيات قالوا فى إيمان ويقين : الله ورسوله أحب إلينا من كل ذلك . وروى أن عبد الله بن أبىّ بن سلول رأس المنافقين بالمدينة حاول مرة أن يثير فتنة بين المهاجرين والأنصار . فأشار عمر على الرسول بالأمر بقتله ، وعرف عبد الله بن عبد الله بن أبىّ — وكان مسلما حسن الاسلام — غلطة أبيه واحتمال أن يأمر الرسول بقتله . فجاء الى الرسول يقول له : « يا رسول الله إنه قد بلغنى أنك تريد قتل أبى ، فإن كنت فاعلا فمرنى فأنا أحمل إليك رأسه ... » وهكذا كان يعيش المسلم للإسلام ومبادئه أكثر مما يعيش لأهله وذويه .

---

(١) سورة المائدة الآية ١٠٥ .

(٢) سورة التوبة الآية ٢٣ .

(٣) سورة لقمان الآية ١٥ .

(٤) سورة التوبة الآية ٢٤ .

من امتهان المرأة إلى إجلالها :

تحدثنا الروايات التاريخية على أن المرأة فى كثير من القبائل بجزيرة العرب كانت مُمْتَهَنَة ، وقبل أن نعطى هنا بعض التفاصيل نحب إنصاف الحقائق أن نقرر أن هذا الامتهان لم يكن شائعا فى جميع القبائل ، وأن المرأة فى بعض قبائل العرب كانت تحتل مكانة مرموقة فى بعض النواحى ، ولكن الإسلام غيَّر مكانة المرأة على العموم ، وغيَّر نظرة الرجل للمرأة وحظيت ، جميع النساء فى حمى الاسلام بحقوق لم تحظ بها المرأة الأوربية إلا فى هذا القرن الذى نعيش فيه ، بل لسنا مبالغين إذ قررنا أن المرأة الأوربية لم تتلجعد كل ما حققه الاسلام للمرأة من حقوق •

وكانت العادات التى سنذكرها قانون تلك القبائل ، وليس هناك من غضاضة فى اتباعها ، بل الغضاضة فى مقاومتها أو التمرد عليها ، وجاء القانون السماوى فسرعان مادان به العربى ، واتَّبعه ودافع عنه •

يذكر بعض مؤرخى اليمن أن التملك كان مشاعا بين أفراد الأسرة فى عهد من العهود ، وأن المرأة كانت بعض هذا الملك المشاع ، فكانت زوجة أو خليلة لأفراد الأسرة كلها ، فإذا دخل أحدهم خباءها لوطر ركز عصاه عند الباب ، فلا يفتحه عليه أحد . لكن مبيتها كان مع رب الأسرة دائماً (١) •

وشاع فى كثير من القبائل ذلك المنكر الذى حرمه الله بقوله « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً (٢) فقد كان من حق وارث الميت أن يرث أرملته أيضا بأن يذهب لها بعد موت زوجها فيلقى عليها رداءه ، وحينئذ يكون له أن يتزوجها أو يزوجها من غيره ويقبض مهرها •

---

(١) المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل : الفاروق عمر ج ٢ : ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

(٢) سورة النساء الآية ١٩ .

ولم يكن للمرأة نصيب من الميراث ؛ فلا ترث البنت من أبيها ، ولا الزوجة من زوجها ، ولا الأم من ابنها ، إذ كان العرب يجعلون الميراث قصورا على من حمل السيف وطعن بالرمح وذاد عن حمى القبيلة .

وتأتى بعد ذلك القسوة الطاغية التى تمثلت فى وأد البنات ، فقد كان من العرب من يحمل ابنته ويحفر لها ويئدها دون ذنب جنته ، أو جريرة اقترفتها « وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت » (١) ولم يكن الدافع له على هذا العمل العنيف الا خوف العار أو الفقر ، وقد ظل يرتكب هذا الفعل المنكر حتى صاح به القرآن « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً » (٢) « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » (٣) .

وعلى العموم فقد عبر عمر بن الخطاب تعبيرا شاملا من رأى العربى فى المرأة بقوله : والله إنا كنا فى الجاهلية لا نعد النساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم .

كيف تحول المسلم فأصبح يُجِلُّ المرأة بعد أن كان يَمْتهنها وماذا أنزل الله فى النساء وقسم لهن ؟

قبل أن نجيب على هذا نحب أن نوضح أنه ليس الرجل فقط هو الذى خضع للأمر الجديد وأحنى له الرأس ، بل إن المرأة أدركت ما حققه لها الاسلام وتمسكت به ودافعت عنه ، يقول الدكتور هيكل (٤) : ولا شك أن النساء قد أصررن على ما فرض الله لهن من حق ، ولم يكن للرجال أن ينكروه عليهن ، أو يناقشوهن فيه ، وقد آمنوا بالله وكتابه ورسوله .

---

(١) سورة التكوير الآيتان ٨ — ٩ .
(٢) سورة الاسراء الآية ٣١ .
(٣) سورة الأنعام الآية ١٥١ .
(٤) الفاروق عمر ص ٢٥٢ .

وإذا ذهبنا نصور هذا الحق نجد أنه انقلاب عظيم فى تاريخ حياة العربى ، انه السمو بالمرأة لتتساوى بالرجل مساواة كاملة فى المركز الإنسانى ، فلقد رفع الاسلام عن المرأة ما أثقلتها به حياة الجاهلية من مظالم ، لقد كانت المرأة كما قلنا مشاعا بين أفراد الأسرة فى بعض البقاع • ومعنى كونها مشاعا أنها متاع لهم ، فجاء الاسلام فنظم هذه العلاقة على أساس جديد من تقديس العلاقة بين الرجل وزوجته ، وكانت المرأة متاعاً أيضا عندما كانت تورث كسائر التركة التى يتركها ميت كما سبق القول ، فجاء الاسلام فنقلها من متاع يورث الى انسان يَرِث ، فأصبحت تأخذ من تركة زوجها وذويها نصيبا مفروضا وتقف مع باقى الوارثين على قدم المســـاواة •

وكان السيف هو من أهم الصلات والاسباب التى تتيح الميراث ، لذلك كانت البنت والأم والأخت تحرمن من الميراث لينالها المناضلون من الرجال فجعل الاسلام النسب والمصاهرة والولاء هى الصلات المعتبرة •

وهاجم القرآن الكريم وأد البنات وجعله من الجرائم القاســية • وحدد الاسلام عدد الزوجات بعد أن كان مطلقا ، وآثر الزوجة الواحـدة إذا خيف عدم العدل •

وفى أسمى المواضع من آى القرآن الكريم أى بعد تقرير التوحيد وهو المبدأ الأسمى فى الاسلام يقرر كلام الله ضرورة الاحسان للوالدين ، ويرتفع بهذا الاحسان الى درجة عالية لا تبيح للابن أن يتأفف ، أو يظهر الضجر من أفعال الأب والأم قال تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريماً ، واخفض لهما جناح الذل مـن الرحمة ، وقل : رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً » (١) • وخص الاسلام

---

(١) سورة الاسراء الآيتان ٢٣ — ٢٤ •

الأم بمزيد من الرعاية « حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك » (١) .

من الاباحية الى الطهر :

والرجل الذى شاهد العهر والفسوق وكثيرا ما أخذ منهما بنصيب ، الرجل الذى رأى نساء بنى عامر كما يروى المؤرخون (٢) يَطُفْنَ حول الكعبة عراة أو حاسرات ، يرددن أشعارا فيها إغراء وإثارة ، هذا الرجل يكسوه الإسلام حلة من الطهر والعفة ، فيغض الطرف ويبعد عن الزلل ، فإذا غلبه الشيطان وارتكب الفاحشة سارع واعترف مطالبا بتطهير نفسه بأن يلقى حتفه مرجوما تكفيرا عما ارتكبه من إثم ، روى مسلم بن الحجاج عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن ماعز بن مالك الأسلمى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله ، إنى ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى » فرده الرسول ، فلما كان من الغد أتاه فقال : « يا رسول الله إنى قد زنيت » فرده الرسول ثانية وأرسل إلى قومه يسألهم : أتعلمون بعقله بأساً أو تنكرون منه شيئا ؟ فقالوا : ما نعلمه إلا وفىّ العقل . فأتاه الثالثة فرده الرسول . وأعاد السؤال عنه فأُخْبِرَ أنه لا بأس به ولا بعقله ، فلما كانت الرابعةُ حفرت له حفرة ثم أمر به الرسول فرجم » .

ومثل هذا ما فعلته الغامدية التى جاءت الرسول لتقول له : يا رسول الله انى قد زنيت فطهرنى . فردها الرسول . فلما كان الغد جاءت وقالت للرسول : تريد أن تردنى كما رددت ماعزا ، ولكنى والله حملت من الزنا ، فقال لها الرسول : اذهبى حتى تلدى . فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة فقالت : قد ولدته . قال اذهبى حتى ترضعيه إلى أن يطعم الطعام فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز فقالت : هذا يانبى الله قد فطمته وأكل الخبز فدفع الرسول بابنها الى رجل صالح يعوله وأمر بها فرجمت ، وكان بين من رجموها خالد بن الوليد فتطاير رشاش من دمها عليه ؛

---

(١) سورة لقمان الآية ١٤ .

(٢) محمد يونس الحسينى : الفكر الاجتماعى ص ١٤٧ .

فسبَّها ، فقال له الرسول : مهلا يا خالد . فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » (١) ثم أمر فصلى عليها ودفنت . وهكذا بلغ الطهر بالعربى درجة من السمو والصفاء يندر أن يوجد لهما مثيل ، أو يكون لهما نظير .

من نظام الطبقات إلى المساواة :

والرجل الذى كان يخضع لنظام الطبقات ، ويؤمن به ، ويسير على هديه ، وينظر الى العالم على أنه أُسَرٌ أو قبائل متفاضلة ، تتفاوت تبعاً للدم والنسب . هذا الرجل أعاد الاسلام تكوينه . فإذا بالتفاوت عنده يخضع لعامل آخر هو عامل التقوى والعمل الصالح « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (٢) وورد فى الحديث قول الرسول : أيها الناس ، إن ربكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى .

رواه أحمد

من الانزواء بالجزيرة الى السيطرة على الفرس والروم :

وكان العربى منزوياً فى الجزيرة العربية ، يَرْهبُ الفرس والروم ، ويقبل راضيا أو كارها أن تخضع كثير من مناطق الجزيرة لنفوذ كسرى ونفوذ قيصر ، وكانت نظرته للفرس والروم نظرة رهبة وإجلال عبَّر عنها عبد الرحمن بن عوف بقوله : **إنها الروم وبنو الأصفر حدٌّ حديد وركن شديد** ، وكانت نظرة الفرس والروم للعرب نظرة استعلاء وترفُّع ، عبر عنها شهريران فى رسالته التى أرسلها الى المثنى بن حارثة الشيبانى الذى قاد جيوش المسلمين لغزو فارس ، قال شهريران : « إنى قد بعثت إليك جنداً من أهل فارس هم رعاة الدجاج والخنازير ، ولست أقاتلك إلا بهم » .

---

(١) ابن رشيد القرطبى : بداية المجتهد ونهاية المقتصد جـ ٤ ص ٣٠٦ — ٣٠٧ .

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣ .

وكأنَّ شهريران كان يعتقد انه يكتب للعربى الذى عهده منزوياً ضعيفا ، ونسى الحدث الأعظم الذى دخل على العربى فغيَّر من شانه ، وخلق منه بطلا مغواراً قُدِّرَ له أن يحطِّم ملك القياصرة ويهدم عروش الأكاسرة ، ويفتح البلدان ، ويكوِّن الامبراطورية الاسلامية الفسيحة ، وأن يقف أمام الجيوش المستعدة المزودة بالسلاح والمؤن ، وسلاحه الرئيسى هو الايمان ، يضرب به فتفرق قلوب الرجال وتنخلع نفوس الأبطال • قال الهرمزان لعمر بن الخطاب معللا ضعف العرب قبل الإسلام وقوتهم بعد الإسلام : يا عمر كنا وإيَّاكم فى الجاهلية وقد خلَّى الله بيننا وبينكم فغلبناكم ، إذْ لم يكن معنا ولا معكم ، فلما كان معكم غلبتمونا •

غرس أخلاق الإسلام فى الفرد :

لم تكن هناك مقاييس ثابتة للأخلاق قبل الاسلام ، لا فى الجزيرة العربية ولا فى غيرها ، فالعدل كان أحيانا يُعَدُّ من الأخلاق العالية ، ولكن الجور أحيانا كان يعد بطولة ، وكانت الأمانة ضرورية داخل الأسرة ، ولكن خارج الأسرة والقبيلة كان السلب محمدةً ، وهكذا فلما جاء الاسلام ألغى حدود الزمان والمكان والجنس بالنسبة للأخلاق ، وحدد الفضائل والرذائل ، وجعلها مستقرة ثابتة فى كل الظروف ، فالصدق ، والاخلاص فى العمل ، والكرم ، والوفاء بالوعد ، والصبر ، والحلم ، والعفو ، صفات يلتزم بها المسلم ، والكذب ، والكبر ، والظلم ، والرشوة ، والحسد ، والغيبة ، والنميمة ••• رذائل يجب أن يبتعد عنها المسلم •

وقد بذل الرسول جهدا كبيرا لتثبيت الفضائل وتطهير المسلمين من الرذائل ، ونجح نجاحا كبيرا فى تثبيت الأخلاق الاسلامية فى نفوس المسلمين •

كيف تربى هذا الرجل المسلم ؟

تلك نماذج قليلة وسريعة سنعود الى بعضها بشىء من التفصيل فيما بعد ، ولكنها هنا تدلنا دلالة واضحة على مدى تحوّل الرجل المسلم فى مكة المكرمة ، وكيف أصبح عنصرا صالحا تكوَّن منه فيما بعد المجتمع الاسلامى فى المدينة المنورة • كيف تربى هذا الرجل ليرحل هذه الرحلة الطويلة من رجل

فيه طبقية وأنانية ... الى مسلم يدين بالمساواة ويتصف بالسماحة والإيثار ؟

الجواب عن ذلك أن هناك عاملين مهمين أحدثا هذا التغير العظيم ، وهذان العاملان هما : الاسلام فى مبادئه السمحة ، والرسول فى شخصيته الفذة ، الفريدة فى صفاتها ، التى هى خير قدوة يقتدى بها المصلحون ، وسيظل هذان العاملان معنا طوال هذا الحديث نقتبس منهما ونسترشد بهما ، ولكنى هنا أبادر فأسوق قصتين تبرزان كيف كان الرسول يربى العرب لينقلهم الى صفوة من المسلمين .

كان أبو ذر الغفارى يناقش عبدا فى حضرة الرسول صلوات الله عليه ، وطال النقاش بين الاثنين ، فغضب أبو ذر وقال للعبد : يا ابن السوداء !! وسرعان ما التفت له المعلم العظيم وقال له : « طف الصاع ، طف الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح » وما إن انتهى الرسول من قولته حتى كان ابو ذر قد هوى من استعلائه الى عالم المساواة فى لحظة قصيرة ، فوضع خده على التراب وقال للعبد : قم فطأ على خدى .

وكان فضالة بن عمير بن الملوح من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويضمرون العداوة لله ورسوله ، وقد هم مرة ان يقتل الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت ، فلما دنا أدرك الرسول الشر فى عينيه أو ربما أوحى له بذلك ، فبادره الرسول قائلا : أفضالة ؟ قال : نعم فضالة يا رسول الله . فضحك النبى صلى الله عليه وسلم وقال : استغفر الله يا فضالة ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه وبرئت نفسه من الشر . قال فضالة : والله ما رفع يده عن صدرى حتى كان أحب الناس لى (١) .

ذلك لون من ألوان التربية التى اتبعها الرسول صلوات الله عليه ليخلق بها أفرادا كانوا عناصر طيبة تكون منها المجتمع الاسلامى الذى آن الأوان لنتحدث عنه .

---

(١) انظر زاد المعاد جـ ٢ : ١٨٧ .

الباب الثالث

المجتمع الإسلامي في عهده الزاهر

وأسس تكوينه

المجتمع الإسلامي :

إن تشييد قصر شامخ يحتاج الى فن راق وكفاءة ومقدرة ، والمادة الأولية من أخشاب وحديد وأحجار وغيرها ليست كل شيء فى تشييد البناء ، وان كانت تكوّن عنصرا مهماً لإقامته ، فتكوين القصر له هندسة خاصة وطرق معينة فى استغلال المادة الأولية التى يجب الحصول عليها بادىء ذى بدء ، وهذا مثال يبين لنا الجهد الذى يستلزمه تكوين مجتمع إسلامي حتى بعد أن يربى الفرد المسلم ويُعَدّ ليكون عنصرا صالحا لبناء هذا المجتمع ، فلبناء المجتمع فلسفة خاصة بجانب إعداد الأفراد الذين سيتكون منهم .

ولحسن الحظ بنى الرسول بنفسه المجتمع الاسلامى الأول فعلمنا كيف يتكوّن المجتمع الاسلامى ، وما الأسس التى يجب أن تتوافر فيه ، ولقد بنى الرسول المجتمع الإسلامى الأول بالمدينة عقب هجرته إليها من مكة ، فلننظر كيف بناه ، ثم لنسر مع هذا المجتمع الاسلامى لنرى كيف نما ، وكيف أصبحت المدينة بلدةً ضمن بلاده العديدة وأقطاره الفسيحة .

الطوائف بالمدينة عقب الهجرة :

التقى فى المدينة عقب الهجرة عدة عناصر أهمها الطوائف الثلاثة الآتية :

١ — المهاجرون ، وهم الذين فروا بدينهم من مكة إلى المدينة .

٢ — الأنصار ، وهم الذين دخلوا الاسلام من سكان المدينة الأصليين.

٣ — اليهود ، وهم بقية من بنى اسرائيل مع من تهوّد من العرب .

ويدخل مع كل صنف من هذه الأصناف قبائل وجماعات لجئوا لها وعاشوا فى جوارها ، فكان على الرسول أن يكوّن من هذه الطوائف مجتمعا سليما يضع له قوانينه ونظم حياته ، يهذب نفسه وروحه ، وينظم سلوكه ومعاملاته ، وعلى الجملة يجمع فى تشريعاته وسياسته خير الدين

والدنيا ، واتجهت فكرة الرسول الى غاية سامية هي حجر الزاوية في تكوين المجتمع الاسلامي ، وهي تكوين أسرة جديدة من المسلمين تحل محل الأوس والخزرج ، ومحل بني عبد مناف وبني هاشم وغيرهما ، وتصبح هي الأسرة الاسلامية التي ينتمي لها المسلمون في المدينة أيا كانت قبائلهم وأيا كانت ديارهم ، فإذا تم له ذلك خطا الخطوة الثانية وهي ربط هذه الأسرة الاسلامية بغير المسلمين من الجماعات التي تعيش معهم مكوناً المجتمع الاسلامي ، فالمجتمع الاسلامي هو المجتمع الذي تسوده روح الاسلام ويتعاون أعضاؤه — أيا كانت ديانتهم — فيما يحقق الخير للمجتمع .

أسس تكوين المجتمع الإسلامي :

وقد اتبع الرسول أسسا قويمة ثبتت بنيان العالم الاسلامي ، **ورفعت شأنه ، وهذه الأسس هي :**

أولا — بناء المسجد ليكون ملتقى للمسلمين .

ثانيا — المؤاخاة بين المسلمين .

ثالثا — المعاهدة بين المسلمين وغير المسلمين .

رابعا — وضع أسس للنظام السياسي (الشورى) .

خامسا — وضع أسس النظام الاقتصادي .

سادسا — القدوة الحسنة .

سابعا — سيطرة روح الاسلام على هذا المجتمع .

وسنتحدث عن هذه الأسس واحدا بعد الآخر فيما يلي :

أولا — المسجد ملتقى المسلمين

كانت أولى الخطوات التى اعتمد عليها الرسول لتكوين المجتمع الاسلامى بناء مسجد المدينة ، ولم يكن الهدف الأسمى لبناء المسجد إيجاد مكان للعبادة فحسب ، فالدين الاسلامى يجعل الأرض كلها مسجداً للمسلمين ، ولكن مهمة المسجد كانت أعمق من هذا وأقوى ؛ لقد أراد الرسول فيما يبدو لى أن يبنى مكانا لا ينتمى لهذه القبيلة أو تلك ، ولا يجتمع فيه أفراد من أسرة خاصة ، بل أن يشيد مكاناً يؤمه الجميع ، هو بيت الله أو بيت الجميع ، وفى هذا البيت يلتقى المسلمون للعبادة ، وللمشاورة ، وللقضاء والتجارة وللسمر ، وفيه يلتفون حول الرسول يأخذون عنه مبادىء الدين ، ونظم المجتمع الجديد ، وآيات القرآن الكريم ؛ وفى هذا المكان أو هذا المنتدى أو هذه المدرسة أو هذا المسجد ستمتزج النفوس والعقليات ، وتقوى الوحدة وتتآلف الأرواح ، ومنه سينبعث الأذان خمس مرات فى اليوم يعطر جو المدينة ، ويعلن أن كلمة الله أصبحت الكلمة العليا .

وتدلنا الروايات التاريخية على أن أهل المدينة كانوا يتخذون المسجد منتدى لهم ، يجتمعون فيه للسمر ولإنشاد الشعر ، وللحديث فى شئون التجارة ، بجانب العبادة والقضاء والتعليم حتى كان لغط المتسامرين والتجار أحيانا يعلو على أصوات المصلين والمتقاضين ، مما جعل عمر يخصص مكانا بجانب المسجد متصلا به لمثل هذه الأحاديث ، ليبقى المسجد خصيصاً للعبادة والقضاء والتعليم .

المسجد الآن كما ينبغى أن يكون :

ومن أجل هذا يتجه الفكر الجديد الآن الى العودة بمسجد اليوم الى

روح الاتجاه الذى بُنِيَ على أساسه المسجد الأول فى صدر الاسلام ، نريد أن يكون مسجد اليوم « مجمعًا » به مكان للعبادة ، وبه مكتبة إسلامية وثقافية وبه قاعة للمحاضرات والاجتماعات ، وبه استعداد للإسعافات الصحية السريعة ، وحوله مكان للشبان يمارسون به بعض الرياضيات المباحة ، حتى اذا أذن المؤذن للصلاة هرعوا إليها ، ونريد أن يكون بكل مسجد مكان مخصص للنساء ، تصلين به وتتدارسن فيه شئونهن .

ونحن بهذا نخلق مركزا دينيا سيكون واسع الأثر فى خدمة الاسلام والمسلمين ، كما كان مسجد الصدر الأول للاسلام .

ثانيا — المؤاخاة بين المسلمين

ومع بناء المسجد خطا الرسول خطوة أخرى لها خطرها العظيم في تكوين المجتمع الاسلامى فى المدينة ، وتلك الخطوة هى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وكانت هذه الخطوة استجابة لقوله تعالى : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، أولئك بعضهم أولياء بعض » (١) ولم تكن المؤاخاة التى حصلت مؤاخاة بين المهاجرين من جانب والأنصار من جانب آخر فقط ، وإنما تمت بعضها بين مهاجر ومهاجر ، فالرسول اتخذ عليا بن أبى طالب أخا له ، وبعضها بين أنصارى وأنصارى ، والكثير منها بين مهاجر وأنصارى كما سنرى ، وقصد الرسول بذلك أن يقرب أيضا بين الأوس والخزرج إذ كانت الحروب بينهما قريبة عهد ، وأن يقرب بين بعض قبائل المهاجرين وبين البعض الآخر ، كما قصد أيضا أن يؤكد المساواة فى الاسلام بطريقة عملية ، فآخى بين أفراد من أعظم القبائل العربية وبين بعض الموالى والعبيد ، وفى ضوء هذه المبادىء دعا الرسول المسلمين ليتآخوا فى الله أخوين أخوين . فكان هو وعلى بن أبى طالب أخوين ، وكان أبو بكر وخارجه بن زهير أخوين ، وكان عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الخزرجى أخوين ، وكان جعفر بن أبى طالب ومعاذ بن جبل أخوين ، وكان أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ أخوين ، وكان عبد الرحمن بن عوف وسعيد بن الربيع أخوين ، وكان الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود أخوين ، وكان طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين ، وكان عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أخوين ، وكان سلمان الفارسى وأبو الدرداء أخوين ، وكان بلال وأبو رويحة عبد الله الخشعمى أخوين ، وتآخى عدد كبير من المهاجرين بأفراد من الأنصار ، وجعل الرسول لهذا الإخاء حكم إخاء الدم والنسب (٢) قال الإمام عبد الرحمن الخشعمى فى كتابه الروض الأنف إن الرسول

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٧٢ .

(٢) ابن هشام جـ ٢ ص ١٩ .

صلى الله عليه وسلم آخى بين أصحابه حين نزلوا المدينة ليذْهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم عن مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشدَّ أزر بعضهم ببعض ، فلما عز الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة أنزل الله سبحانه « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » (١) أعنى فى الميراث . ثم جعل المؤمنين كلهم إخوة فقال « إنمــا المؤمنون أخوة » (٢) يعنى فى التواد وشمول الدعوة (٣) .

ومن هذا يتضح أن هذه المؤاخاة كان من نتائجها التوارث بين الأخوين والتعاطف والإيناس . وقد وضــعت الآية الكريمــة الســابقة « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » حداً للتوارث بين الأخوين من هذا النوع ، ولكننا نجــد هــذه المؤاخاة قد قويت وتأصلت بين كثير من هؤلاء حتى أن حمزة بن عبد المطلب كتب وصيته قبل أن يخوض غمار الحرب يوم أحــد لأخيه زيد بن حارثة (٤) .

وبهذه المؤاخاة انصهرت هــذه المجموعات وهؤلاء الأفراد فى بوتقة الاسلام ، وتشكلت منها أسرة اسلامية جديدة متحابة متعاونة : يربطها رباط التوحيد وتقوى بينها مواثيق الحب والتعاطف ، وقد نسى كل من هؤلاء نسبه وعصبيته ونزعاته الجاهلية ، وتطلعوا جميعا الى النسب السامى وهو العلاقة الاسلامية والرباط الدينى المتين ، ومن العجيب أن الزمن مر ، وتتابعت الأحداث ، وتغيرت الظروف التى دعت للمؤاخاة فى هذا الوقت العصيب وهذا المحيط الضيق ، ولكن هؤلاء الإخوة لم ينسوا المؤاخاة التى عقدها الرسول بينهم : يحكى ابن هشام (٥) ، أن بلالا كان قد خرج للشام مجاهدا واستقر هناك منذ عهد أبى بكر ، فلما جاء عهد عمر بن الخطاب ، ودون الدواوين سأل عمر بلالا : إلى مَنْ يكون ديوان الشام يا بلال ؟

(١) سورة الأنفال : الآية ٧٥ .
(٢) سورة الحجرات : الآية ١٠ .
(٣) الروض الانف ج ٢ : ص ١٨ .
(٤) ابن هشام ج ٢ : ص ١٨ .
(٥) سيرة ابن هشام ج ٢ : ص ١٩ .

قال بلال : الى أبى رويحة يا أمير المؤمنين ، فانى لا احب أن أفارقه للأخوة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد بينى وبينه فاستجاب له عمر .

كيف تمت هذه المؤاخاة وهذا التآلف بين من كانوا بالأمس أعداء متشاحنين ؟ إنه فضل الله وقدرته التى ما فوقها قدرة ، وقد صور القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء ، فألّف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا » (١) وقوله : « وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » (٢) .

ويجب أن نذكر هنا العون ، وحسن الاستقبال ، وكرم الضيافة ، والحفاوة التى قدمها الأنصار للمهاجرين ، وقد زادت المؤاخاة هذه العلاقات قوة ، فأصبح الأنصار للمهاجرين أهلا ، أفسحوا لهم صدورهم ، ولم يضنوا عليهم بمالهم « يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » (٣) .

لقد أنتجت عملية المؤاخاة هذه ، أسرة اسلامية واحدة ، تكونت من القبائل المتعددة والعناصر المختلفة ، ونسى كلٌ أرومته ومحتده ومنبعه ، وتطلع لرباط الاسلام الذى ألف الله به بين قلوب معتنقيه ، وأصبح جمهور سكان المدينة جماعتين اثنتين فقط ، هما جماعة المسلمين ، وجماعة غير المسلمين ، وأغلبهم من اليهود . فأتاح ذلك للرسول صلوات الله عليه أن يخطو خطوة جديدة يحقق بها التحالف بين سكان المدينة جميعا ، ويضرب المثل السامى للتعاون بين أتباع الديانات المختلفة ، على أساس من احترام العقيدة وحرية الدين والعبادة ، وسنتكلم عن هذه الخطوة الجديدة فيما يلى :

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٣ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٦٣ .

(٣) سورة الحشر : الآية التاسعة .

ثالثا — المعاهدة بين المسلمين وغير المسلمين

جعل الدين الاسلامى توحيد الله أساسا قويما يمكن أن يتعاون فى ظله اتباع الديانات السماوية المختلفة قال تعالى : « يا أهل الكتاب ، تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله » (١) فإذا ارتقى الانسان بإنسانيته ، وسما بعقله وروحه وترفع عن عبادة الصنم والحيوان والشمس والقمر ، وآمن بالله وحده ، ورفض أن يشرك به شيئا ، فان ذلك الانسان مسلما كان أو مسيحيا أو يهوديا تربطه صلة قوية بمن شاطره هذه العقيدة وإن اختلف معه فى الدين : « ومن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها » (٢) .

وفى ضوء هذا المبدأ عقد الرسول معاهدة بين المسلمين وبين اليهود وأقليات أخرى صغيرة كانت تعيش فى المدينة ، وتعتبر هذه المعاهدة من أنفس المعاهدات الدولية وأمتعها وأجدرها بتقدير الناس جميعا على اختلاف أديانهم ، وهى بالاضافة الى ذلك تنير السبيل للمؤمنين ، وتبين لهم كيف يتعاونون مع أتباع الأديان السماوية الأخرى ، ويكونون معهم وحدة تتمتع كل مجموعة فيها بالحرية الدينية .

ويتعهد الموقعون على هذه المعاهدة بالتعاون فى الدفاع عن بلدهم المشترك ضد أى اعتداء قد يقع عليه ، وأن يتعاونوا ماليا فى الأزمات الاقتصادية ، وأن يرجعوا جميعا عند اختلافهم لقضاء الرسول ، وفيما يلى مقتبسات مختارة من هذه الوثيقة الهامة :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، انهم أمة واحدة من دون الناس ،

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٦٤ .

(٢) البقرة : الآية ١٥٦ .

المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يَفْدُون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين (أى هم على أمرهم الذى كانوا عليه من تعاونهم فى القصاص والديات ولكن حسبما تقضى النظم الاسلامية) ، وبنو عوف وبنو الحارث (من الخزرج) وبنو ساعدة (من الأوس) على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرحاً (مثقلا بدين أو غرم) بينهم ، بل يعطونه بالمعروف فى فداء أو عقل ، وإن المؤمنين على كل من بغى أو ارتكب إثماً أو عدوانا أو فسادا بين المؤمنين ، وأن ايديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم .

ولا يَقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينْصُر كافرا على مؤمن .

وإن من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن .

وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش (كانت قريش على الشرك آنذاك) ولا نفسا .

وإنه من اعتبط (قَتَل ظلماً) مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قَوَدٌ به إلا أن يرضى ولىّ المقتول بالعقل (الدية) وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

ومهما اختلفتم فيه من شىء فان مرده الى الله والى محمد .

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم إلا من ظلم أو أثم .

وإن ليهود بنى النجار ويهود بنى الحارث ... مثل ما ليهود بنى عوف إلا من ظلم أو أثم .

وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وأن يثرب حرام جوفها (لا تجوز الحرب بداخلها) لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده الى الله والى محمد رسول الله ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وإنه من خرج فهو آمن ، ومن قعد بالمدينة فهو آمن إلا من ظلم وأثم ، وإن الله جار لمن برّ واتقى ومحمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)(١) .

والذى يتمعن هذا الميثاق يجد أن الدولة الاسلامية ظهرت للوجود ، وأصبح جميع المؤمنين رعايا لها متساوين على اختلاف أجناسهم وعصبياتهم ، وتتعاقد الدولة الاسلامية مع أتباع الأديان الأخرى تعاقدا أساسه النصر للمظلوم ، والنصح والبر ، وحرمة الأوطان المشتركة ، وحرمة من يدخل فى الميثاق ويقبل جواره ، على أن تصان عقائد المتعاقدين وشعائرهم وحريتهم فى الدعوة لدينهم مهما تباينت هذه الأديان (٢) .

لقد كان الرسول فى المؤاخاة يربى أرواح أتباعه وعواطفهم ويسمو بمشاعرهم ، ولكنه هنا ينظم المجتمع الاسلامى ، فيلاحظ من فيه من غير المسلمين ، ويضع لهم وللمسلمين هذه المرة القواعد والقوانين والدستور الذى يلزم أن يتبعه الجميع ، كانت المؤاخاة فلسفة روحية عملية عميقة ، وجاءت هذه الوثيقة قانونا محددا ، ينظم الروابط بين المسلمين بعضهم والبعض الآخر . والروابط بينهم وبين غير المسلمين ، وقد شملت هذه الروابط الناحية القضائية والمالية ، والقصاص ، وحرية الأديان ، والتعاون فى الحروب وغير ذلك مما يكفل لهذا المجتمع الجديد نجاحا ، ويضع أمامه ضوءا يهديه السبيل .

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٦ — ١٩ .

(٢) عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة ص ٨٨ .

رابعا : الشورى (*)

وضع الرسول صلوات الله عليه فى ذلك العهد المبكر أسس الحكم فى المجتمع الأسـلامى فى مختلف الشئون ، والدعـامة الرئيسية لهـذه الأسس هى اتباع النص الصريح إذا وُجِدَ ، فاذا لم يوجد فالشورى والاجتهـــاد .

ومن المعروف أن الاسلام عنِيَ عناية كاملة بأمر الدين والدنيا ، فهو عقيدة وهو فى نفس الوقت نظام ، فكما دعا الاسلام للإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وضع كذلك نظما مفصّلة أو قابلة للتفصيل عن مشكلات الأسرة كالزواج والطلاق والميراث ، وعن مشكلات المجتمع الاسلامى كالتعاون والقضاء وفض المنازعات والمساواة ، وعـن مشكلات المجتمع العالمى كالحروب والمعاهدات .

وان الرسول صلى الله عليه وسلم هو زعيم المجتمع الاسلامى الأول ، وكانت فى يده السلطة الدينية والسلطة الزمنية ، وهو باسم السلطة الدينية كان يتلقى التشريع من الله ويفسره إن احتاج الى تفسير ، ويفصله إن احتاج الى تفصيل ، وباسم السلطة الزمنية كان ينفّذ هـذا التشريع ، ويقود المجتمع فى ظله الى الغاية الحميدة فى الدنيا والآخرة .

وكانت آيات القرآن الكريم التى نزلت فى مكة تقتصر تقريبا على أصول الدين والدعوة الى هذه الأصول . كالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، والأمر بمكارم الأخلاق والنهى عن مساوئها ، أما فى المدينة فقد شملت آيات القرآن جميع الأمور المدنية كالبيع والإجارة والربا ، والأمور الجنائية كالقتل والسرقة ، والأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث .

(*) للاطلاع على بحث علمى كامل عن التنظيم السياسى فى الاسلام ندعو القارىء للرجوع الى كتاب « السياسة فى الفكر الاسلامى » للمؤلف .

وبذلك استطاع الرسول فى المدينـــة أن يمدّ المجتمع الجديد بالأفكـــار الاسلامية التى توجّهه وهو يسير •

ومن الملاحظ ان التشريع فى القرآن لم يأت دفعة واحدة ، وألا كان انتقالا ضخما لم يتعوده القوم وربما نفروا منه ، بل جاء التشريع متتاليا : وتبع حاجات الناس ، فقد كان الرسول يسأل عن أشياء أو تحدث أمامه حادثة تحتاج الى فتيا ، فكان ينتظر أن يوحى اليه بالجواب ، وكثيراً ما ورد الجواب مرتبطاً بالسؤال الذى وجه للرسول كقوله تعالى :

— يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما (١) •

— يسألونك عن اليتامى ، قل إصلاح لهم خير (٢) •

— يسألونك عن المحيض ، قل هو أذى (٣) •

— يسألونك ماذا أحل لهم ، قل أحل لكم الطيبات (٤) •

وأحيانا كان يجىء الجواب غير مرتبط بصيغة السؤال وذاك هــو الغالب ، ومن أمثلة ذلك أن رجلا من غطفان كان عنده مال كثير لابن أخ له يتيم ، فلما بلغ اليتيم الرشد طلب المال فمنعه عمه ، فترافعا الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم (٥) •

وفى بعض الأحوال كان الرسول لا يتلقى جواباً من الله ، وكان ذلك يعتبر إيذاناً من الله بالاجتهاد لمحاولة ايجاد حل لهذه المسألة ، فكان الرسول

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٩ •
(٢) سورة البقرة : الآية ١٢٠ •
(٣) سورة البقرة : الآية ٢٢٢ •
(٤) سورة المائدة : الآية ٤ •
(٥) سورة النساء : الآية ٦ •

يجتهد ويستشير أصحابه • وتدلنا الروايات التاريخية أنه كان يكثر من استشارته لهم حتى قال أبو هريرة « ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكان أبو بكر وعمر في مقدمة الصحابة الذين كان الرسول يعتمد عليهم ، وقد روى عنه أنه قال لهما « وأيم الله لو اتفقتما على أمر ما خالفتكما فيه أبداً » ، وفي ضوء اجتهاده واستشارته كان الرسول يصدر قضاءه في المسائل التي لم ينزل فيها قرآن ، فان صادفه التوفيق في قضائه كان بها ، وان أخطأه التوفيق نزل الوحي معلّماً ، وحينئذ يدع الرسول ما قضى به على حالة تقديراً لقيمة الاجتهاد ، ويتبع القرآن فيما يَجِدُّ من أحداث تنطبق عليها الآية الجديدة ، فلا يكون للآية أثر رجعي ، ومما ورد فيه قرآن مخالف لما قضى الرسول به مسألة أسرى غزوة بدر ، فقد روى أنه عليه السلام أُتِيَ يوم بدر بسبعين أسيراً فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب وكانوا يطمعون أن يفدوا أنفسهم بالمال ، فاستشار الرسول أصحابه فقال أبو بكر : قومك وأهلك ، استبقهم لعل الله يتوب عليهم ، وخذ منهم فدية تقوّى بها أصحابك • وقال عمر : اضربْ أعناقهم فانهم أئمة الكفر وإن الله أغناك عن الفداء • ومال أغلب الصحابة الى رأى أبي بكر فقضى به الرسول ، ولكن سرعان ما نزلت الآية الكريمة : « ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » (١) • فقررت هذه الآية أن شرط الفداء هو سيطرة الاسلام وقوة جانبه وانكماش الكفر وضعف سلطانه • ولم يكن الاسلام قد وصل الى مكانة العزة والسيطرة بالقياس الى الكفر في ذلك الحين ، ولذلك كان إذلال الكفار وإضعاف المحاربين أرجح في نظر القرآن من قبول الفداء •

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٧ •

ومن ذلك أيضا ما نزل فى غزوة تبوك ، إذ استأذن بعض الناس فى التخلف عن الغزو مع الرسول واستجاب لهم الرسول قبل أن يتحرى حقيقة نواياهم ، فنزل قوله تعالى « عفا الله عنك ، لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » (١) .

على أن ما صححه القرآن للرسول كان قليلا ، أما الغالب فإن رأى الرسول الناتج عن تفكيره واستشارته لأصحابه كان هو الأساس لسير الأمور .

وهناك أمران هامان يتصلان بالتشريع فى هذه الفترة وعلاقته بالقرآن الكريم وهذان الأمران هما :

١ — القرآن وإن كان أساس الشريعة وأصلها الأول ، جاءت دلالته على الأحكام التشريعية الفقهية فى كثير من الأمور على نحو كلى لا جزئى ، فالصلاة والزكاة لم يرد لهما تفصيل فى القرآن ، ومن ثم نشأت الحاجة للرسول وإلى الأحاديث لتبيين ما أبهم ، وتفصيل ما أجمل ، قال تعالى « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » (٢) .

على أن الرسول لم يفسر من القرآن إلا ما دعت إليه الحاجة فى عهده ، وكان هذا من حكمة الله وهديه ، إذ أن الرسول لو فسر القرآن كله لفسره ملائما لروح العهد والبيئة التى كان فيها ، ولقيدتنا هذا التفسير الصادر عن الرسول ، ولكن الرسول ترك ما لم تدع حاجة ماسة لتفسيره ليفسره العلماء عندما تدعو لذلك الحاجة ، ملائمين بينه وبين الأزمنة التى يعيشون فيها ، والظروف التى تحيط بهم فى حدود المعانى الكلية لروح الاسلام ، وعلى ألا يختلف التفسير الجديد مع ما سبق فيه شرح أو إجماع .

وكان أصحاب رسول الله يدركون عدم رغبته فى تفسير مالم تدع له الحاجة ، ولذلك ما كانوا يسألونه إلا عند الضرورة ، روى عن ابن عباس

---

(١) سورة التوبة : آية ٤٣ .
(٢) سورة النحل : آية ٤ .

أنه قال : ما رأيت قوما قط كانوا خيرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما كانوا يسألونه إلا عما ينفعهم ، وكان عمر بن الخطاب يلعن من سأل عما لم يكن .

٢ — نصوص القرآن كلها قطعية الثبوت ، لا ريب فى صحتها لوصولها إلينا بطريق التواتر ولقوله تعالى : « إنـا نحن نزلنا الذكر وإنا لـه لحافظون » (١) إلا أن دلالة هذه النصوص على الأحكام ليست قطعية دائما ، بل قد تكون قطعية إذا لم يحتمل النص الا تفسيرا واحدا كأكثر آيات المواريث وآيات الحدود ، وقد تكون دلالة النص ظنية لا يقطع بها ، لاحتماله أكثر من تفسير بسبب ما اشتمل عليه من لفظ عام أو مشترك أو مطلق ، ومثـل ذلك قوله تعـالى : « حـرمت عليكم الميتة » (٢) . فان لفظ الميتة عام يشمل ميتة البر وميتة البحر ، فهل المراد ذلك كله ؟ أو المراد ميتة أحدهما فقط ؟ ومن هنا كانت دلالة النص ظنية فجـاءت السنة وحددت الحلال والحرام بقول الرسول عن البحر « هو الطهور ماؤه الحل ميتتـه » .

فأنت ترى بيسر ووضوح أن هذا المجتمع كان يسير على هـدى القرآن والحديث وهدى الشورى التى كان الرسول يركن اليها ويسأل أصحابه رأيهم ويستفيد بأفكارهم عندما لا يوجد نص قرآنى يعتمد عليه ، وكان ذلك عملا بقوله تعالى : « وشاورهم فى الأمر » (٣) وقوله : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم » (٤) .

وفى حدود الدستور الذى كانت تلك مراجعه نعم هذا المجتمع بأسعد حيـــــاة .

---

(١) سورة الحجر : الآية التاسعة .
(٢) سورة المائدة : آية الثالثة .
(٣) سورة آل عمران : آية ١٥٩ .
(٤) سورة الشورى : الآية ٣٨ .

خامسا ــ وضع أسس النظام الاقتصادى للإسلام *

فى هذه الفترة وُضِعَت الأسس الاقتصادية للإسلام ، هذه الأسس التى ترمى الى أن تخلق بين المسلمين جوا من الحب والتعاون والايثار ، ووسيلتها لذلك تحقيق العدالة الاجتماعية ، بحيث لا يوجد جائع يعيش بجوار متخم ، وعار يرى الآخر وهو يرفل فى الحرير والديباج .

والإسلام لا يحارب الغنى ، ولا يحاول أن ينتقص من ثروة الأغنياء ، مادام الأغنياء قد حصلوا على المال بطريق مشروع وأدّوا حق الله فيه . ويبيح الاسلام أن يؤخذ عند الضرورة من مال الغنى ما يَفِى بحاجة الفقير أو بحاجة الدولة ، وفى ظل التفكير الاسلامى الاقتصادى طالما اختفى الفقر ، وتجمعت ثروات طائلة للأغنياء ، حتى كان الغنى يبحث عمن يتسلم منه الزكاة فلا يكاد يجده .

وللإسلام فى سياسة المال فلسفة خاصة ليست بالرأسمالية ولا بالشيوعية ولا بالاشتراكية الأوربية ، وهاك ملامح هذه الفلسفة .

١ ــ مبدأ الملكية الفردية :

يقرّ الإسلام حق الملكية الفردية للمال الذى حصل عليه المسلم بالطرق المشروعة ، وقد نَسبَ القرآنُ الأموال للناس فى الآية الكريمة « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » (١) وكذلك فى قوله « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار » (٢) . ويقرّ الاسلام كذلك التفاوت فى الغنى بقدر الجهد الذى يبذله كلّ مسلم ، وبقدر التوفيق الذى يصادفه ، وقد ورد القرآن

(*) عن الاقتصاد فى الاسلام يراجع القارىء ما كتبه المؤلف بكتابه « الاقتصاد فى الفكر الاسلامى » .

(١) سورة التغابن : الآية ١٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٧٤ .

الكريم مقررا هذا التفاوت ، قال تعالى « والله فضّل بعضكم على بعض فى الرزق »(١) وقال « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات »(٢) .

وعلى هذا فالاسلام يجيز الملكية الفردية ، ويشمل ذلك ملكية الأراضى الزراعية ، كما يشمل ملكية المتاجر والمصانع ، ويحرس الاسلام هذه الملكية وينقلها الى ورثة المالك عن طريق نظام الميراث فى الاسلام ، ولا يجيز الاسلام للحكومة التدخل فى هذه الملكيات الا اذا تعارضت مع الصالح العام ، ويكون تدخل الحكومة حينئذ بالتوفيق بين حق الملكية الفردية الذى أقره الاسلام ، وبين المصلحة العامة التى هى أيضا أساس من أسس التشريع الاسلامى .

ولا نزاع أن التفاوت فى الثراء طبيعى جدا ، لأن الناس متفاوتون فيما هو أفضل من الثراء وأنفس منه ، إنهم متفاوتون فى الصحة ، والقوى العقلية ، والذكاء ومتفاوتون فى الجمال ، واللون ، والصوت ، ومتفاوتون فى مقدار توفيقهم فى الزواج أو الجوار أو الصحبة ، ومتفاوتون فى مدى صلاح الأولاد ونجاحهم ، ولم يقل أحد بوجوب محاربة هذا التفاوت وضرورة أن يصبح الناس سواسية فى صحتهم وعقولهم وأولادهم عددا ونوعا وتوفيقا .. وغير ذلك ، فالنهج الاسلامى فى إباحة التفاوت فى الغنى نهج طبيعى واضح .

٢ — مكانة المال :

بماذا يفضل المسلمُ المسلمَ ؟ وهل للمال نصيب فى رفع شخص عن آخر درجةً فى التقدير والاحترام ؟

الجواب لا ، والرسول صلى الله عليه وسلم خير مثل لذلك الموضوع ، لقد عاش فقيراً ومات مدينا ، ومع هذا نال فى حياته وبعد موته أسمى

---

(١) سورة النحل : الآية ٧١ .
(٢) سورة الزخرف : الآية ٣٢ .

درجة من الاجلال والتعظيم ، وقد ورد فى الحديث (إن الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) وحددت الآية الكريمة مكــان التفضيل بين المسلمين : « يا أيها الناس إنا خلقناكم مــن ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) فالله سبحانه وتعالى صوّر للمسلمين أكرمهم وأعظمهم درجة ، بأنــه أتقاهم وأكثرهم صلة بالله وبعدا عن نواهيه .

وروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم سأل أصحابه يوما أتدرون مَنْ المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ماعليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار .

ذلك هو المفلس فى الاسلام مهما كان ماله ، والغنى فى الاسلام هو الغنى فى خلقه ، الغنى فى عمله ، الغنى فى تقواه ، عن أسامة بن شريك قال : كنا جلوسا عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ جاءه أناس فسألوه : من أحسن عباد الله الى الله تعالى ؟ فأجاب : أحسنهم خلقا (٢) . وفى رواية ابن حيان أنهم سألوا : ما خير ما أعطى الإنسان ؟ فأجاب : خلق حسن .

ونسوق الآن آيتين كريمتين قارنتا بوضوح بين المال وســواه ، وبينتا مكانة المال ، يقول الله تعالى « زُيِّنَ للناس حب الشهوات من النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة ، والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » (٣) . فالمال بصنوفه متاع الحياة الدنيا لن تغرهم الحياة الدنيا ، أما عند الله

---

(١) سورة الحجرات : الآية ١٣ .
(٢) رواه الطبرانى .
(٣) سورة آل عمران : الآية ١٤ .

فالعمل الصالح هو الذى ينيل حسن المآب ، ويقول تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » (١) .

هذه هى مكانة المال فى الاسلام ، على أن المال إذا أحسن صاحبه التصرف فيه ، ونفع به ، يقوده الى أعظم الجزاء ، قال عليه السلام « السخى قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار ، ولجاهل سخى أحب إلى الله تعالى من عابد بخيل » (٢) .

٣ ــ التقريب فى المظهر بين المتفاوتين فى الغنى :

هذه فكرة اسلامية نبيلة للغاية ، فالاسلام مع اهتمامه بالتقريب فى المستوى المادى بين المسلمين على ما سيأتى ، يهتم أيضا بالتقريب بين الغنى والفقير فى المظهر ، ويكره الاسلام وجود التفاوت الضخم فى اللباس والمتاع ، لأن ذلك ربما خلق نوعا من السخط أو الحسد قليلا كان أو كثيرا .

وطريقة التقريب التى يقترحها الاسلام رائعة ، يجب أن يشترك للوصول إليها الغنى والفقير جميعا ، فيحرم على الغنى الترف ، وقد نسب الله للمترفين السبق فى مجاهدة الرسل والكفر برسالاتهم ، قال تعالى « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون » (٣) ونسب لهم أنهم قادة الشر ورواد الضلال : « ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » (٤) وذكر سبحانه أن الترف والمتاع ينسيان الذكر ويقودان للبوار والخسران : « سبحانك ما كان

---

(١) سورة الكهف : الآية ٤٦ .
(٢) رواه الترمذى .
(٣) سورة سبأ : الآية ٤٣ .
(٤) سورة الأحزاب : الآية ٦٧ .

ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر ، وكانوا قوماً بورا » (١) والمترفون هم الذين يستجيبون لداعي الفسوق بيسر وسهولة : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (٢) والمراد بقوله تعالى : أمرنا مترفيها ، هو : أكثرنا مترفيها ، وليس المراد بقوله تعالى أردنا أن نهلك .. معنى الارادة الذي يتبادر للذهن من الرغبة في عمل الشيء والتهيئة له والاجبار عليه ، وإنما المقصود تهيئة الأسباب والمسببات . فطبيعة المترفين ستؤدي للفسق ، والفسق سيؤدي للخراب والدمار (٣) .

ومن أحاديث الرسول ما يؤيد تحريم الترف واستهجانه ، فقد روى أبو داود « تكون إبل للشياطين وبيوت للشياطين ، فأما إبل الشيطان فقد رأيتها ، يخرج أحدكم بنجيبات معه قد أسمنها ويمر بأخيه قد انقطع فلا يحمله ، أما بيوت الشياطين فلا أراها إلا هذه الأقفاص التي تستر الناس بالديباج » ويحذر الرسول من السرف والخيلاء في قوله « كُلْ ما شئت والبس ما شئت ما خطئتك اثنتان : سرف ومخيلة » (٤) .

وحرم الاسلام على الرجال لبس الحرير والتزين بالذهب ، كما حرم استعمال آنية الذهب والفضة فقد روى حذيفة « لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة فانها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة » أما النساء فيجوز لهن لبس الحرير والتزين بالذهب لأن ذلك يناسب المرأة لضرورة أن تبدو لزوجها في مظهر حسن ، ثم لأن الرجال أكثر اختلاطا بالحياة العامة ، فالترف معهم يؤذي الفقير ويؤلمه ، بخلاف المرأة لأن اختلاطها بالحياة العامة محدود جداً عن اختلاط الرجال .

ويجب أن يكون واضحا أن تحريم الترف ليس معناه التقشف

---

(١) سورة الفرقان : الآية ١٨ .
(٢) سورة الاسراء : الآية ١٦ .
(٣) اقرأ الكشاف جـ ٢ : ص ٣٣٥ .
(٤) رواه الترمذي .

والتقشف ، فالاسلام لا يعرف هذه الخشونة المصطنعة . ويهتف بالمسلم : « وأما بنعمة ربك فحدث » (١) ويقول تعالى فى آية أخرى « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » (٢) وقد نهى الاسلام عن البخل والتقتير ، قال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » (٣) وروى أبو الأحوص الجشمى عن أبيه قال : رآنى النبى صلى الله عليه وسلم وعلىَّ أطمار فقال : هل لك من مال ؟ قلت : نعم . قال : من أى المال ؟ قلت : من كلٍّ قد آتانى الله من الشاة والإبل . قال : إذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمته عليك » فالرسول يرى أن عدم إظهار النعمة إنما هو ضرب من إنكار فضل الله وعطائه . وروى جابر أن الرسول رأى رجلا أشعث قد تفرق شعره فقال : أما كان يجد هذا ما يسكن به رأسه ؟ ورأى رجلا عليه ثياب وسخة فقال : أما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه ؟

انتهينا الآن من إيضاح النصيب الذى يلزم الشرع الغنى أن يسهم به للتقريب بين مظهره وبين مظهر الفقير ، وهذا النصيب هو ترك الترف مع عدم الوصول الى الشظف والتقشف والخشونة ، أما النصيب الذى على الفقير أن يؤديه فهو أن يرتفع بمستوى مظهره حتى تضيق الهوة بينه وبين الغنى . وطريقة ذلك أن يتبع تعاليم الاسلام التى تحث الفقير على العمل والسعى فى طلب الرزق بإخلاص ومثابرة ونشاط ، قال تعالى : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » (٤) وقال : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » (٥) وقد وردت أحاديث كثيرة فى هذا الشأن ، فقد روى الترمذى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده »

---

(١) سورة الضحى : الآية ١١ .
(٢) سورة الأعراف : الآية ٣٢ .
(٣) سورة الاسراء : الآية ٢٩ .
(٤) سورة الملك : الآية ١٥ .
(٥) سورة الجمعة : الآية العاشرة .

وسوّى الله سبحانه وتعالى بين العامل المكافح وبين المجاهد فى سبيل الله تعالى : « وآخـرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضـل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله » (١) وروى أن الرسول كان جالساً يوماً مع أصـحابه ، فرأوا شاباً ذا جلد وقوة تد بكّر يسعى ، فقال أحـد الجالسين : وَيْحَ هذا ، لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله . فقـال عليه السلام : « لا تقولوا هذا فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ، ويغنيها عن الناس ، فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله » بل ان الاسلام جعل منزلة العمل أسمى من منزلة الانقطاع للعبادة ، فقد روى أن قوماً قدموا على النبى عليه السلام فقالوا « إن فلاناً يصوم النهار ويقوم الليل ، ويكثر الذكر فقال : أيكم يكفى طعامه وشرابه ؟ فقالوا : كلنا . قال : كلكم خير منه . ويروى أن عمر بن الخطاب نظـر الى رجل مظهر للنسك متماوت فخفقه بالدّرة وقال : لا تمت علينا ديننا أماتك الله (٢) .

وهناك حديث شريف يرقى بكسب العبد الى ارقى الدرجات ، حتى أنه يغرى بالعمل ، ويجعل النفس تتوق اليـه وهو قوله عليه السـلام « أحل ما أكل العبد كسب يد الصانع إذا نصح » .

وكان عمر بن الخطاب اذا رأى غلاماً فأعجبه سأل : هل له حرفة ؟ فإن قيل : لا قال : سقط من عينى (٣) .

فإذا عمل الفقير وكسب ما يسد به حاجته ، فان عليه بعد هذا أن يحسن مظهره وبخاصة فى المجتمعات التى ستجمعه مع الغنى : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » (٤) . وبنزول الغنى درجة تبعده عن الترف ،

(١) سورة المزمل : الآية ٢٠ .
(٢) المبرد : الكامل جـ ٢ : ص ٥١٠
(٣) ابن الجوزى : مناقب عمر .
(٤) سورة الأعراف : الآية ٣٠ .

وصعود الفقير درجة بكسبه وأخذه زينته ، يتحقق هدف الاسلام السامى من التقريب بين الغنى والفقير فى مظهريهما ، كما يتضح اتجاه الاسلام فى تعظيم العمل ، والحثّ عليه ، وبيان فضله وأنه يُعَدُّ عبادة من العبادات .

٤ — المال مال الله :

يقر الاسلام حق الملكية الفردية كما سبق القول ، ولكن المقصود من هذا التعبير هو ملكية الفرد بالنسبة للأفراد الآخرين ، أو قل إنه ملكية الظاهر أو ملكية الانتفاع ، أما المالك الحقيقى لكل شىء فهو الله سبحانه وتعالى : « ولله ملك السموات والأرض وما بينهما » (١) . « لله ملك السموات والأرض وما فيهن » (٢) والمالك الأعظم الذى « لم يكن له شريك فى الملك » (٣) مَنَحَ حق الانتفاع أو مَنَحَ الملكية الظاهرية التى نسميها الملكية الفردية الى بعض خلقه ، قال تعالى :

— هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها (٤) .

— ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة (٥) .

— وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه (٦) .

— وأنفقوا مما جعلناكم مستخلفين فيه (٧) .

— وآتوهم من مال الله الذى آتاكم (٨) .

وهناك آية أخرى تدل على أن الله خالق الكل للكل : قال تعالى :

---

(١) سورة المائدة : الآية ١٧ .
(٢) سورة المائدة : الآية ١٢٠ .
(٣) سورة الاسراء : الآية ١١١ .
(٤) سورة هود : الآية ٦١ .
(٥) سورة لقمان : الآية ٢٠ .
(٦) سورة الجاثية : الآية ١٣ .
(٧) سورة الحديد : الآية ٧ .
(٨) سورة النور : الآية ٣٣ .

« وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين » (١) فان الآية تدل على أن الرزق قدّر فى الأرض لكل سكان الأرض ، وكلمة «سواء » تفيد الشمول للخلق جميعاً ، دون أن يختص بالرزق أحد على أحد . وكلمة « للسائلين » تعنى الساعين للرزق ، الطالبين له ، المبتغين من فضل الله .

ويروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : يا ابن آدم ، تقول : مالى مالى ، ومالكَ من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو أعطيت فأمضيت (٢) .

وقد سبق القول ان الاسلام يحرس الملكية الفردية ، ومعنى هذا أنه ليس لإنسان أن يعتدى على ما استخلف الله فيه شخصا آخر ، أو أن يعمّره هو مادام الله وكل عمرانه لشخص آخر ، وينسى كثير من الناس هذه الحقيقة وهى أن المال عارية مستردة فيطغون به « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى (٣) » وتشتط طبيعة النسيان والجحود فى بعض الناس فيتباهون بما فى أيديهم ، ويعتقدون أنه مالهم كسبوه بخبرتهم ومواهبهم ، وتكون عاقبة هؤلاء أن يسترد الله منهم ما آتاهم ، وربما مسهم هم الضر مع زوال المال نتيجة لما اقترفوه من الجحود والكفران ، وقد ورد فى القرآن الكريم أمثلة كثيرة لذلك ، ونحن نورد منها مثالين لا يحتاجان الى تعليق ، قال تعالى :

« واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً ، كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا ، وفجرنا خلالهما نهرا ، وكان له ثمر ، فقال لصاحبه وهو يحاوره : أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال : ما أظن أن

---

(١) سورة فصلت : الآية ١٠ .
(٢) المبرد : الكمال جـ ١ : ص ٣٢٩ .
(٣) سورة العلق الآيتان : ٦ — ٧ .

تبيد هذه أبدا ، . . . . وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ، ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا ، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان منتصرا » (١) ويختم الله سبحانه وتعالى هذه القصة بقوله « هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثوابا وخير عقبى » ومعنى الولاية النصر والعون ، وقرأ حمزة والكسائى الوِلاية بكسر الواو ومعناها الملك والسلطان فالملك والسلطان فى مثل هذه الظروف يظهران للعيان أنهما لله الحق وحده جل جلاله .

أما المثال الثانى فيرتبط بقارون وثروة قارون التى هى حتى الآن مضرب المثل فى الضخامة ، والتى أزالها الله وأزاله معها فى لمح البصر ، قال تعالى « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما إنَّ مفاتحه لتنُوء بالعُصْبة أولى القوة ، إذ قال له قومه : لا تفرح ، إن الله لا يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ، قال : إنما أوتيته على علم عندى . أو لم يعلم أن الله قد اهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ، فخرج على قومه فى زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا ، ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ، وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » (٢) . . . .

ويقول صلى الله عليه وسلم « إن لله عند قوم نِعَما أقرها عندهم ما كانوا فى حوائج الناس ، مالم يملوهم ، فان ملوهم نقلها الى غيرهم » .

ويترتب على هذه الحقيقة الهامة وهى أن المال مال الله استخلف فيه

---

(١) سورة الكهف : الآيات ٣٢ — ٤٣ .

(٢) سورة القصص : الآيات ٧٦ — ٧٧ .

البشر ، أن الانسان ليس مطلق التصرف فيما تحت يده ، أو فى الذى نطلق عليه مجازا أنه ملكه ، ولو كان هذا الشىء ملكا خالصا للشخص لكان له أن يتصرف فيه على ما يحب ، ولكنه فى الحقيقة وكيل فيه ؛ ولذلك فهو يخضع فى التصرف فى هذا المال الى نظم معينة وضعها المالك الحقيقى سبحانه وتعالى ، وأهم هذه النظم ما يلى :

١ ـ لا يجوز له أن يكنزه بل لابد أن يطلقه للتعامل فينتفع به الصانع والعامل والزارع والتاجر ، فاذا كنزه استحق غضب الله عليه « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » (١) .

٢ ـ لا يستعمله فى رشوة فان استعمله فى رشوة فقد عصى المالك واستحق غضبه : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « الراشى والمرتشى فى النار » .

٣ ـ لا يسرف فى استعماله فاذا أسرف تعرض لمقت الله وغضبه « ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » (٣) ، ومدح الله المعتدلين وذم المسرفين والمقترين فى قوله « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » (٤) وجعل الله المسرف أخا الشيطان : « ولا تبذر تبذيرا ، ان المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » (٥) .

---

(١) سورة التوبة : الآيتان ٣٤ ـ ٣٥ .
(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٨ .
(٣) سورة الأنعام : الآية ١٤١ .
(٤) سورة الفرقان : الآية ٦٧ .
(٥) سورة الاسراء : الآيتان ٢٦ ـ ٢٧ .

٤ — **لا يَستَعمِل المال فى الاحتكار وانتهاز الفرص** وإلا تعرض لسخط الله وبرىء الله منه ، فقد ورد فى الحديث « من احتكر طعاما أربعين يوما يريد به الغلاء فقد برىء من الله وبرىء الله منه » وقال عليه السلام أيضا « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون » وقال « بئس العبد المحتكر ، إن أرخص الله الأسعار حزن ، وإن أغلاها فرح » .

ومن صور الاحتكار التى يمقتها الاسلام ويحاربها بعنف نوع كثير الانتشار فى هذه الأيام ؛ فهذا تاجر مبتدىء افتتح له حانوتا يبيع فيه نوعا من الأنواع رجاء أن يربح قوته وقوت أولاده ، ولكن الرأسماليين لا يريدون أن يفتحوا الطريق للناشئين ، وحينئذ يعلن هؤلاء الرأسماليون حربا مالية ضد هذا المسكين ، فيعمدون الى الأصناف التى يبيعها فيَخفِضون أثمانها بقدْرٍ بارز ، ويقع هذا المسكين فى حيرة ، فإن جاراهم فى خفض الأسعار جر على نفسه الدمار ، وإن بقى محتفظا بأسعاره أعرض عنه المشترون فلحقه البوار ، ولا يقوى هذا الناشىء على المقاومة الطويلة فيترك لهم المجال ، ويذهب ضحية من ضحايا طغيان الرأسمالية . ومثل هذا التصرف تمرُّد على القانون الإسلامى الرشيد .

٥ — **لا يسفه فى تصريف المال** ، فإن سفه فى استعمال ماله حجرَ عليه ، وسُلِبَ منه حق التصرف فى ذلك المال ، قال الفقهاء : والحجر يكون على الصبى والمجنون والسفيه والمبذر لماله والمفلس الذى ارتكبته الديون ، ولينوب ولى كلٌّ عنه فى التصرف فى المال حتى يَرْشُد السفيه أو يكبر الصغير ، وقد قرر القرآن الكريم أخذ حق التصرف من هؤلاء ومنعه لأوليائهم قال تعالى « فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا (صغيرا) أو لا يستطيع أن يمل هو (أى مجنونا) فليملل وليه بالعدل » [1] ،

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٢ .

ونظم الفقهاء الولاية فجعلوها للأب ، فالجد ، فالوصى ، ثم الحاكم لقوله عليه السلام « السلطان ولى من لا ولى له » (١) .

٦ — لا يستعمله فى ربا : إذا تحقق المبدأ الرئيسى الذى نتكلم عنه وهو أن المال مال الله ، فلا يجوز أن يتخذه مخلوق من البشر وسيلة لتعذيب البشر ، ثم إن طريق الحصول على المال هو العمل ، أما أن يجلس المرابى ، ويربو ماله على حساب جهد المحتاج وعرقه ، فهو ما يحرمه الاسلام تحريما قاطعا ، ولا نظن ان المشرع الحكيم قسا فى شىء قسوته على المرابى قال تعالى « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا . وأحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٢) وقال « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلَمون » (٣) ولا يقف جرم الربا على المرابى ، بل يدخل معه كاتبه وشاهده ودافعه . قال جابر « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده ، وقال : هم سواء » (٤) .

ولابد فى الحديث عن الربا أن نعطى بعض تفاصيل لأهمية ذلك الموضوع : ولعل أهم ما نبادر باثباته أن الأديان السماوية جميعا قد حرمت الربا ، فاليهودية حرمت الربا ، وعلى الرغم من ذلك اتخذ اليهود الربا صناعة مفضلة لهم ، وبرعوا فى الاتجار بالمال ، والمسيحية كذلك حرمت

---

(١) انظر باب الحجر فى كتب الفقة الكثيرة .
(٢) سورة البقرة : الآية ٢٧٥ .
(٣) سورة البقرة : الآيتان ٢٧٨ — ٢٧٩ .
(٤) رواه مسلم .

الربا وهاجمته وهاجمت المتعاملين به ، وليست الأديان السماوية فقط هي التي حرمت الربا ، بل إن المفكرين العاديين استطاعوا أن يدركوا ما في الربا من خطر على الفرد والمجتمع فقالوا بتحريمه ، ولعل أقدم من حرم الربا من المفكرين هم المصريون القدماء ، وفي العصر الحديث نجد كارل ماركس وهو الذي وضع الخطوط الرئيسية للمذهب الشيوعي يقول أيضا بتحريم الربا •

وإذا جاز لقوم أن يناقشوا حل الربا وحرمته فإن المسلمين بالذات لا يجوز لهم — فيما أعتقد — إلا أن يسلموا بالنظرية القائلة بتحريمه ، وليس ذلك لأنهم مسلمون فحسب ، بل لأن الدول الاسلامية في العصر الحديث قاست الوانا من الاستبداد ، والاستعمار والاستغلال ، وهذه كلها جاءت وليدة الربا ، فالاستعمار في البلاد الاسلامية بدأ عن طريق المرابين من الأفراد والشركات الذين وفدوا إلى الشرق الاسلامي وأقرضوا الناس ، وأقرضوا الحكومات ، وبمرور الزمن تحكم هؤلاء في ثروات البلاد وأصبح الأفراد والحكومات مدينين لهم ، ثم كانت الخطوة التالية وهي تدخل الدول التي جاء منها هؤلاء المرابون لتحميهم هذه الدول وتحمي أموالهم ، وهكذا عانت مصر من صندوق الدين ألوانا من العذاب ، وعانت إندونيسيا من اللجنة الهولندية صنوفا من الضغط ، وعانت كل البلاد الاسلامية والشرقية نفس النتائج العصيبة ، ومضى الزمن ، واشتد الاستعمار ، واستحكمت حلقاته ، وتحكم في مصير الدول الاسلامية ، وابتز أموالها ، وأوقف سعادتها ، وقضى على الحريات بها والدين لا يزال ينمو وينمو ، حتى إن إندونيسيا بعد أن سلب الهولنديون ثروتها ومنتجاتها أكثر من ثلاثة قرون ، خرجت من الاستعمار وهي مدينة بمئات الملايين من الروبيات ديناً لا يرتكز على عدل أو قسطاس مما جعل الحكومة الإندونسية تعلن في الرابع من سبتمبر سنة ١٩٥٦ إلغاء هذه الديون الظالمة الجائرة •

ولماذا حرّم الإسلام الربا ؟

حرم الإسلام الربا ليحارب جشع الغنيّ الذى يسعى ليزيد ماله من عرق الفقير ، إنها فى الحق قسوة عاتية أن يزداد مال الغنى على حساب المحتاج وعلى حساب الذى يستدين ليعالج ابنه أو أهله من مرض ، أو يرد عادية من عاديات الزمن .

إن على الغنى أن يقرض الفقير قرضا حسنا لا ربح فيه ، وأن ينتظره إلى ميسرة إن جاء أوان السداد والمدين ذو عسرة ، بل فى هذه الحالة ينبغى أن يحطّ الغنى عن المدين بعض الدَّيْن أو كله عملا بقوله « وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم » وعلى الفقير أن يَجِدّ فى تسديد دينه وسيساعده الله على ذلك ما أخلص فى نيّته ، فقد جاء فى الحديث الشريف « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه » (١) وليحذر المدين المطل عند المقدرة على السداد فقد قال الرسول عليه السلام « مطل الغنيّ ظلم » (٢) فاذا تعذر على الفقير السداد سدّ عنه من مال الزكاة من سهم الغارمين .

تلك هى فكرة الاسلام فيما يتعلق بالربا ولا نزاع فى أنها فكرة إنسانية رائعة ، إنها تتلخص فى مبدأ رائع ، هو أن الاسلام يكره أن ينال شخص السعادة على حساب شقاء الآخرين ، وربما غالى هذا المرابى فتمنى للناس الأزمات والضيق حتى يلجئوا إلى الاقتراض منه ، ومثل هذه الأمنية تمحق المجتمع ، وتقطع أوصاله ، وتقضى عليه .

٥ — مبدأ حق الفقير فى مال الغنى :

هذا المبدأ من أهم المبادىء فى التشريع الاسلامى ، ويهمنا أن نبرز هنا كلمة « حق » بمدلولها الكامل ، فالذى يأخذه الفقير أو تأخذه الدولة

---

(١) رواه الخمسة .

(٢) رواه البخارى .

من مال الغنى ليس منحة ، وليس عطاء ، وليس تفضلا ، ولكنه حق ، فاذا نكص الغنى عن تسليم ذلك الحق ألزمه الحاكم بذلك وأرغمه عليه ، ولو بالقوة والسلاح ، وقد روى عن أبى بكر قوله : والله لو منعونى عقال بعير كانوا يعطونه لرسول الله لحاربتهم عليه .

وكلمة « حق » هذه وردت فى القرآن بهذا النص إبرازاً للمعنى الذى شرحناه ، قال تعالى :

— وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل (١) .

— وآتوا حقه يوم حصاده (٢) .

— وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم (٣) .

وكثير من الناس يظنون أن الزكاة هى الحق الوحيد الذى يجب فى مال الغنى ، ويهمنا أن نوضح قصور هذا الرأى ، ويهمنا أن تذاع الحقيقة فى هذا الموضوع بين الناس ليعرفوا التشريع الاسلامى على وجهه الأكمل ، فالحقيقة أن فى مال الغنى نوعين من الحقوق هما :

(أ) حق محدد ، ثابت ، دائم ، هو الزكاة ؛ فهى مقادير محددة ، فى وقت معين ، وتدفع فى جميع الظروف ، وهذا الحق هو القدر الأدنى فى مال الغنى .

(ب) حق غير محدد ، وغير ثابت ، وغير دائم ، وذلك القسم هام جدا فى التفكير الاسلامى ، وهو غير محدد أى يزيد وينقص حسب الحاجة ا وحسب مقدار الثروة ، وغير ثابت أى ليس له وقت معين بل يطلب عند

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٢٦ .
(٢) سورة الأنعام : الآية ١٤١ .
(٣) سورة الذاريات : الآية ١٩ .

الحاجة ، وغير دائم أى يدفع عند حاجة الناس أو الدولة ، ويسقط إذا لم توجد هذه الحاجة . ويمكن أن نسميه الانفاق الواجب للصالح العام .

وسنتكلم بشىء من التفصيل عن كل من هذين النوعين :

١ ــ الزكاة :

الزكاة أحد أركان الاسلام الخمسة ، وهى ركن حافل بالثقافة الروحية ، ولقد طاف العالم برحلة طويلة منذ بدء البشرية حتى الآن ، وشهد العالم فى أثناء هذه الرحلة فيضا من الدماء وألوانا من الحروب التى تسببت عن المال بسبب التزاحم عليه ، والتكالب لنيله ، وقد وصف الاسلام الدواء للبشرية منذ أربعة عشر قرنا ، ولكن كثيرين من الناس صمّوا آذانهم ولم يعوا هذه الدعوة ، وهبت الحروب وأريقت الدماء ، ثم وجد العالم أن لابدّ من أخذ قسط من مال الغنى ورده الى الفقير ، بل بالغت بعض التشريعات فأزالت الملكية تماما ، وحدّدت التوارث أو منعته ، وجعلت الناس متساوين فيما يملكون ، والطريقان بعيدان عن الصواب ، فحصر الثروات فى أيد قليلة شر لا يقره العقل ولا يقره الاسلام « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » (١) ، والمساواة التامة بين الناس شىء يناقض الطبيعة ، فالطبيعة فاوتت بين الناس فى الصحة والذكاء والجمال والصوت وغيرها كما سبق القول ، فكيف نسوّى بين الناس ؟

والطبيعة تجعل الأبناء يرثون آباءهم فى كثير من صفاتهم أو فى كلها ، فكيف نحرم الأبناء من ميراث مال الآباء ؟

إن المنطق والعقل يريان أن السبيل الصحيح هو الطريق الوسط ، هو اتجاه الاسلام ، وتحقيق مبادئه الاقتصادية .

و « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » (٢) . وطبيعة الانسان الشح « قل : لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق ،

---

(١) سورة الحشر : الآية السابعة .
(٢) سورة الكهف الآية ٤٦ .

وكان الإنسان قتورا » (١) والإنسان يعمل لينمّى ماله فى تجارة أو زراعة أو غيرهما ، ثم يقدّم الزكاة من هذا المال العزيز الذى كدّ فى جمعه وتنميته والذى هو زينة الحياة الدنيا على الرغم من طبيعته الشحيحة ، إنها رياضة روحية رائعة فرضها الاسلام ليسمو بالمسلمين عن دنيا المادة إلى صفاء الروح ، وليعلمهم الحياة الاجتماعية السمحة التى لا يشغل فيها الشخص بنفسه وآله ويدع من سواهم ، فالاسلام بالزكاة ينقل الانسان من الأنانية إلى الإيثار ، ومن الفردية الى دنيا الجماعة ، فيحس أنه فرد فى هذا المجتمع ينتفع به وينفعه .

وقبل الاسلام كانت هناك ضرائب ، ولكنها كانت مفروضة على الفقير يدفعها للغنى ، يدفعها من عرقه وجهده ، فإن لم يكف العرق والجهد سجن فيها أو دفعها من دمه ، فجاء الاسلام وصحح الوضع ، فجعل الضريبة على الغنى يدفعها لصالح الفقير .

وشهد التاريخ ثورات شبت نتيجة الضغط والقسوة ، وكانت ثورات قامت بها الشعوب ضد الملوك ، ولا تزال نظائر لها تحدث فى عهدنا الحاضر ، إذ يضيق الشعب بحاكمه الذى يأخذ الخير كله لنفسه ، فيهب فى وجهه ، وتراق الدماء ، وتكثر الضحايا من الجانبين ، وهذه الكلمات تكتب وهناك فى بعض البلاد دماء تسيل ، وأرواح تزهق من هذا النوع ، ولكن الاسلام شهد حربا من نوع آخر ، إنها حرب أشعلها الحاكم لصلحة الشعب ، إنها تلك الحرب التى قادها أبو بكر وهو يهتف هتافه الذى أوردناه آنفا : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يعطونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » ، ولم يتوقف أبو بكر حتى أخذ للفقراء حقهم من الأغنياء وأصحاب النفوذ .

وهكذا نجد الزكاة أداة تطهير روحانى بالغ الغاية ، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك أبلغ تعبير ، قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم

---

(١) سورة الاسراء الآية ١٠٠ .

وتزكيهم بها » (١) . ووضع النظام الاسلامى أسس العدالة الاجتماعية في أسمى معانيها ، فجعل (المال ملكا للأمة ، تحفظه اليد المستحقة وتنميه ثم تنتفع به الأمة كلها ، يخرج من أحد جانبيها ويقع فى الجانب الآخر ، فهو منها كلها ، وهو إليها كلها ، وما اليد المعطية واليد الآخذة إلا يدان لشخصية واحدة كلتاهما تعمل لخدمة تلك الشخصية ، ولا خادم فيها ، ولا مخدوم وانما هما خادمان لشخصية واحدة هى شخصية المجتمع الذى لا قوام له ولا بقاء إلا بتكافل هاتين اليدين على خيره وبقائه) (٢) ويعرّف القرطبى (٣) الزكاة بأنها مأخوذة من التزكية أى التطهير ، فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذى جعله الله فيه للمساكين .

وآيات الزكاة التى وردت ، فى القرآن كثيرة ، وغالبا ما تَرِدُ مع الصلاة قال تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » (٤) . وقال « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون » (٥) .

والأنواع التى تجب فيها الزكاة خمسة :

النقد (الذهب والفضة) — عروض التجارة — السوائم — الزروع — الثمار .

ويشترط لوجوب الزكاة فى كل من هذه الأنواع أن يصل المال الى مقدار معين جعله الشارع دليلا على الغنى واليسار ، فاذا لم يصل المال الى هذا النصاب فلا زكاة واجبة فيه . ويشترط كذلك الحول والنماء ، وأن

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٠٤ .

(٢) الاسلام عقيدة وشريعة للأستاذ الشيخ محمود شلتوت ، ص ٨٧ — ٨٨ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ ١ ، ص ٣٤٣ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٤٣ .

(٥) سورة المؤمنون : الآيات ١ — ٤ .

تكون الماشية سائمة ، وأن تبلغ الزروع حدّ قوتها ، وأن تطيب الثمار ويبدو صلاحهـــا .

وأول نصاب الابل خمس وفيها شاة . فاذا بلغت عشرا ففيها شاتان .

وأول نصاب البقر ثلاثون وفيها تبيع أتمّ ستة أشهر ، فاذا بلغت أربعين ففيها مسنة أتمت سنة .

وفى أربعين شاةً إلى مائة وعشرين شاةً ، فاذا بلغت مائة وإحدى وعشرين ففيها شاتان ، وفى مائتين وواحـدة ثلاث شياه وفى أربعمائـة أربع شياه ، ثم فى كل مائة شاة .

وزكاة النقد وعروض التجارة ربع العشر .

وزكاة الزروع والثمار العشر إذا سُقِيت بالسيح أو الأمطار ، فاذا سقيت بالآلات فزكاتها نصف العشر .

وقد ذكرت ذلك الأدون ملاحظة مهمة هى أن زكاة الزروع والثمار أكثر جدا من زكاة سواها ، فهى العشر أو نصف العشر عـلى الأقل ، ولكنها ربع العشر فى النقد وعروض التجارة وأقل من ربـع العشر فى السائمة ، ويبدو لى فى الاجابة عن هذه الملاحظة أن الشارع كان أكثر اهتماما بالطعام منه بغيره ، وأن ظهور الزرع للفقير وطول بقائه فى الحقل أمام عينه ، جعل الفقير أكثر طمعاً فى الزروع منه فى غيرها من التجارة والنقد ، تلك التى لا يراها الفقير إلا لماما .

وهنـــاك تعليل آخر هـو أن زكـاة الزروع والثمار هى زكـاة فى ثمرة ، أمـا رأس المال وهـو الأرض الزراعيـة . فغـير داخلـة فى التقدير الحسابى ، أما ما عدا الزروع والثمار من نقد أو تجارة أو سوائم ، فرأس المال داخل فى النصاب ، ويُدْفع قدر الزكاة عن رأس المـال ومن الربح جميعا .

وفى مجتمع المدينة كان عامل الزكاة يتولى جمعها وتقديمها للرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان الرسول يتولى توزيعها على مستحقيها الذين

ورد ذكرهم فى الآية الكريمة « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » (١) وكان توزيع الزكاة يتم بمجرد أن يتسلمها الرسول ، وقلما كان يبقى منها شىء يزيد عن حاجة المستحقين ، وحينئذ كان يحتفظ به الرسول حتى تحين الحاجة إليه ، ويروى الماوردى أن بعض الابل والماشية بقيت لدى الرسول مرة فميزها عن غيرها من أموال المسلمين بمراع خاصة بالبقيع يعبرون عنها بالحمى ، كما وسمها الرسول بمسيم خاص حتى تميز عن سواها (٢) .

وقبل أن نترك الزكاة ينبغى أن ندون ملاحظتين هامتين :

أولاهما : حرص المسلمين على أن يؤدوا زكاة أموالهم الى مستحقيها .

وثانيهما : عفة الفقراء من المسلمين ، فقد كانوا بين كاسب قوته بعمله ، وبين قانع بالكفاف يناله من الزكاة دون أن يطمع فى المزيد .

وقد نتج عن هذين الاتجاهين أن أصبح المسلم فى أيام الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز يحمل زكاته ويطوف بها فلا يجد من يأخذها منه (٣) .

وكثيرا ما أسهمت الزكاة فى خلق فرص العمل للفقراء ، فمن الواضح أن من الزكاة ما يدفع للعاجز أو الضعيف حتى يتحمل المجتمع ذلك العضو الذى هاض واضمحل ، ومن الزكاة ما يدفع للفقير القادر على العمل ليكون رأس مال له فى تجارة ينميها أو زراعة أو صناعة يعرفها ، ولمثل هذا كانت الزكاة تدفع مرة أو أكثر حتى يستقيم أمره ويشتد عوده ، وكان

---

(١) سورة التوبة : الآية ٦٠ .

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٧٦ ، واقرا « الاقتصاد فى الفكر الاسلامى » للمؤلف .

(٣) دكتور عمر فروخ : عبقرية العرب فى العلم والفلسفة ص ١٢٣ .

عمر بن الخطاب يحث الرعاة أن يبتاعوا غنما بنصيبهم من الزكاة ليبدءوا ثروة ينمّونها ، وكان أكثرهم يستجيبون لعمر ويعملون بنصيحته .

(ب) الانفاق الواجب للصالح العام :

تمر بالدولة أو بالأفراد ظروف خاصة ، أو أزمات وحرج ، وتستلزم هذه الظروف وتلك الأزمات أن يسهم الأغنياء بنصيب آخر غير الزكاة من مالهم لرد الخطر عن الدولة أو لإزالة الأزمة عن الفرد ، فالظروف القاسية هنا ليست خاصة بالدولة فقط ولا بالفرد فقط ولكنها تشملهما جميعا ، وهى فى حالة الدولة يُسأل عنها جميع الأغنياء فى الدولة ، وفى حالة الفرد تُسأل عنه الدولة ويسأل عنه من عرف ذلك من الأغنياء كأقاربه وجيرانه .

ربما ظن البعض أن هذه الأفكار جديدة ، ونقول لهؤلاء : نعم إنها جديدة من ناحية الإذاعة والإعلان عنها ، ولكنها ، ليست جديدة فيما يختص بالتشريع الاسلامى ، بل إنها قديمة فيه ، وُجِدَت منذ العهد المبكر للإسلام ، وطبقت فى المجتمع الاسلامى الأول الذى نتحدث عنه ، والذى كونه الرسول عليه السلام فى المدينة .

والأدلة على هذا النوع من الانفاق صريحة وواضحة فى مصادر التشريع الاسلامى ، يقول الله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى ، والمساكين وابن السبيل والسائلين ، وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة » (١) . فمن الواضح أن الآية الكريمة ذكرت اعطاء المال لذوى القربى واليتامى وغيرهم ، ثم عرجت فذكرت دفع الزكاة . ومن هنا يتضح أن الزكاة شىء ،

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٧٧ .

وأن اغاثة الملهوف بسد الخلة شيء آخر . ويقول الله تعالى : « ويسألونكَ ماذا ينفقونَ ؟ قلِ العفوَ » (١) . أي انفضل الذى يتبقى بعد حاجاتكم دون بلوغ الجهد ، وترتبط هذه الآية الكريمة بقصة رجل نال مرة بيضة من ذهب ، فجاء بها الى رسول الله وقال له : خذها منى صدقة للفقراء ، فأعرض عنه الرسول واستدار ، فدار الرجل حتى واجه الرسول مرة أخرى وأعاد قوله ، فأعرض الرسول مرة أخرى ، فلما كرر الرجل هذا العرض أخذها الرسول منه وهو مغضب ، وقال : يأتى أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس ، انما الصدقة عن ظهر غنى (٢) .

ويقول النسفى (٣) فى تفسير الآية السابقة ما نصه : « العفو معناه الفضل . أى أنفقوا ما فضل عن قدر الحاجة ، وكان التصدق بالفضل فى أول الاسلام فرضا ، فاذا كان الرجل صاحب زرع أمسك قوت سنة وتصدق بالفضل ، وإذ كان صانعا أمسك قوت يوم وتصدق بالفضل ، فنسخت آية الزكاة العفو » ونحن نوافق النسفى على أن آية الزكاة نسخت كون التصدق بالفضل فرضا دائما ، ففى الأحوال العادية تكفى الزكاة . أما فى الظروف الاستثنائية فيتحتم على القادرين أن يدفعوا من أموالهم بقدر مـا يسد الحاجة .

وقد ورد فى حديث صحيح : « ما آمن بى رجل بات شبعان وجاره جائع الى جانبه وهو يعلم » وفى حديث آخر : « أيما أهل عرضة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله »(٤) . وقد اتضح من الحديثين أن دفع الزكاة لم يعف هؤلاء من مسئولية عدم دفع جديد زائد عن الزكاة

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠٩ .
(٢) تفسير البيضاوى ج ١ ص ٤٦ .
(٣) تفسير النسفى ج ١ ص ٧٦ .
(٤) مسند احمد .

إذا كانت الزكاة لم تكف لسد الحاجة . وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث صريح (١) « إن فى المال حقا سوى الزكاة » .

ويقول ابن حزم الأندلسى (٢) : وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والشمس وعيون المارة . وبرهان ذلك « فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل » (٣) .

ويقول ابن حزم الأندلسى فى موضع آخر (٤) : ولا يعتبر المسلم مضطرا لأكل لحم الميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاما فيه فضل عند صاحبه المسلم أو الذمى ، لأن فرضا على صاحب الطعام اطعام الجائع فاذا كان ذلك فليس بمضطر الى الميتة ولا الى لحم الخنزير ، وله أن يقاتل عن ذلك ، فان قُتِلَ فعلى قاتله القود ، وان قُتِلَ المانع فإلى لعنة الله ، لأنه منع حقا وهو طائفة باغية ، قال تعالى « فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله » (٥) ، ومانع الحق باغ على أخيه الذى له الحق .

ويقول ابن تيمية (٦) : إذا قُدِّر أن قوما اضطروا الى سكنى فى بيت إنسان إذ لم يجدوا مكانا يأوون إليه الا ذلك البيت فعليه أن يسكنهم ، وكذلك لو احتاجوا الى أن يعيرهم ثيابا يستدفئون بها أو الى آلات يطبخون بها أو يبنون أو يسقون ، فانه يجب أن يبذل صاحبها هذا مجانا إذا كان مستغنيا عن تلك المنفعة وعن عوضها .

---

(١) رواه الترمذى .
(٢) المحلى جـ ٦ ص ١٥٦ .
(٣) سورة الروم : الآية ٣٨ .
(٤) ص ١٥٩ من الجزء السادس سالف الذكر .
(٥) سورة الحجرات الآية التاسعة .
(٦) الحسبة فى الإسلام ص ٣٧ — ٣٨ .

وروح الدعوة المحمدية واضحة فى أن الزكاة وحدها لا تبرىء أموال المسلمين من حقوق المحتاجين فيها ، ، فما دام هناك محل للبر والصدقة فهى واجبة ، وحق المسلم على المسلم لا ينتهى بأداء الزكاة ؛ فيجب إذاً أن نستلهم من شريعة الهدى ، وأن نستوحى من روح الدعوة المحمدية نظاماً للبر تقوم عليه الدولة ، لنوازن بين الثروات والحاجات ، ونقيم التكامل الاجتماعى ، ونقضى على حرب الطبقات « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » (١) .

وكما أن هذه النفقة غير دائمة فهى غير ثابتة الوقت ، فمن المعلوم أن وقت زكاة الزروع هو وقت الحصاد ، وزكاة التجارة تتوقف على الحول ، أما هذه النفقة التى نتحدث عنها فليس لها وقت محدد ، وانما تحين وقت الحاجة لها من جانب الدولة أو جانب الفرد ، ووقت القدرة على دفعها من جانب الغنى .

ومقدار هذه النفقة غير محدود أيضا فهو يتوقف على ظروف الحاجة وعلى ظروف الدافع ؛ ومن الممكن عند الاقتضاء أن يرتفع فيشمل نصف المال أكثر من النصف حسب الظروف والأحوال .

وإذا سخا الأغنياء فقدموا من تلقاء أنفسهم للدولة ، أو للأفراد ما يسد الحاجة كان فى ذلك الكفاية ، فاذ ضنوا بالمال ، أو كان بذلهم غير كاف فان للامام أن يصدر التشاريع التى تحتم عليهم دفع ما يسد الحاجة كما ذكر ابن حزم فيما سبق ، والمجتمع الاسلامى فى الفترة التى نتحدث عنها كان ورعا ، تغلب عليه الجانب الروحى ، وضعفت قيمة المادة لديه ؛ ومن أجل هذا كان عطاء الناس موسوما بطابع السخاء . مما جعل الرسول صلوات الله عليه يحاول أن يرد ما تصدق به بعض المسلمين ، لاعتقاده أنهم يتصدقون بما هم فى حاجة اليه كما مر فى قصة الرجل الذى أراد أن يتصدق ببيضة الذهب التى كانت كل ما يملك .

---

(١) عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة ص ٧٩ .

ونجد الأنصار كذلك يقدّمون بسخاء من أموالهم ودورهم للمهاجرين « يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (١) .

وكان المجتمع الاسلامى فى هذه الفترة سمحا كما سبق القول ، ولذلك لم يلجأ الرسول الى التشريع ، وكان يكفى أن يهيب بالناس فيستجيب الناس ، ولعل غزوة تبوك كانت من أقسى الامتحانات التى مرت بالمجتمع الاسلامى فى ذلك العهد ، فالشقة بعيدة ، والغزوة فى وقت الحصاد ، والمعركة ضد الروم ، مما يبعث على الخوف ، ولكن المجتمع الاسلامى نجح فى التغلب على هذه الصعاب ، وعلى ما أثاره المنافقون من تثبيط ومخاوف : « لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون » (٢) . قال ابن هشام (٣) : (ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جدّ فى الاعداد للسفر ، وأمر الناس بالجهاز ؛ وحضّ أهل الغنى على النفقة والحملان فى سبيل الله ؛ فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا ، وأنفق عثمان فى ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها) وقد ذكر بعض المؤرخين أن ما أسهم به عثمان فى هذه الغزوة كان تسعمائة وخمسين بعيراً وخمسين فرسا ، وألف دينار (٤) .

وعندما حل بالحجاز جدب وتطلع الناس الى ما قد يرد من الشام من حب وزيت ، أقبلت لعثمان ألف بعير تحمل براً وزيتا وزبيبا ، فجـاءه التجار يريدون أن يشتروا منه ما حملت العير ، وأن يربحوه الدرهم درهمين أو ثلاثة ، ولكنه قال لهم : أعطيتُ عشرة . فسألوه : من أعطاك

---

(١) سورة الحشر : الآية التاسعة .
(٢) سورة التوبة : الآية ٨٨ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ٢ : ص ٣١٦ .
(٤) دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ١ ، ص ٣٣ .

عن الدرهم عشرة ؟ فأجاب : أعطانى الذى يقول « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » (١) فهل عندكم أكثر من عشرة ؟ فقالوا : لا . فقال أشهدكم أن هذه العير وما حملت صدقة للفقراء والمساكين .

وعن جرير قال : كنا فى صدر النهار عند رسول الله بالمدينة فجاءه قوم بليت ثيابهم . فظهر الحزن على وجه الرسول لما رآه فيهم من الفاقة ، فدخل ثم خرج ، فأمر بلالا فأذن ولما اجتمع الناس ، خطب فيهم فقال :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا » (٢) .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد » (٣) .

ثم قال : ليتصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره ، من صاع تمره ، حتى قال ولو بشق تمرة .

قال : فجاءه رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها ، بل لقد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب ورأيت أموالا كثيرة ، ورأيت وجه رسول الله يتهلل كأنه مذهبة (صفحة مطلية بالذهب من شدة بشره وسروره) فقال الرسول وهو يعطى الفقراء : من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئا (٤) .

على أن تدخل الحاكم (هو فى هذه الفترة الرسول صلى الله عليه وسلم) وقع أحيانا ، وكانت الضرورة تدعو لتدخله ، فمن المعروف أن

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٦٠ .
(٢) سورة النساء : الآية الأولى .
(٣) سورة الحشر : الآية الثامنة .
(٤) رواه مسلم .

المهاجرين وفدوا الى المدينة فقراء لا مال معهم ولا ثروة ، لأنهم كانوا بين فقير لا مال له ، وبين غنى ترك فى مكة ماله ودياره وهاجر الى المدينة بدينه ، وقد سبق القول أن الأنصار أكرموا المهاجرين غاية الكرم ، وآثروهم على أنفسهم ولكن بعض المهاجرين كانت فيهم عفة لم تسمح لهم أن ينالوا شيئا من أموال الأنصار ، ومن المهاجرين من قنع بالقليل من عون الأنصار ، وعلى كل حال فقد كان واضحا أن غالبية المهاجرين يعانون بعض الضنك اذا قيسوا بغالبية الأنصار ، ولعل الأنصار كانوا مستعدين أن يزيدوا فى المنح والعطاء ، ولكن إباء المهاجرين كان يحول دون ذلك .
واستمر الحال على هذا ، حتى جاءت موقعة بنى النضير التي تسببت عن تآمر اليهود ضد الرسول صلوات الله عليه ومحاولتهم الفتك به ، ولهذا هاجمهم الرسول وحاصرهم ، فطلبوا الكف عن دمائهم والسماح لهم بالخروج من المدينة على أن يأخذوا معهم ما تحمل الابل من المال الا الدروع ، فخرجوا على ذلك ، وأخذ الرسول ما تركوه من أموالهم على أنه فىء ليس للمقاتلين فيه نصيب إذ لم يحصل هناك قتال ، وانما يترك كله للرسول ليتصرف فيه كما يرى ، وقد انتهز الرسول هذه الفرصة فلم يوزع الفىء بالتساوى بين المسلمين ، ولكنه استعمله ليعيد به نوعا من التوازن فى الغنى والثراء ، فمنحه للمهاجرين بوجه خاص ولرجلين فقيرين من الأنصار ، وقد أيد القرآن الكريم وجهة نظر الرسول وبيَّن أن الثراء يلزم أن يكون مشتركا متنقلا ، ولا يجوز أن يقف عند مجموعة من الأغنياء يتداولونه ولا يتعداهم لغيرهم : قال الله تعالى « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فالله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ، ان الله شديد العقاب ، للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون » (١) .

---

(١) سورة الحشر : الآيتان ٧ — ٨ .

نفقة التطـوع :

نفقة التطوع هى أن تقدم مزيدا من الفضل غير القدر الضرورى الذى يجب تقديمه للمعطىَ اليه ، كأن تقدم له بيتا أفسح مـن بيته ، أو تزوجه وليس الزواج ضروريا له ، أو تزيد من رزقه وعنده ما يكفيه ٠

وقد انتهينا فيما سبق من الكلام على الحق الواجب فى المال ، سواء فى ذلك الحق المنتظم وهو الزكاة ، أو الحق غير المنتظم وهو الانفـاق للصالح العام ، الذى يجب فى ظروف الضرورة ، ولكن هذين ليسا وحدهما كل ما استمتع به المجتمع الاسلامى الأول ، بل كان هناك نوع آخر أشمل وأوسع ، انه غير واجب على جماعة المسلمين ، ولكن الشرع حث عليه وجعله مندوبا ، وأقبل عليه المسلمون اقبالا يجعل من الحق أن نقرر أن العدالة الاجتماعية كانت طبيعة هذا المجتمع ، فالأغنياء كانوا يجودون بمالهم حتى لو لم توجد حاجة ماسة تستلزم أن يدفع الأغنياء بعض ما يملكون ، والفقراء كذلك كانوا يجودون بما يملكون مهما قل ولو أن الشرع يعفيهم من الاعطاء لضيق ذات يدهم كما سبق القول ، ولم يكن ذلك عند الضرورة فقط ، بل أيضا عند عدم الحاجة بقصد المزيد من التوسعة على الفقراء ، وبين أيدينا وفى الذهن أمثلة تتزاحم ، والتاريخ الاسلامى به نماذج رائعة لهؤلاء الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ٠

ولا نزاع أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان زعيم المؤثرين وقدوة الكرام البررة ، قالت له خديجة فى ذلك : « إنك تحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر » ، وعن جابر بن عبد الله قال : ما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : لا ، وأكبر دليل على ذلك ما روى من أن رجلا جاءه يسأله فقال له : ما عندى شىء ولكن ابتعْ على ، فاذا جاءنا شىء قضيناه ، فقال عمر ما كلفك الله ما لا تملك ٠ فكره النبى ذلك من عمر ٠ فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله ، أنفق ولا تخف من

ذى العرش اقلالا • فتبسم صلى الله عليه وسلم وعُرِف البشر فى وجهه ، وقال : بهذا أمرْت •

واقتدى بالرسول أصحابه فى ذلك ، روى أن عمر بن الخطاب أصاب أرضا بخيبر فجاء رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقال : أصبت أرضا بخيبر لم أصب مالا أنفس عندى منها ، فماذا تأمر فيها ؟ فقال الرسول : إن شئت حبست أصلها وتصدقت بريعها • فجعلها عمر « وقفا على الفقراء وذوى القربى ، وفى الرقاب ، وفى سبيل الله ، وللضعيف ، ولا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ، ويطعم صديقا محتاجا منها ، وخرج عمر بذلك من أعز ماله » •

وقد ضرب لنا بعض المسلمين مثلا عاليا فى السخاء ، فقد سئل أحد العلماء : كم يجب للزكاة فى مائتى درهم ؟ فأجاب : أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم ، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع •

وليس لنا أن نستطرد فى ذكر الأمثلة الرائعة التى شهدها المجتمع الاسلامى فى فتراته الزاهرة ، ونكتفى بأن نذكر أن هذه الروح الطيبة كانت استجابة للتعليم الاسلامى ممثلا فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، ومنهما نقتبس بعض نماذج لتوضيح هذا الدستور الاسلامى السامى الذى اعتنقه المسلمون الأول فارتقوا بمجتمعهم الى أسمى الدرجات ، قال تعالى :

— من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ، والله يقبض ويبسط (١) •

— مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء (٢) •

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٤٥
(٢) سورة البقرة : الآية ٢٦١

— مثل الذين ينفقون أمــوالهم ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيتا مــن أنفسهم كمثل جنة بربوة ، أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فان لم يصبها وابل فطل (١) •

— الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية • فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢) •

— ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القــربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبــون أن يغفر الله لكم (٣) •

— وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين (٤) •

— ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شــح نفسه فأولئك هم المفلحون (٥) •

— فاتقوا الله ما استطعتم ، واســمعوا وأطيعوا ، وأنفقوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم ، والله شكور حليم (٦) •

— ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا • انما نطعمكم لوجه الله ، لا نريد منكم جزاء ولا شــكورا (٧) •

وقال رســول الله صلى الله عليــه وسلم « ما من يــوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ،

---

(١) ســـورة البقرة : الآية ٢٧٥
(٢) ســورة البقرة : الآية ٢٧٤
(٣) سورة النور الآية ٢٢ .
(٤) سورة سبأ الآية ٣٩ .
(٥) سورة الحشر الآية التاسعة .
(٦) سورة التغابن الآيتان ١٦ — ١٧ .
(٧) سورة الانسان الآيتان ٨ — ٩ .

ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا » (١) ، وقال : ثلاثة أقسم عليهن ... ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظُلِمَ عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزا ، ولا فتح عبد باب مسألة (جلس يتسول) الا فتح الله عليه باب فقر (٢) .

ويحث الاسلام المسلم أن يرعى ذريته ويدخر لهم ما يجعلهم بمأمن من الفاقة وسؤال الناس ، وفي الحديث « لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » ولكن الاسلام يحذر أن يشتغل المسلم بذريته وينسى المجتمع الذى يعيش فيه وما يجب عليه نحوه من تبعات ، وانه لحمق أن يقدم المرء لأولاده ولا يقدم لنفسه بمَنْح صدقة تعود عليه فائدتها فى الدنيا والآخرة .

يروى أنه تجمع لعمر بن عبد العزيز بعض من المال الحلال ، فاستشار وزيره مزاحم فيما يصنع بهذا المال ، فقال له مزاحم : ولدك يا أمير المؤمنين أحق به .

قال عمر : أدَعُهم لله يا مزاحم .

قال مزاحم : هو مالك يا أمير المؤمنين وقد أحلّ الله الميراث .

وعرف عبد الملك بن عمر ذلك فأسرع لمزاحم يقول له : بئس الوزير أنت ؟ تحب أولاد الخليفة أكثر مما تحب الخليفة ؟ هلا نصحته أن يدفع المال لبيت المال فينال من الله الثواب ؟

وذهب عبد الملك الى أبيه ، ولم يزل به حتى دفع ذلك المال الى بيت المال ، وحذّره من وزراء السوء .

ليت شبابنا يتعلمون من الشاب عبد الملك بن عمر هذا التصرف النبيل .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه ابن ماجة .

وانها لأنانية أن يعيش المرء لأولاده وينسى المجتمع الذى يحيط به ، مع أن المرء وأسرته وحدة من وحدات هذا المجتمع ، على أن حياة الرجل لأسرته فقط تجعل هذه الأسرة محرومة من حب الناس ورعايتهم . وربما حرمت هذه الأسرة أيضا هذا المال الذى ركز المرء جهده لجمعه لهـا ، روى عبد الله بن مسعود أن رسول الله قال : « نشر الله عبدين ممن أكثر لهما من المال والولد ، فقال لأحدهما أى فلان ابن فلان . قال : لبيك رب وسعديك . قال : ألم أكثر لك من المال والولد ؟ قال : بلى . قال : كيف صنعت فيما آتيتك ؟ قال : تركته لولدى مخافة العيلة . قال : أما إنك لو تعلم العلم لضحكت قليلا ولبكيت كثيرا ، أما إن الذى تخوفت عليهم قد أنزلت بهم .

وقال الله سبحانه وتعالى للآخر : أى فلان بن فلان . قال : لبيك رب وسعديك . قال : ألم أكثر لك من المال والولد ؟ قال : بلى . قال : فكيف صنعت فيما آتيتك ؟ قال : أنفقته فى طاعتك ، ووثقت لولدى مـن بعدى بحسن طولك . قال تعالى له : أما انك لو تعلم العلم لضحكت كثيرا ولبكيت قليلا ، اما ان الذى وثقت به قد أنزلت بهم » (١) .

وفيما يتعلق بهذا الموضوع تقودنى تجاربى الخاصة الى أن أعارض بشدة ما هو شائع من أن بخل الناس انما هو للحرص على مسـتقبل أولادهم ، والذى يبدو لى أن البخل طبيعة فى بعض النفوس ، وكثيرا مـا يحاول البخلاء أن يستتروا خلف أولادهم ليخففوا اللوم عن أنفسهم ، ولكنا نتدبر فنجد كثيرين من البخلاء لا أولاد لهم ولا أمل فى الأولاد ، ومع هذا فالواحد منهم ممسك اليد ، وكم رأينا بخيلا يقتر على أولاده بـل يحرمهم ، ولو كان يدخر لهم لأعطاهم فى حياته ما يحتاجون اليه ، إن البخل فيما أعتقد طبيعة فى بعض النفوس أو مرض يجدر بمن بلى به أن يحاول أن يتخلص منه .

---

(١) رواه الطبرانى .

طريقة الإعطاء :

سبق أن ذكرنا أن ما يأخذه الفقير من مال الغنى انما هو حق لـه فى المال ، وعلى هذا فأداؤه له يجب أن يأخذ صـفة أداء الحقوق إلى أصحابها ، دون أن يصحب ذلك رياءٌ ولا منٌّ ولا أذى ، فاذا صحب الاعطاءَ رياءٌ أو مَنٌّ أو أذًى ضاع الثواب ، وربما لحق المعطِيَ إثمٌ وسوء مصير . قال تعالى : الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ، والله غنى حليم . يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين ، ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعلمون بصير » (١) .

وقد علق ابن القيم (٢) ، على هذه الآيات الكريمة بقوله : وقد يعرض للصدقات ما يُضيع ثوابها كالرياء والمنّ والأذى ، فالرياء يمنع انعقـاد الثواب ، والمن والأذى يبطل الثواب ، فمثل صاحبها وبطلان عمله كمثل صفوان — وهو الحجر الأملس — عليه تراب فأصابه وابل — وهو المطر الشديد — فتركه صلدا لا شىء عليه ، وتأمل أجزاء هذا المثل البليغ ، وانطباقها على أجزاء الممثل به ، تعرف عظمة القرآن وجلاله ، فان الحجر وُضعَ فى مقابلة قلب هذا المرائى أو المانّ أو المؤذى ، فقلبه فى قسوته عن الإيمان والاخلاص والاحسان بمنزلة الحجر ، والعمل الذى عمله لغير الله بمنزلة التراب الذى على ذلك الحجر ، فقسوة ما تحته وصلابته تمنعه عن النبات والثبات عند نزول الوابل ، فليس له مادة متصلة فيقبل الماء

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦٢ — ٢٦٥ .

(٢) اعلام الموقعين عن رب العالمين جـ ١ ص ١٨٥ — ١٨٦ .

وينبت الكلأ ، وكذلك قلب المرائى ليس له ثبات عند وابل الأمر والنهى والقضاء والقدر ، فاذا نزل عليه وابل الوحى انكشف عنه ذلك التراب اليسير الذى كان عليه ، فبرز ما تحته حجرا صلدا لا نبات فيه ، وهذا مَثَلٌ ضَرَبَه الله سبحانه لعمل المرائى ونفقته .

ومن آداب الاعطاء أن يكون خفية بقدر الامكان حتى يكون خالصا لله ، لا رياء فيه ولا سمعة ، وحتى لا يشق على نفس الفقير ، فقد يؤذيه أن يظهر بمظهر الآخذ المحتاج ، والآية الكريمة تقول : « إن تبدوا الصدقات فنعما هى ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » (١) .

والذى يبدو لى أن صدر الآية « إن تبدوا الصدقات فنعما هى » يقصد به إخراج الصدقة علنا دون أن يؤذى الفقير ، كإعطائها لسائل لا يستنكف أخذها علنا ، أو إخراجها علنا دون أن يُعرف لمن تُعطى ، كأن يخرّج بها أتباع الغنى علنا ثم يتسللون بها الى بيوت الفقراء . أما اذا أعطيت للفقير بصورة علنية يتأذى بها ، فقد ضاع ثوابها « لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » والرسول عليه السلام يؤكد هذا المعنى بقوله مستحسنا عمل رجل أخفى صدقته : « تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أخرجت يمينه » (٢) . وذلك تصوير يبين منتهى الحيطة والتكتم عند إعطاء الفقير حقه فى مال الغنى .

ومن النظم الاسلامية التى تلاحظ فى إخراج حق الفقير أن يكون نصيب الفقير فى مستوى الثروة من حيث الجودة ، فاذا تخير الغنى للفقير أقل الانتاج قيمة أو نظافة فقد أضاع ثوابه وهبط بأجره ، يقول الله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » (٣) .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٧١ .
(٢) رواه الشيخان .
(٣) سورة آل عمران : الآية ٩٢ .

التفاوت فى الدفع والتفاوت فى الاستحقاق :

من المبادىء المهمة فى الاقتصاد الاسلامى الأخذ بمبدأ التفاوت فيما يجب أن يدفعه الأغنياء ، ويكون هذا التفاوت تابعا لدرجة تفاوتهم فى الغنى ، وذلك ما يسمى فى الاقتصاد الحديث بالضريبة التصاعدية .

ومن المبادىء المهمة أيضا فى الاقتصاد الاسلامى الأخذ بمبدأ التفاوت فى الاستحقاق بحسب الحاجة وبحسب عدد أفراد الأسرة ، وذلك ما يسمى فى الاقتصاد الحديث بالعلاوة الاجتماعية .

ولسنا — بطبيعة الحال — نقصد أن الاسلام أعطى تفاصيل دقيقة عن هذين الموضوعين ، لكننا نقرر أن الاسلام أقر المبدأ ووضحه فى التشريع الاسلامى ، أما تفاصيله فقد تركت لتكون موضوعا للبحث حسب الظروف والعهود المختلفة .

أما مبدأ الضريبة التصاعدية فيتضح أولا فى الزكاة حيث لا تجب إلا فى نصاب معين ، وما دون هذا النصاب يترك لسد حاجة الأسرة فان لم يكمل النصاب أعفى مالكه من الدفع .

وتتضح الضريبة التصاعدية فيما سبق أن ذكرناه من أن المقدار الذى يؤخذ من الأغنياء للإنفاق الواجب على الصالح العام يتفاوت بحسب درجات الغنى واليسار .

وقد ضرب الاسلام مثلا دقيقا للضريبة التصاعدية فى الجزية التى فرضها على الذميين بدل الزكاة التى يدفعها المسلمون ، وبدل الجهاد الذى يلتزم به المسلمون (١) وقد جعل الاسلام هذه الجزية متفاوتة كالآتى :

---

(١) يحلو لبعض الناس ان يهاجموا الاسلام بسبب الجزية ، ولعله اتضح من ذلك ان الجزية كانت مقابل الزكاة التى يدفعها المسلمون ، فالجزية والزكاة كانت تدار شئون الدولة ويعطى المحتاجون من المسلمين والذميين ، هذا الى أن الجزية اقل كثيرا جدا من الزكاة ، ولم يلتزم اهل الذمة بدفع الزكاة لأنها ركن من اركان الاسلام الذى لم يعتنقه الذميون ، ثم ان الجزية كانت بدل الدفاع والجهاد اللذين كانا واجبى المسلمين ، وتدلنا المراجع التاريخية ان بعض المسيحيين اسهموا احيانا فى الحرب بجانب المسلمين فسقطت عنهم الجزية ، وسيأتى بيان ذلك فى موضعه من هذا الكتاب .

١ — الأغنياء ويؤخذ عن كل فرد ٤٨ درهماً فى العام •

٢ — متوسطو الغنى ويؤخذ من كل منهم نصف عذا القدر (٢٤ درهماً فى العام) •

٣ — العمال ويؤخذ من كلّ منهم نصف ما يؤخذ من المتوسطين (١٢ درهماً فى العام) •

أما النساء والعجزة والصبيان فلا تجب عليهم الجزية بتاتاً (١) •

أما مبدأ العلاوة الاجتماعية فقد أثبت الاسلام عنه اتجاها واضحا يمكن أن يكون أساسا لدراسات واسعة مفيدة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم فرض للأعزب حظا من الغنيمة وللمتزوج حظين ، وروى عن عمر قوله فى الفيء : ما أنا بأحق بهذا الفيء منكم ، وما أَحَدٌ بأحق به من أحد الا أننا على منازلنا ، فالرجل وعياله والرجلُ وحاجته (٢) • وعندما رتب عمر المرتبات أعطى كل أسرة بحسب عدد الأولاد فيها ، وجعل لكل طفل من أطفال المسلمين نصيبا ، وكان عمر فى بادىء الأمر يعطى الأطفال إذا جاوزوا الرضاع — ولكنه عاد فأعطى نصيبا لكل طفل رضيعا كان أو غير رضيع ، روى ابن عمر أن ركبا من التجار كانوا فى اتجاههم الى المدينة فدخل عليهم المساء قبل أن يَصِلُوها ، فحطوا رحالهم ، وعلم عمر بذلك فقال لعبد الرحمن بن عوف : هل لك أن نسهر عليهم لنحرسهم ونرعاهم ؟ فاستجاب ابن عوف له وسار مع عمر ، فباتا يحرسان الركب ويصليان ، فسمع عمر فى جوف الليل طفلا يبكى بكاء متصلا فتوجه نحو الركب ، وقال لأمه : اتقى الله وأحسنى الى طفلك • ثم عاد الى مكانه ، وبعد قليل سمع بكاءه مرة ثانية فذهب للمرأة وكرر مقالته لها وعاد الى مكانه ، فلما كان آخر الليل سمع بكاء الصبى ، فسارع الى أمه وقال لها : ويحك إنى لأراك أم سوء ، مالى أرى ابنك لا يهدأ طول الليل ؟

---

(١) انظر هذا الموضوع فى « الاقتصاد فى الفكر الاسلامى » للمؤلف .
(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٥٥ .

قالت المرأة — وهى لا تعرف من تحدث — : يا عبد الله ، قد أبرمتنى طول الليل ، إنى أعالجه على الفطام فيأبى الا رضاعا .

قال عمر : ولم ؟

قال : وكم لابنك من العمر ؟

قالت : كذا وكذا شهرا .

قال : ويحك لا تعجليه .

وذهب عمر ليصلى بالناس الفجر ، وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء عليه ، فلما انتهى من صلاته قال : يا بؤساً لعمر !! كم قتل من أولاد المسلمين ؟ ثم أمر مناديا فنادى : لا تعجلوا صبيانكم على الفطام فانا نفرض لكل مولود فى الاسلام ، وكتب بذلك الى الآفاق .

تتغنى بعض الدول بمسلكها الاشتراكى وبالعلاوات الاجتماعية التى نمنحها للمتزوجين أو لذوى الأولاد ، فهل درى هؤلاء أن الاسلام أخذ بهذا المبد أو اقترح هذا المبدأ منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ؟

تلك حقائق واضحة نسجلها للباحثين لعل فيها ذكرى لأولى الأبصار .

الاسلام بين المبادىء الاقتصادية الحديثة

قلنا فى مطلع الحديث عن العدالة الاجتماعية إن للإسلام فى سياسة المال فلسفة ليست شيوعية وليست رأسمالية وليست من الاشتراكية الغربية ، ولكنها إسلامية ، ولعلنا أوضحنا عناصرها واتجاهاتها ومبادئها فيما أوردناه من أبحاث ، ولعل من الخير أن نختم هذا الموضوع بإيراد دراسة مقارنة موجزة عن المبادىء الاقتصادية الاسلامية بالنسبة لهذه المبادىء الاقتصادية الحديثة •

الاقتصاد الاسلامى والشيوعية :

يبعد الاقتصاد الاسلامى عن النظم الشيوعية بعدا واسعا ، فقد سبق أن قررنا أن الاسلام يقر الملكية الفردية ويقر التفاوت فيها ، ويشمل ذلك ملكية الأراضى الزراعية وملكية المتاجر والمصانع ، ولا يجيز الاسلام التدخل فى هذه الملكية الا اذا تعارضت مع الصالح العام كما سبق ، ويحرس الاسلام هذه الملكية وينقلها لورثة المالك ، والاسلام بذلك يعارض الشيوعية التى لا تدع للإنسان الا حق الامتلاك الشخصى للدخل الناتج من عمله ومدخراته ، أو المنزل الذى يسكنه بأثاثه وأمتعته ، والأدوات المخصصة لاستعماله الشخصى وتوفير الراحة له ، وحق توريث هذه الملكية الشخصية » (١) •

ومن الحق أن نوضح أن الشيوعية الأصيلة أدركت بُعْدَها عن المنطق السليم فى آرائها الاقتصادية ، فأدخلت ولا تزال تدخل بعض الأفكار على أسسها ، محاولة بذلك التوفيق بين الآراء الماركسية وبين الحكمة وحاجات المجتمع •

---

(١) دستور اتحاد الجمهوريات السوفيتية •

الاقتصاد الاسلامى والرأسمالية :

الفرق بين الاقتصاد فى الاسلام والاقتصاد فى النظم الرأسمالية عظيم للغاية فمع أن كلا النظامين يبيح الملكية الفردية والتفاوت فيها وارثها ، الا أن الهوة بعد ذلك واسعة بين النظامين ، **فالملكية فى النظام الرأسمالى مطلقة ولكنها فى النظام الاسلامى مقيدة ، فلا يجوز للمالك فى النظام الاسلامى أن يحتكر ، أو يسرف ، أو يكنز ، الى غير ذلك مما سبق إيضاحه ،** لأن المالك الحقيقى هو الله ، وقد حدّد سبحانه للمالك المؤقت وهو الانسان طرق الاستعمال ، وهذا بخلاف النظام الرأسمالى حيث يجوز للمالك أن يحتكر أو يكنز أو يقدم الرشاوى كهدايا ، وغير ذلك مما هو فى الحقيقة طبيعة الرأسمالية •

ومن طبيعة الرأسمالية **اعتبار الانسان آلة تتحرك** لتجنى الخير لأصحاب رءوس الأموال ، فالعامل عند الرأسماليين جهاز يعمل لهم حتى إذا سقط أو مرض طرحوه ، ولم ينل العمال بعض الحقوق من أصحاب رءوس الأموال إلا بعد جهاد طويل شاق ، ولم تعترف الرأسمالية بهذه الحقوق إلا بعد ضغط شديد •

والرأسمالية **عدوة المجتمعات ، فهى لا تفكر الا فى مضاعفة ثروات** أصحابها على حساب المجتمع الذى تتخذه الرأسمالية سوقا لها تغزيه وتخدعه لتتشرب ثرواته ، وتأخذ دخله بطريق أو بآخر •

وقد أدركت الرأسمالية كراهية الجماهير لها واحتمال ثورتهم فى وجهها ، فأعدت العدة للتضييق على الجماهير وكبْت ثورتهم ، وذلك عن طريق اتصالها بسلطان الحكم إما « بوصول بعض أصحاب رءوس الأموال الكبيرة الى الحكم فى الدول الرأسمالية ، وإما بالتأثير فى رجال الحكم بالنفوذ المالى والاقتصادى ، وبذلك خرجت المشاريع الرأسمالية من كونها مشاريع اقتصادية الى مشاريع لها أثر واضح قوى فى الحياة السياسية والدولية ، وبذلك ازدادت سلطة الرأسماليين وأصحاب الأعمال

على العمال وعلى مختلف الطبقات العاملة ، كما ازداد التنافس والتطاحن بين الدول ، الأمر الــذى أدى الى اشتداد حالة التوتر بينهــا ، وانتهى بنشوب الحرب العالمية الثانية » (١) ومن هذا يتضح أن النظام الرأسمالى لا يعيش الا فى جو سياسى معين ، أو قل ان هذا النظام يتدخل فى شئون السياسة والحكم ، وذلك أيضا عنصر آخر يبعده عن النظام الاقتصادى فى الاسلام .

ولا نزاع أن الحرب زادت ثروات الرأسماليين ، وقفزت بغناهم ، ولذلك يسميهم الباحثون المحدثون « تجار الحرب » لمحاولتهم إشعالها حتى تنمو مواردهم على حساب جثث القتلى وأشلاء الضحايا . ويقول الأستاذ الدكتور أحمد أمين : والشعوب لا مصلحة لها فى الحرب ، وانما يدعو لها ويدبرها الرأسماليون ، الذين ينتفعون ماليا من الحرب ولا يهمهم ما يصيب العالم من ويلات (٢) .

ومن نكبات الرأسمالية على الشرق خاصة ذلك الاحتلال العاتى ، وهذا الاستعمار البغيض ، وما كان ذلك الاستعمار إلا نتيجة حتمية لتضخم رءوس الأموال والبحث عن إيجاد ســوق لتصريف انتاج الآلات التى يملكها الرأسماليون « فالسيطرة الإستعمارية على العالم باسم الحضارة إنما تسعى لاشباع شهوات الرأسمالية وقد وضعت الرأسمالية والاستعمار متساندين أسس هذا الاضطراب العالمى الذى قد يقضى على الحضــارة كلهــا » (٣) .

ويقول ستوارد (٤) : إن مبادىء الحرية التى سادت فى الغرب ونودى بهــا أكثر القرن التاسع عشر قــد هبت عليها ريح هوجاء من المطــامع

---

(١) دكتور محمد التين يونس : الانسانية ص ٢٤ .
(٢) الشرق والغرب ص ٣٦ .
(٣) عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة ص ٢٤٣ .
(٤) نقلا عن « حاضر العالم الاسلامى » .

السياسية والاقتصادية فمزقتها شر ممزق ، وبددت صورها كل مبدد ، إذ أخذ التراحم يشتد ، والتنازع يوغر قلوب الدول الغربية ، حتى طفح الكيل ، فاشتعلت الحرب العالمية الكبرى ، واشتد نهم أوربا وجشعها للتوسع فى بالاستعمار ومناطق السطوة ونيل الامتيازات ، واحتياز الأسواق الاقتصادية ، اشتدادا وحشيا غير مسبوق المثيل •

ويقول البنديت نهرو : إن فساد العالم يرجع معظمه الى فساد نظامه الاقتصادى والسياسى فى الوقت الحاضر ، وانه لا سبيل الى الإصلاح ما دامت الرأسمالية تسخر طبقة لطبقة ، والاستعمار يسخر أمة لأمة •

الاقتصاد الاسلامى والاشتراكية الغربية :

وتختلف اشتراكية الغرب عن الاقتصاد فى الاسلام ، فاشتراكية الغرب تقوم على أساس من حرب رأس المال ، ونضال الطوائف ، أما الاقتصاد الاسلامى فيقوم على أساس التعاون والاخاء (١) •

ومن الواضح كذلك أن الاشتراكية الغربية ترمى الى القضاء على الثروات الكبيرة ، وتقف منها موقف العداء ، ولكن الاسلام لا يتعرض لهذه الثروات مادامت قد تكونت على أساس سليم ، ومادامت بعد تكونها تابعة لروح الاسلام ، عاملة لخير المجتمع وغير ضارة به •

ويضع الاسلام وسيلة هامة يصل بها الى ازالة الطبقية الثابتة ، وهذه الوسيلة هى نظام الميراث الذى من طبيعته أن يفتت الثروات •

والاشتراكية الغربية تكثر من التأميم فتقترب بذلك من الشيوعية التى تعمل على تمليك الدولة وسائل الانتاج ، أما التفكير الاسلامى فانه يسعى لتوزيع الثروة على الأفراد ، ولا يلجأ للتأميم الا للضرورة ، ولذلك يقول المفكرون المسلمون ان **الاشتراكية تحارب الغنى ولكن الاسلام يحارب الفقر** •

(١) دكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٥٥٢ — ٥٤٣ .

والملكية فى اشـــتراكية الغرب ملكية كاملة ، ولكنها فى الاســـلام وظيفة اجتماعية ليس غير •

تلك مقارنة موجزة بين النظام الاقتصادى فى الاسلام وسواه من النظم ، ولا شك أن النظام الاسلامى حقق لتابعيه فى الفترات التى اتبع فيها أسمى ألوان النجاح واليمن والبركة •

وبعد الحديث عن العدالة الاجتماعية فى الاسلام ، وما تلاها مـن مقارنة موجزة بين الاسلام وبين الاتجاهات الاقتصادية الحديثة ، نستطيع أن نجيب على سؤالين مهمين :

١ ـ لماذا يلجأ بعض المسلمين أحيانا الى الشيوعية ؟ •

والجواب على ذلك قصير وواضح ، هو أن المسلمين لجئوا للشيوعية أحيانا لأن النظم الاقتصادية الاسلامية معطلة ، ولو بحثت هذه النظم وتطورت حسب مقتضيات الأحوال فى ضوء الأسس التى سبق إيرادها والتى جاء بها القرآن والحديث ، لوجد الناس فيها ضالتهم ولكانت الدول الاسلامية فى مأمن من الزحف الشيوعى ، الذى لا يمكن أن ينمو فى تربة نشط فيها الاسلام والفكر الاسلامى •

٢ ـ ما موقف الاسلام من الشيوعية ؟

هذا سؤال مهم يلزم أن تكون الشجاعة أساسا فى الاجابة عنه ، فبين الرأسمالية والشيوعية حرب لا تهدأ ، وكل منهما يرى فى الآخر خطرا عليه ، ويتمنى أو قل يحاول أن يمحو هـذا الخطر من الوجود ، وسلاح الدعاية من أهم الأسلحة التى يستعملها أتباع كل من المذهبين فى هدم المذهب الآخر ، ولا يسير سلاح الدعاية التى يستعمله الرأسماليون ضد الشيوعية على نهج واحد ، وانما يتلون بحسب القوم الذين يستعمل بينهم هذا السلاح ، ومن أمثلة هذا التلون ما رأيته بنفسى ، وما يمكن أن يراه كل شخص أتيحت له فرص التنقل بين الأقطار المختلفة •

فى البلاد الإسلامية تقوم الدعاية ضد الشيوعية على أســاس أن الشيوعية تقوم على الإلحاد والاباحية ، وقد اتخذ هذا الأساس بالبلاد الاسلامية لأن لدى المسلمين حساسية دقيقة فى ذلك الموضوع . فايمانهم العميق بالإله الواحد الأحد ، وبالأسرة ونظام تكوينها ، يجعلهم يمقتون الشيوعية لمـا يذاع عنها من إلحاد وإباحية .

وفى إندونسيا بالذات تقوم الدعاية ضد الشيوعية على أساس أن الشيوعيين ألد أعداء المسلمين ، ولو أتيحت لهم فرصة لقتلوا المسـلمين واستحلوا دماءهم كما فعلوا فى حادثة « مديون » (١) المشئومة وفى حادثة الجنرالات (٢) .

وفى أوربا تقوم الدعاية ضد الشيوعية على أساس آخر غير الإلحاد والاباحية وغير الفتك والاعتداء ، ولم تتخذ هذه الأسلحة أسسـا للدعاية ضد الشيوعية بأوربا . لأن الإلحاد معترف به هناك ، فليس شيئا يثير الجماهير إذ أن الحضارة الأوربية التى تسود الغرب تشترك مـع الشيوعية فى هذا الاتجاه ، وهى والشيوعية صنوان فى الكفر والإلحاد (٣) ، وكذلك الاباحية منتشرة بأوربا ، ويراها الأوربيون لونا من ألوان مدنيتهم . ولم يتخذ الفتك والاعتداء سلاح دعاية ضد الشيوعية بأوربا لأن مدنية هذه البلاد جرمت الفتك بسبب اختلاف بالرأى ؛ وأصبح هذا التحريم عادة لا تتخلف تقريبا .

وعلى هذا حوربت الشيوعية بأوربا بسلاح جديد يناسبها ، ذلك هو أن الشيوعية تقوم على الدكتاتورية ، وقد نجح هذا السلاح فى إثارة حقد

---

(١) مديون مدينة من مدن جاوة الوسطى حدثت بها مذبحة قـام بها الشيوعيون ضد المسلمين .

(٢) اقرأ عنها فى الجزء الثامن من « موسوعة التاريخ الاسلامى » للمؤلف .

(٣) محمد الغزالى : الاسلام والأوضاع الاقتصادية .

الأوربيين ضد الشيوعية ، لأن الأوربيين حريصون على الحرية ، وعلى النظم الديمقراطية فى حياتهم السياسية .

وفى أمريكا تقوم الدعاية ضد الشيوعية على أساس آخر يثير ثائرة الأمريكيين ، وذلك الأساس هو أن الشيوعية تسعى الى الاستيلاء على الثراء الأمريكى لصالح الرجل الآسيوى الأفريقى ، والرجلُ الأمريكى حريص على الترف الذى تعوده ونَعِمَ به ، ولذلك يكره الشيوعية ويحاربها .

وتتخذ الرأسمالية وسائل كثيرة لاذاعة هذه الدعايات ، ويُخدَع بعضُ المسلمين بطريق أو بآخر فيأخذ السلاح من الرأسمالية ليضربَ به الشيوعية .

الاتحاد السوفيتى والغرب سواء :

وكان الأجدر بالمسلم أن يتذكر أن الشيوعية السوفيتية والرأسمالية الغربية يستويان فى الحقد على الاسلام ومصارعته ، فالشيوعية السوفيتية عدوة الاسلام ، وقد كانت روسيا قبل النظام الشيوعى وبعده دولة عدوانية وقد تركز زحفها على جيرانها وبخاصــة ابتداء من القرن التاســع عشر فضمت جورجيا سنة ١٨٠١ ومناطق تركستار سنة ١٨٢٦ وضمت الشركس والقوقاز سنة ١٨٦٤ ووصلت فى حدودها الى افغانستان ، فاصبحت مرو وبخارى وسمرقند وغيرها من المدن الإسلامية التى كانت زاهرة مائجة بالفكر الاسلامى ضمن الاتحاد السوفيتى ، وفى العصر الحــديث اندفع الاتحاد السوفيتى لغزو افغانستان وهو حتى كتابة هذه السطور يدمر العامر ويقتل الانسان البرىء .

وقــد اتبعت روسيا سياسة « الترويس » أى نقل المسلمين عــن بلادهم الى فيافى سيبريا وغيرها ، ودَفْعِ عدد من الروس ليحلوا محل المسلمين فى بقاعهم الخصبة .

. وعلى العموم فصلة الاتحاد السوفيتى بالاسلام صلة دماء وكراهية على مر العصور .

فاذا جئنا الى الغرب قابلتنا الحروب الصليبية بدمائها وقسوتها ، ثم الاستعمار الأوربى بما فيه من نهب وتدمير ، ثم غرس الدولة الصهيونية فى قلب العالم العربى والاسلامى وتقويتها بمختلف الوسائل لتكون شوكة تجعل العالم العربى والاسلامى ينزف دائما ، ولا يحقق ما يرجوه من تقدم ووحدة ، وان دماء الأحرار من المسلمين الذين قتلتهم أسلحة الغرب لم تجف بعد فى مصر واندونسيا والباكستان وسوريا ولبنان والعراق والجزائر وغيرها .

ولنعد الى الشيوعية لنذكر ان الشيوعية السوفيتية وضعت لنفسها خطة استعمارية طويلة المدى ، فقد حاربت الاستعمار فى وقت من الأوقات لتطرده من الدول الصغيرة ، فلما نجحت فى ذلك قدمت القروض والمساعدات لهذه الدول ، ثم التهمتها ، والذى ينظر للزحف السوفيتى الآن يجد أنه امتد الى كل القارات ، فأصبح فى انجولا وأثيوبيا ، وفى أوربا الشرقية ، واقتحم أفغانستان وهدد الباكستان ، وجنوده كالأخطبوط ، يمتد ويدمر كل القيم ، وقد سكت العالم حتى الآن عن الزحف الشيوعى ، وفى السكوت وباله ، وإن الاستعمار الغربى هو الذى مهد الطريق للزحف الشيوعى ، وكلاهما خطر على الاسلام والدول الاسلامية .

سادسا — القدوة الحسنة

هناك عامل كان له أثر خطير فى تكوين المجتمع الاسلامى الأول والسير به قدما الى الأمام ، وذلك العامل هو القدوة الحسنة التى تمثلت فى الرسول صلوات الله عليه ، لقد بنى الرسول المسجد ليكون مجتمعا واحدا للمسلمين وآخى بين أتباعه ليوحد بين قلوبهم وليكون منهم أسرة إسلامية واحدة ووضع المعاهدة سجلا دستوريا يتبعه سكان المدينة من مسلمين وغير مسلمين حتى يعرف كل حقه والواجب عليه ، ووضع النظام السياسى

والاقتصادى للمسلمين ، ولكن كان هناك معين آسمى من الواجب .
وكان بعيد الأثر فى تكوين مجتمع إسلامى رائع ، ذلك هو القدوة الحسنة التى تمثلت فى خلق الرسول صلوات الله عليه وسلم ، ففاض على المسلمين بارشاده وتهذيبه وأدبه ، ذلك الأدب الذى وصفه الرسول بقوله (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) وذلك الخلق الذى قال الله عنه « وإنك لعلى خلق عظيم » (١) وقال « ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك » (٢) وهكذا لم تكن المسألة نظريات تنظم ، ولا قوانين تنشر فقط ، وانما وجد كذلك الجانب العملى الذى تمثل فى الرسول ، والذى كان لا يقنع بتنفيذ الواجب ، بل كان يضيف من اتجاهه ومن مشاعره الكثير لخدمة الاسلام ورفعة شأن المسلمين
وهكذا كانت أخلاق الرسول هديا لهذا المجتمع الجديد ، وكانت صفاته قوة ربطت هذا المجتمع برباط وثيق ، وكانت قيادته ملهمة الخير لهذه الأمة الجديدة ، ونحن هنا نتبين من صفات الرسول بعض العناصر التى كانت بعيدة الأثر فى سير سفينة هذا المجتمع فى خضم الحياة بنجاح وفوز .

لقد تركزت فى يد الرسول صلوات الله عليه السلطة الدينية والسلطة الدنيوية ، ولكنه كان يأبى أن يظهر فى أى مظهر من مظاهر السلطان أو الملك أو الرياسة ، وكان يقول لأصحابه (لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، انما أنا عبد الله ورسوله) وخرج على جماعة من أصحابه فقاموا له فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا . وكان اذا بلغ أصحابه وهم جلوس جلس منهم حيث انتهى به المجلس ، وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره ، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر ، ويبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، ولا يجلس فى انتظاره أحد وهو يصلى الا خفف صلاته وسأله عن حاجته ، فاذا فرغ عاد الى صلاته . وكان أطيب

---

(١) سورة القلم : الآية الرابعة .
(٢) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

الناس نفسا ، وأكثرهم تبسما ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب ؛ وكان فى بيته يرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ؛ ويعقل البعير ، ويأكل مع الخادم ، ويقضى حاجة الضعيف والبائس والمسكين ، وكان اذا وجد أحدا فى حاجة آثره على نفسه ولو كان به خصاصة ، وكان لا يدخر شيئا لغده حتى لقد توفى ودرعه مرهونة عند يهودى فى قوت عياله ، وكان جم التواضع ، شديد الوفاء ، يروى أنه قدم من لدن النجاشى وفد فقام بنفسه يخدمهم ، فقال له أصحابه نحن نكفيك • فقال انهم كانوا لأصحابنا مكرمين وانى أحب أن أكافئهم وبلغ من طيبة نفسه ورقة قلبه أنه كان يسمح لأحفاده أن يداعبوه فى أثناء صلاته ، بل لقد صلى مرة وهو يحمل « أمامة » ابنة بنته زينب •

ولم يقف بره ورحمته عند الانسان بل شمل الحيوان أيضا ، كان يقوم بنفسه فيفتح بابه لهرة تلتمس عنده ملجأ من حر أو برد أو جوع أو عطش ، وقام مرة بنفسه على تمريض ديك مريض ، وكان يمسح الجواد بكم قميصه •

وكان مستعدا أن يعطى كل ما يملك ، اذ كان لا يسمح لشىء مما فى الحياة أن يكون صاحب سلطان عليه ، وكانت سياسته أن يكون هو صاحب السلطان على ما امتلكه ، وكان شديد الزهد فى الحياة المادية حتى بلغ به أن اتخذ فراشا خشنا ، وأنه لم يشبع قط ، وكان طعامه بسيطا للغاية ، ولقد عانى الجوع أكثر من مرة ، وفى إحدى المرات شد على بطنه حجرا من شدة الجوع ، وكان زهده فى اللباس كزهده فى الطعام ؛

ولم يكن هذا الزهد ولا هذه الرغبة عن الدنيا فرضا من فروض الدين ، فقد جاء فى القرآن الكريم « كلوا من طيبات ما رزقناكم » (١) وجاء « وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » (٢)

---

(١) سورة البقرة : الآية ٥٧ .
(٢) سورة القصص : الآية ٧٧ .

ولكن محمداً أراد أن يضرب للناس المثل الأعلى فى القوة على الحياة ، قوة لا يتطرق اليها الضعف ، ولا يستعبد صاحبها متاع أو مال أو سلطان (١) .

وفى معاملته لأتباع الأديان الأخرى لم يتقيد فقط تجاههم بما التزمه فى الوثيقة السابقة ، بل راح يضفى عليهم من خلقه السمح ، ومعاملته الكريمة وصفاء روحه ، فقد روى أنه كان يحضر ولائمهم ويشيع جنازاتهم ، ويعود مرضاهم ، ويزورهم فى بيوتهم ، ويكرمهم اذا زاروه حتى أنه فرش عباءته لنصارى نجران عندما وفدوا عليه حتى يجلسوا عليها ، وكان يقترض من أهل الكتاب ويرهن عندهم أمتعته ، مع أن بين المسلمين كثيرين من الأغنياء الذين كانوا مستعدين لتقديم أموالهم وأنفسهم له ، ولكنه أراد أن يعلم أتباعه الطريقة المثلى فى معاملة أهل الكتاب (٢) .

سابعا : سيطرة روح الاسلام على هذا المجتمع

من العرض السابق ندرك أن المجتمع الاسلامى الأول لم يكن يسير فقط تبعا لقوانين الاسلام ، بل تبعا لروحه ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم باعث هذه الروح ومركز إشعاعها ، تدل على ذلك الآية الكريمة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » (٣) فالآية هنا لم تصفه بالعدل أو الصدق وغير ذلك من الصفات التى يجب أن تتوافر فى المسلم بل وصفته بما هو أكثر من الواجب ، وصفته بما لا يمكن أن يوضع فى كلمات أرق وأجمل من هذه العبارات السامية : رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم .

ولعل روح الاسلام التى يمكن لأن نستنبطها من هذه الآية تتمثل فى الحب ، حب الله ، وحب الخير ، وحب المسلمين بعضهم بعضا فى الله .

---

(١) دكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٢٣٠ — ٢٣٢ بتصرف .
(٢) عفيف طبارة : روح الدين الاسلامى ص ١٩٩ .
(٣) سورة التوبة الآية ١٢٨ .

وإذا وُجِدِ هذا الحب بين الانسان وبين ربه ، عبَده باخلاص وَحرِص على تقوية صلته به ، وحينئذ لا تكون صلاته قراءة وركوعا وسجودا ونقرا للأرض برأســه ، ولكنها ستكون انتلاتا مــن الدنيا ، وُخلوًّا لله واتصالا به .

وإذا احب المسلم الخير عمله ووجد لذة ومتعة فى عمله ، تفوق كل أجر وكل جزاء .

وإذا أحب المسلم المسلم اختفت الحاجة الى القوانين وظهر الإيثار ، ونعم المجتمع بحياة سامية جميلة .

فالحب هو ذلك الهدف السامى ، الذى يدرك من قرأ القرآن الكريم بعناية أنه أعظم ما يمنحه الله ويعطيه ، وأغلى ما يحرمه ويَمنعه ، تعال بنا الى القرآن الكريم لنرى ما الجزاء الذى يمنحه الله للتوَّاب والمتطهر والمتقى والمؤمن والمقسط .. وما العقاب الذى ينزله الله بالكافر والظالم والمفسد والخائن والمحتال ... شىء واحد ولكنه ينطوى على كل شىء ، إنه الحب يمنحه الله للتواب والمتقى والمحسن ويحرم منه الكافر والظالم والخائن . . . قال تعالى :

— فاتبعونى يحببكم الله (١) .
— إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين (٢) .
— فان الله يحب المتقين (٣) .
— والله يحب المحسنين (٤) .
— والله يحب الصابرين (٥) .
— إن الله يحب المتوكلين (٦) .
— إن الله يحب المقسطين (٧) .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٣١ .
(٢) سورة البقرة : الآية ٢٢ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ٧٦ .
(٤) سورة آل عمران : الآية ١٣٤ .
(٥) سورة آل عمران : الآية ١٤٦ .
(٦) سورة آل عمران : الآية ١٨٨ .
(٧) سورة المائدة : الآية ٤٥ .

— يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه (١) •

— والله يحب المطهرين (٢) •

— إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص (٣) •

* * *

— إن الله لا يحب المعتدين (٤) •

— والله لا يحب الفساد (٥) •

— والله لا يحب كل كفار أثيم (٦) •

— فإن الله لا يحب الكافرين (٧) •

— والله لا يحب الظالمين (٨) •

— إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً (٩) •

— ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خواناً أثيما (١٠) •

— والله لا يحب المفسدين (١١) •

— إنه لا يحب المعتدين (١٢) •

— إنه لا يحب الخائنين (١٣) •

---

(١) سورة المائدة : الآية ٥٤ .
(٢) سورة التوبة : الآية ١٠٨ .
(٣) سورة الصف : الآية الرابعة .
(٤) سورة البقرة : الآية ١٩٠ .
(٥) سورة البقرة : الآية ٢٠٥ .
(٦) سورة البقرة : الآية ٢٧٩ .
(٧) سورة آل عمران : الآية ٣٢ .
(٨) سورة آل عمران : الآية ٥٧ .
(٩) سورة النساء : الآية ٣٦ .
(١٠) سورة النساء الآية ٤٨ .
(١١) سورة المائدة : الآية ٦٤ .
(١٢) سورة الأعراف : الآية ٥٥ .
(١٣) سورة الأنفال : الآية ٥٨ .

ـ إنه لا يحب المتكبرين (١) .

وسيطر الحب على هذا المجتمع وانطلق كالسحر قوله صلى الله عليه وسلم « لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » فإذا هذا المجتمع يسير ليس فقط تبعا للاسلام ، بل تبعا لروح الاسلام ، لقد سبق أن ذكرنا قصة الرجل الذي جاء يسأل الرسول ، فقال له الرسول : ليس عندي شيء ولكن ابْتَعْ عليَّ .. وكيف أن عمر قال للرسول : ما كلفك الله مالا تملك . هل تصرف الرسول في هذه المسألة تبعا لتعاليم الاسلام وأوامره ؟ وهل يمكن أن تكون هناك تعاليم تقضي بأن يستدين انسان ليمنح انسانا آخر ؟ لا فالله سبحانه يقول « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » (٢) ولكن الرسول لم يتصرف هذا التصرف لأنه مكلف به ، بل لأنه يحب الخير . وإن جهدت نفسه في سبيله ، إنه تصرّف تبعا لروح الاسلام لا تبعا لقانونه ، هنا رجل محتاج وربما كانت حالته لا تشجع التجار على إقراضه ، والرسول يستطيع أن يسد حاجة الرجل ولو بطريق القرض ، وسيغنيه الله عن السداد ، تلك هي روح الاسلام أن تحس بأن حاجة الناس هي حاجتك ، وأن تعمل على عون الناس ومساعدتهم ما استطعت الى ذلك سبيلا ، لا لأنك مكلف بهذا بل لأنك تحب الخير وتحس بالسعادة أن تقوم به .

وذلك الرجل الذي حسب الاسلام صياما وصلاة وذكرا فأخذ يصوم النهار ويقوم الليل ، ويكْثِرُ الذكر ، ويعتمد على الناس في الإحسان إليه ومساعدته بالطعام والشراب واللباس ، هذا الرجل مسلم بلا شك ، ولكن روح الاسلام غابت عنه ، هذه الروح التي تكره أن يعيش الانسان على جهد سواه ، وألا يسهم في خير الانسانية وكفاحها . وأن يكون مستهلكا ولا انتاج له ، ولذلك أرشد الرسول أصحابه الى روح الاسلام

---

(١) سورة النحل : الآية ٢٣ .
(٢) سورة البقرة : الآية ٢٧٦ .

فى هذه القصة ، فسأل أيكم يكفى طعامه وشرابه ؟ فلما قالوا له : كلنا . قال : كلكم خير منه .

وعندما حاقت الهزيمة بالمسلمين فى غزوة أحد ، وركزت قريش جهدها للفتك بالرسول ، وقف مسلمون بررة يتلقون عن الرسول الردى ويدافعون عنه وهم مستعدون للموت دونه ، ليس فى الاسلام ما يلزم المسلمين بهذا ولكن حبهم للرسول وادراكهم لروح الاسلام كل ذلك قادهم الى أن يدركوا مبلغ الخسارة التى يخسرها الاسلام لو قتل الرسول فى مثل هذه الظروف فقدموا أنفسهم فداء له ، ووضعوا أجسامهم هدفا للموت فى سبيله .

ولعلنا الآن نستطيع أن نكتفى بهذا القدر من الحديث عن روح الاسلام وسيطرتها على ذلك العهد وهذا المجتمع ، ففى الدراسة السابقة نماذج كثيرة تبين كيف استطاعت هذه النخبة من المسلمين أن تفهم روح الاسلام وآدابه وفلسفته وأن تساير الرسول صلوات الله عليه فى فهمه العميق لهذه الشريعة السمحاء .

المجتمع الاسلامى ينمو ويتسع

اتسع المجتمع الاسلامى فى حياة الرسول حتى شمل جزيرة العرب كلهـا تقريبا ، وكانت المبـادىء التى وضعها الرسـول عقب الهجرة لمجتمع المدينة ، تسير مع الاسلام أنى سار ، فلما عم الاسلام الجزيرة كانت هذه المبادىء مسيطرة على نفوس المسلمين جميعا ، وبخاصة أولئك الذين تمكن الاسلام من قلوبهم ، وبقى مبدأ واحد وضع الرسول أصوله أيضا فى مجتمع المدينة ، ولكنه كان أكثر وضوحا عندما انتشر الاسلام واتسع نطاقه ، ذلك المبدأ هو مـا يسميه بعض المؤرخين المحدثين (١) « عصبة الأمم الاسلامية » • وقد نشأ هذا المبدأ كما قلت بالمدينـة فى صورة مصـغرة ، ويبدو ذلك من مراجعتنا لنص المعاهدة التى عقدهـا الرسول بالمدينـة ، وبيّن فيها حقوق جماعات المسـلمين وواجباتهم ، وحقوق سكان المدينة من غـير المسلمين وواجباتهم ، ففى هذه المعاهدة برزت الدولة الاسـلامية كما سـبق القول ، وبرز كذلك زعيم الدولـة الاسـلامية الذى يُرجَع اليه اذا اشتد أمر أو نشب خلاف واتسـع ، وبرزت كذلك الأسرة الاسلامية المتساوية المتعاونة المتآلفة ، وبالاضافة الى ذلك برز شىء كان موجودا من قبل الاسلام ولكن الرسول أبقى منه جانب الخير ونظمه ورتّب حدوده ، وذلك هو وحدات هذا المجتمع ، أو قل : الأسرة أو القبيلة فى المجتمع الاسلامى ؛ لقد دعم الرسول التعاطف بين أفراد هذه القبائل ونصت المعاهدة سالفة الذكر على أن بنى عـوف على ربعتهم (أمرهم الذى كانوا عليه) يتعاقلون معاقلهم الأولى (يسيرون على ما كانوا عليه من التضامن فى دفع الدية أو أخذها) وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، ومثل ذلك للمهاجرين من قريش ولبنى الحارث وبنى ساعدة وغيرهم •

فلما اتسع الاسلام وشمل جزيرة العرب كلها كان هـذا التعبير

(١) انظر حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ص ٥٧٩ •

« عصبة الأمم » أدق دلالة وأوضح معنى ، فقد رد النبي ﷺ الأمراء الى امارتهم والملوك الى ممالكهم بعد أن أسلموا ، ولم تكن فى الجزيرة مستعمرة خاضعة لمكة أو ليثرب ، وكان العرب يومئذ جميعا سواسية أمام الله فى ايمانهم المتين به ، وكانوا جميعا يدا واحدة على من اعتدى عليهم ، أو حاول فتنتهم عن دينهم (١) .

وكان الرسول بذلك يضع الدستور الاسلامى للأجيال القادمة ، ويهيىء الأمر للعلاقات بين الدول والممالك الكبرى التى كان يدرك أن الاسلام سينتظمها فى يوم ما ، وخلاصة الدستور هو وحدة بلا استعمار ، مركزية فى الأهداف والسياسة ، والرياسة العليا التى تتكلم باسم الجميع فى الشئون الخارجية والقضايا العامة ولا مركزية فى المشكلات الداخلية .

ذلك هو المجتمع الاسلامى الأول الذى كونه الرسول صلوات الله عليه على أساس من الايمان بالله والاخاء والحب فكتب له النصر ، وتقدم من فوز الى فوز ، وانطلق أفراده يحملون هذه الرسالة السامية الى أركان الأرض ، أو قل انطلقت هذه الرسالة من تلقاء نفسها الى أركان الأرض ، وكانت تنتشر ولو انهزمت جيوش المسلمين ، وكانت تتقدم ولو تراجع أولئك الذين يحملون قبسها ويدافعون عنها .

ذلك هو المجتمع الاسلامى كما كونه الرسول وأضفى عليه من خلقه السامى وسيرته العطرة ، المجتمع الذى كان مثال الايثار فى عالم كله أثرة ، المجتمع الذى كان نورا وهاجا فى عالم مشحون بالظلمات ، فلنسر خطوات أخرى مع هذا المجتمع لنرى كيف تجاوز الجزيرة العربية ، حاملا الرسالة السامية للعالم أجمع ، ثم لنرى كيف تسرب له الداء ، فأكل من لحمه وأوهن عظامه ؟ وكيف بدأ البعث الجديد ؟ وما الوسائل التى ندعم بها هذا البعث لنصل مستقبلنا بماضينا ، ولنستعيد الزمام الذى أفلت حينا من أيدينا .

---

(١) حياة محمد للدكتور هيكل ص ٥٧٩ .

المجتمع الاسلامى فى عهد الصاحبين :

كان الصديق والفاروق عضدي الرسول فى أثناء حياته ، واستطاعا أن يصلا الى أسرار الدعوة الاسلامية وكنهها السامى : ولما لحق الرسول بالرفيق الأعلى حملا العبء بكفاءة ممتازة وعبقرية نادرة ذادا عن الاسلام بثبات ورباطة جأش عندما تجمعت قوى الشر تعارضه بعد وفاة الرسول وكان للإسلام بقيادتهما الفوز المبين ، ودفعا عجلة الاسلام خارج جزيرة العرب ، وحطما القوة الرهيبة التى كانت تهدد الاسلام من الشمال ، وكانت تُعِد العُدّة للقضاء عليه ، كما أزالا الحاجز الحصين الذى كان يقف حائلا بين الاسلام والشعوب المتطلعة اليه ، وانهارت جيوش قيصر وكسرى التى كانت تدافع عن الباطل أمام جيش الحق والتوحيد ، ووقفت جيوش المسلمين عقب النصر ، وتقدم العلماء يدعون الناس للدين الجديد ويشرحون لهم أسسه ومبادئه وأخلاقه ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا وانفسح المجتمع الاسلامى وتباعدت أطرافه ، ولكن عين الخليفة كانت ساهرة ، واحاطته بتعاليم الاسلام وروحه كانت كاملة شاملة ، وفى المجتمع الجديد جدّت مشكلات ، ولكن الخليفة الملهم الموهوب اقترح للمشكلات الحلول الموفقة ، لا شيء يمكن أن يصف ما أحرزه أبو بكر وعمر من توفيق الا وصف واحد ، هو أنهما كانا ملهمين ، وان شيئين هامين يجب أن يذكر بجانب الخليفتين العظيمين هما أن الخليفتين وُفّقا لتوسيع رقعة العالم الاسلامى ووُفّقا كذلك فيما أدخلاه على الدراسات الاسلامية من تفاصيل وشروح استجابة لمطالب هذا المجتمع الجديد ، فقد كان الرسول على صلة بالله سبحانه عن طريق الوحى ، وكان الوحى يمده بحلول لمشكلات المجتمع ، فلما انقطع الوحى بوفاته ، اجتهد كل من الخليفتين فى حدود المبادىء الاسلامية والقرآن الكريم والحديث الشريف ، والفهم الكامل لروح الاسلام وتعاليمه ، فاستطاعا أن يحصلا على حلول موفقة لما صادفهما من مشكلات . وكان عمر فى ذلك الباب نسيج وحده ؛ لأن المجتمع الاسلامى اتسع فى عهده ، وكثرت مطالبه ، وبرزت فيه حالات

لم تظهر فى عهد الرسول وعهد أبى بكر ، ويقول ابن تيمية أنه لما تولى أبو بكر وعمر صارا كاملين فى الولاية ، واعتدل منهما ما كان ينسب لكل منهما فى عهد الرسول من لين الأول وشدة الآخر (١) . وسنرى فى الدراسة القادمة صورة لهذا المجتمع الواسع وهو يسير بنجاح محققا خير الدنيا والآخرة .

عهد أبى بكر

وأول ما يطالعنا فى عهد أبى بكر ذلك الدستور الرائع الذى افتتح به أبو بكر خلافته مبرزا النهج الذى سيسير عليه فيما يتعلق بسياسة الحكم ، وفيه يقول :

« أيها الناس ، انى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى ، وان أسأت فقومونى ، الضعيف فيكم قوى عند حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فان عصيت فلا طاعة لى عليكم .

« انى وليت هذا الأمر وأنا له كاره ، ووالله لوددت أن بعضكم كفانيه . ألا وانكم ان كلفتمونى أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أقم به ، كان رسول الله عبدا أكرمه الله بالوحى وعصمه به ، ولكنى بشر لست بخير من أحد منكم » .

وسار أبو بكر فى خلافته خير سيرة ، جاعلا الأسس التى وضعها الرسول للمجتمع الاسلامى نبراسا يهتدى به ، ويسير فى ضوئه . كان بلا نزاع قدوة حسنة للمسلمين ، وكان عادلا عطوفا على غير المسلمين ما سالموا . وكانت أعماله لتحقيق العدالة الاجتماعية قوية ناجحة ، وكان لا يقطع بأمر من غير شورى ، الا أن يكون القرآن الكريم أو الحديث

(١) السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية لابن تيمية ص ٧ .

الصحيح صريحي الدلالة على هذا الأمر ، وحينئذ فاتباع للدستور الاسلامى الخالد ، وكان الناس عنده سواسية لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى ، وكانت روح الاسلام توجه تفكيره وتقرر اتجاهاته ، وفى الصفحات التالية سنبرز هذه الاتجاهات خلال مواقف خالدة قام بها أبو بكر :

كان موقف أبى بكر عقيب وفاة الرسول دليلا قويا على عبقريته ، وعمق ايمانه بالله ، وفهمه الكامل لناموس الحياة حتى ولو زاغت أبصار الآخرين وأثرت فيهم الخطوب والأحداث ، وأول ما يبرز من ذلك ما ذكره المؤرخون من أن انتقال الرسول للرفيق الأعلى أذهل العقول وأطار الألباب ، حتى أن عمر بن الخطاب مع رجاحة عقله وسداد رأيه راح يهدد بالويل كل من قال إن محمداً قد مات ، ولكن أبا بكر مع عظم المصيبة عليه ، لم تستطيع هذه المصيبة أن تنسيه حقائق الكون وطبيعة الحياة ، فدخل على الرسول وهو مسجى فى جلد وشجاعة ، وكشف عن وجهه وقبله فى جبينه وقال : « بأبى أنت وأمى قد ذقت الميتة التى كتب الله عليك ... ما أطيبك حيا وما أطيبك ميتا » ثم خرج الى الناس ووقف بينهم وقال : أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت ، « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » (١) .

وبهذا أعاد أبو بكر الى الناس رشدهم ، وأزال عنهم الاضطراب والشكوك وعرفهم هذه الحقيقة ليتدبروا أمرهم ، وليفكروا فيما يصنعون لدينهم ودنياهم عقب وفاة الرسول .

وكانت الصلات الجمة بين الرسول وبين أبى بكر تحتم أن يكون أبو بكر من أهم من يعنى باعداد جثمان الرسول للدفن ، ويصحب ذلك

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٤٤ .

الجثمان الطاهر الى مثواه ليودعه الوداع الأخير بعد عشرة طويلة أضفى فيها الرسول على الصديق آيات حبه ورضاه وتقديره ، وقابل الصديق ذلك بالعون حيث يقل المعين ، وبالاخلاص النجم فى حالك الظلمات : ولهذا وقف أبو بكر فى صحبة جثمان الرسول يؤدى واجبه المقدس ، ولكن عمر أرسل اليه أن أخرج الينا ، قال أبو بكر لرسول عمر قل لعمر إنى مشغول • فرد عمر رسوله ليقول لأبى بكر : انه قد حدث أمر لابد لك من حضوره وعجب أبو بكر ، وساءل نفسه : أى أمر يحتم علىّ أن أدع جثمان الرسول فى هذه اللحظات الحاسمة ؟ وخرج ليرى •

كان الأنصار قد اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة ، وأوشك أمرهم أن يتم على تعيين واحد منهم خليفة الرسول ، ولما عرف أبو بكر ذلك ، أدرك واجبه تجاه عقيدته ، وتجاه المبادىء الاسلامية التى امضى الرسول زهرة حياته يعلمها وينشرها ، فترك جثمان الرسول على كره منه ، وانتزع نفسه انتزاعا من هذا الجوار الحبيب الى نفسه ، ومن هذه الصحبة فى لحظاتها الأخيرة ليؤدى واجبه • • • • وتولى أبو بكر الخلافة ، ومرت الأيام • • • • واحتضر أبو بكر فأخذ يوصى عمر بألا يشغل نفسه بجثمانه إن مات ، وأن يبادر فيرسل الجنود ليدعم بها جيش المثنى الذى كان يحارب فى العراق ، وذكره أبو بكر بما صنعه هو حين وفاة الرسول ، وكيف لم يشغله جثمانه الطاهر عن أداء واجبه وان كان ذلك قد شق عليه ، قال أبو بكر : « اسمع يا عمر ما أقول لك ، ثم اعمل به ، انى لأرجو أن أموت من يومى هذا ، فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا تشغلنكم مصيبة وان عظمت عن أمر دينكم ، ووصية ربكم ، وقد رأيتنى متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ، ولم يصب الخلق بمثله ، ووالله لو توانينا عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا الله وعاقبنا ، فاضطرمت المدينة علينا ناراً »

وهكذا كان التراث الاسلامى فى مقدمة ما يعنى به أبو بكر ، وهكذا كانت روح الاسلام تقوده وترشده •

ولنعد الى الحديث عن خلافة أبى بكر : لما بويع أبو بكر خليفة رآه الناس فى اليوم التالى يحمل تجارته فى طريقه الى السوق ، فاعترضه من رآه من المسلمين وفيهم أبو عبيدة الذى قال له : ان هذا الأمر لا يصلح مع التجارة . فسأل : وكيف أعيش وأطعم أهلى ؟ فتدبر الصحابة الأمر ، وفرضوا له من بيت المال كفايته لقوته وقوت عياله . ولو أننا تخطينا عدة شهور كما فعلنا من قبل لنرى أبا بكر وهو مشرف على الموت كيف لم تطب نفسه بما أخذ من مال المسلمين نظير تفرغه لمصالحهم ، فقال : « ردوا ما أخذته من مال المسلمين اليهم فانى لم أصب منه شيئا، وإن أرضى التى بمكان كذا وكذا للمسلمين بما قد أكون أصبت من أموالهم ، ويروى عن عمر أنه قال بعد أن نفذ وصية أبى بكر : « يرحم الله أبا بكر ، لقد أحب ألا يدع لأحد بعده مقالا ، ولقد أتعب أبو بكر مَنْ يجىء بعده تعبا شديداً » .

ولقد بلغ أبو بكر من التنزه حدا يحسبه أهل جيلنا ممعنا فى المبالغة ، لم تغير الخلافة من حياته شيئا ، ولم تنتقل به من داره الصغيرة البدوية فى السنح إلى غيرها ، وقد نسى منذ تولى أمور المسلمين نفسه ، ونسى أهله وأبنائه ، وتجرد لله تجردا مطلقا ، وأوجب على نفسه أن يشعر بضعف الضعيف وحاجة المحتاج تحقيقا لمعنى الاخاء فى أسمى صوره . وإيذانا بأنه ليس له فى الحياة هوى ، وأنه يقدر بذلك على أن يقيم بين الناس عدلا منزها لا يعرف محاباة . وانما يعرف حدود الله فى أن يعيش الناس جميعا فى ظل هذه الحدود آمنين مطمئنين (١) .

مشكلات ومواجهتها :

وواجه أبو بكر عقب بيعته مشكلات قاسية صعبة ؛ فقد كان كثير من العرب حديثى عهد بالاسلام ، وكثيرون منهم اعتنقوه رهبة من حرب أو رغبة فى خير ؟ ولم يكن الايمان قد تعمق فى قلوبهم بعد ؛ فما ان سمعوا

(١) الدكتور محمد حسين هيكل : الصديق ابو بكر ص ٣٦٢ — ٣٦٣ .

نبأ وفاة الرسول حتى تطلعوا الى التخلص من سلطان الاسلام ، وأرادوا العودة الى جاهليتهم الأولى حيث تحكم القوة لا القانون ، لذلك ارتد كثير من العرب عن الاسلام ومنع آخرون الزكـاة ، وتطلعت كل مـن اليهودية والنصرانية الى استعادة مجدها الزائل وشمسها الغاربة ، وخرج أوغاد في الجزيرة العربية يدعون النبوة ويقولون انهم رسل الله ، وانتفضت الجزيرة كلها انتفاضا على مسلمي مكة والمدينة والطائف ومن تمسك معهم بالدين الحنيف •

لقد تزعزعت عقول كثيرين من المسلمين إزاء هذه الأحداث الجسام بل صرح بعضهم ألا طاقة للمسلمين بحرب العرب جميعا ، وسجل التاريخ خلافا في الرأي بين أبي بكر وعمر ، ولكنه كان خلافا غير متوقع لقـد تعود المسـلمون أن يروا عمر صلبا يميل للشدة والصرامـة ، وأن يروا أبا بكر سمحا يميل للين واليسر ، ولكن الخلاف في هذه المرة كان عـلى عكس ما عهده الناس ، كان عمر يتجه للين وعدم الحرب ، وشاركه هذا الرأي جلة الصحابة ، وقد يكون اجتهادهم قادهم الى هذه الطريق ، ولكن الذي لا نزاع فيه أن انتفاض الجزيرة كلها ضد الاسلام والمسلمين كان له أثره على أصحاب هذا الرأي ، ولكن أبا بكر بقي كالطود الشامخ ، لم تصل هواجس الخـوف الى قلبه ، وأحس أنه المسئول عن مسـتقبل الاسلام والمسلمين ، وكأنما غمـر قلبه احساس قوى بأن الاسـلام سينتصر وأن الغمة سترتفع ، فصاح بعمر : كنت أدخرك للشدائد فجئت تخذلني • وصاح بالمسلمين وهـو يتحدث عن مانعي الزكاة : « والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » (١) • واذا كان ذاك هو موقفه من مانعي الزكاة فكيف يكون موقفه من المرتدين أو مدعي النبوة ومن تبعوهم ؟ وبادر أبو بكر فعقد الألوية لأحد عشر قائدا • وجمع حول كل قائد نخبة من صفوة المحاربين ، وسيرهم الى مواقع الفتن والغدر ، كما أرسل للمرتدين ولمانعي الزكاة

---

(١) المبرد : الكامل جـ ١ ص ٣٤٣ — ٣٤٤ .

كتبا يدعوهم فيها للعودة لحظيرة الاسلام ، ويهددهم إن استمروا فى طغيانهم ولم تمض فترة طويلة حتى كان أبو بكر قد أعاد للجزيرة العربية هدوءها وكشفت الغشاوة عمن ضلوا ، وكتب للاسلام النصر المبين . يقول ابن تيمية (١) : وظهر من أبى بكر من شجاعة القلب فى قتال اهل الردة وغيرهم ما برز به على عمر وسائر العرب .

ويقول السير توماس أرنولد (٢) عند الحديث عن ذلك الموضوع : وتتويج هذه الجهود بالظفر والنصر راجع الى الروح القوية التى بثها محمد فى نفوس أتباعه المخلصين .

وكان الرسول فى أثناء حياته يرسل القضاة والمعلمين الى البقاع المختلفة فى جزيرة العرب ، وكان يرشدهم أن يتبعوا فى قضائهم الكتاب والسنة ، فان لم يجدوا فيهما الحكم المطلوب اجتهدوا وحكموا حسبما يقضى به اجتهادهم فلما مات الرسول جدت مشكلات كثيرة لم يقع نظير لها فى أثناء حياته ، فاجتهد أبو بكر واستشار أصحابه ، وأقدم بشجاعة على ما أداه اليه اجتهاده من نتائج ، ولعل من أعظم المشكلات التى صادفت أبا بكر فى مطلع خلافته مشكلة جمع القرآن .

جمع القرآن :

كانت حرب اليمامة أعظم حرب وقعت بين المسلمين والمتمردين وعلى اثرها آذنت دولة المتمردين جميعا بالانكماش فالزوال ، ولكن ضحايا المسلمين فيها كانوا كثيرين ، فقد استشهد فيها ألف ومئتان من المسلمين من بينهم عدد كبير من كبار الصحابة ومن حفاظ القرآن ، وكان من بين القتلى زيد بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب وقد حزن عليه عمر كثيرا ، يروى أنه لما رأى ابنه عائدا من الغزوة قال له :

---

(١) السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية ص ١٧ .

(٢) The Caliphate p. 18.

ما جاء بك وقد هلك زيد ؟ ألا واريت وجهك عنى ؟

قال عبد الله : سأل الله الشهادة فمنحه إياها ، وجهدت أن تساق إلىّ فلم أُعْطَهَا . على أن حزن عمر على أخيه لم يشغله عن أمر ذى بال ، فقد رأى أن كثيرين من الحفاظ ماتوا فى هذه المعركة ، فأسرع الى أبى بكر وهو فى مجلسه بالمسجد وقال له : إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بالنـاس ، وانى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه ، وانى لأرى أن تجمع القرآن . وكان ذلك الموضوع مفاجأة لأبى بكر لأنه لم يكن قد فكر فيـه ، ولذلك أجاب أبو بكر : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال عمر : هو والله خير . وفكر أبو بكر فى الأمر واقتنع بأن من مصلحة المسلمين أن يجمعوا القرآن ولو أن الرسول لم يفعل ذلك ، فقد كان أبو بكر يدرك أن على المسلمين أن يجتهدوا ليحلوا ما يصادفهم من مشكلات ، ولعل ذلك كان مطلع الاجتهاد فى أمر اختلفت فيه الآراء بين الاتباع المطلق وبين الاجتهاد فى ضوء الظروف الجديدة وفى حدود التعاليم الاسلامية والمصلحة العامة ، وقد انتصرت هذه الفكرة ، وعندما طلب أبو بكر من زيد بن ثابت أن يجمع القرآن ، وكان عمر حاضرا ، قال زيد : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ؟ فدافع أبو بكر عن رأيه ورأى عمر حتى شرح الله قلب زيد لهـذا الرأى ، واضطلع بهذه المسئولية العظمى ، فجمع القرآن من الرقاع والعسب وصدور الرجال .

ماذا بعد موت الخليفة الأول ؟

وهناك اجتهاد آخر أقدم عليه أبو بكر فى محيط النظم السياسية ، وذلك هو تعيين خلف له بعد استشارة كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ، ومن الثابت عند جمهور المسلمين أن الرسول صلوات الله عليه لم يعين خلفا له ، وعلة ذلك واضحة ، فان الرسول لو اختار للمسلمين من يخلفه لظن القوم أن هذا الاختيار هو من وحى الله تعالى ، ولخضعوا للخليفة دون

أن يحاسبوه أو يراقبوه ، والرسول لا يضمن ألا يخطىء الخليفة أو يزل ، وكان الرسول يدرك أن تعيينه خلفا له سيعطى هذا الخلف نوعا من الحصانة ، فلا يستطيع الناس خلعه أو الخروج عليه لو جاوز الصواب ، لهذه الأسباب ترك الرسول مسألة الخلافة دون أن يؤثر عنه فيها توجيه واضح ، ولكن هذه الأسباب كانت كما ترى خاصة بالرسول ، فماذا يمنع أبا بكر من الاجتهاد والتفكير فى هذه المسألة عظيمة الشأن ؟

ثم إن الظروف التى أحاطت بالفترة الأخيرة من حكم أبى بكر كانت خطيرة ، فالجيوش الاسلامية تخوض معارك طاحنة ضد الفرس والروم وهذه الجيوش فى حاجة متصلة الى المدد والرعاية ، كان أبو بكر لا يزال يذكر الخلاف الذى حصل عقب وفاة الرسول ، وخشى أبو بكر إن اختلف المسلمون على الخلافة بعد موته أن يؤدى هذا الخلاف الى الاضطراب ، واضطراب العاصمة وعدم استقرار الحكم سيؤديان إلى أوخم العواقب بالنسبة للمحاربين المسلمين .

إزاء ذلك كان لابد لأبى بكر أن يجتهد وأن يستشير الصحابة ، وقد أداه ذلك الى تعيين عمر ، وكتب بذلك وثيقة حفظت على المسلمين وحدتهم وضمنت للمحاربين الرعاية التى أدت الى النصر المبين ، وعقب البيعة اتجه أبو بكر لله وقال : اللهم إنى لم أرد بذلك إلا صلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به ، واجتهدت لهم رأيا فوليت عليهم خيرهم وأقواهم وأحرصهم على الرشد .

وضرب أبو بكر مثلا عاليا للحكام ، يحثهم على أن يقف كل منهم وقفة من حين الى آخر يحاسب نفسه ويفكر فيما قدم من خير وفيما وقع فيه من أخطاء ، فمثل ذلك الحساب جدير أن يقود الى طريق الخير والرشاد ، روى عبد الرحمن بن عوف أن أبا بكر بعد أن كتب وثيقة تعيين عمر قال : إنى لا آسى على شىء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتهن وددت أنى تركتهن ، وثلاث تركتهن وددت أنى فعلتهن . . والذى يقرأ هذه

القصة يدرك بساطة الأخطاء التي اعتقد أبو بكر أنه ارتكبها وتمنى لو لم يفعلها ، ولكن الأهم من ذلك أن القارىء يدرك أن أبا بكر لم يكن يغفر لنفسه الهفوات وكان يجمع زلاتها ويخضعها لحساب مرير •

وكان أبو بكر شديد البر والعطف على الفقراء والمعوزين ، وكان يتولى بنفسه رعايتهم ، فان ضاق بذلك مال بيت المال اتسع له ماله الخاص ، وكان حريصا على أن يقدم للمساكين ما يحتاجون اليه دون أن يعلم بذلك أحد ، رُوِى أن عمر بن الخطاب كان يتعهد امرأة عمياء ، ولكنه كان كلما جاءها ألفاها وقد قضيت حاجاتها ، فترصد عمر يوما ليعرف من الذى يقوم بخدمتها دون فتور ، فاذا به أبو بكر ، ومما أثر عنه قوله : **إن أشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك ، فمنهم مَنْ إذا ملكَ زهده الله فيما بيده ورغبه فيما بيد غيره** •

« ولا حاجة الى القول بأن مثال أبى بكر كان أسوة عُمَّاله فى سائر بلاد شبه الجزيرة ، وإن طمأنينة العرب الى عدل الخليفة وانصافه ، والى بره ورحمته ، والى حكمته وحسن سياسته ، كانت من العوامل ذات الخطر فى نجاح سياسته » (١) كما كانت من أهم العوامل التى ضمنت أن ينعم المجتمع الاسلامى فى هذه الفترة بكل عناصر السعادة والتوفيق •

عهد عمر بن الخطاب

عمر بن الخطاب جدير بما ناله من اهتمام المؤرخين القدامى والمحدثين ، وسأحاول أن أكبح قلمى لأكتب عن هذا الخليفة من ناحية اتصاله بالمجتمع الاسلامى ، خوف أن ينفلت القلم مبهورا بسيرته الزكية وأعماله الجسام •

وقد سبق أن أشرنا الى مكانة الصديق والفاروق من الرسول ، وأن الصاحبين أكملا البناء الشامخ الذى وضع الرسول أسسه الثابتة ، كان أبو بكر

(١) الصديق أبو بكر ص ٣٧٦ •

أول خليفة ولكن الحقيقة أنه لم يكن وحده ، بل كان عمر معه ، كان كل منهما يكمل الآخر •

قال أبو بكر لعمر عندما اشتد الجدل فى سقيفة بنى ساعدة : ابسط يدك نبايع لك •

قال عمر : أنت أفضل منى •

قال أبو بكر : أنت أقوى منى •

قال عمر : إن قوتى لك مع فضلك •

وهكذا يمكننا أن نقول دون تحرج : ان كرسى الخلافة شغل فى وقت واحد بفضل أبى بكر وقوة عمر • وقد كان الناس يدركون ذلك ، ويحسون بسلطان عمر ونفوذه فى عهد الصديق العظيم ، حتى قال بعضهم لأبى بكر : والله ما ندرى ألأنت الخليفة أم عمر ؟

قال أبو بكر : إنه هو لو كان شاء •

وكان هناك فارق واضح يلحظه الباحث بين الصديق والفاروق ، وهذا الفارق يرسم صورتيهما رسما دقيقا ، استمع لخطاب أبى بكر الذى افتتح به خلافته : أيها الناس إنى وليت عليكم ولست بخيركم ••• وإلى خطاب عمر فى موقف مماثل : أيها الناس إنى وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم ، وأقواكم عليكم وأشدكم اضطلاعا بما ينوب من مهم أموركم ، ما وليت ذلك فيكم ، ولو علمت أن أحدا اقوى منى على هذا الأمر لكان أن أقدم فتضرب عنقى أحب إلى من أن أليه •

تواضع سمح من أبى بكر يتفق مع نفسه السمحة الرضية • واعتداد بالنفس من عمر يتفق مع طموحه وقوته ، ثم قل من ناحية أخرى إن سماحة أبى بكر كانت تتفق مع الظروف التى تولى فيها الخلافة ، حيث

كان العالم الاسلامى محدودا بالجزيرة العربية ، وحيث كانت تعيش النخبة الطيبة من أصحاب الرسول فى تواضعهم وصفاتهم ، أما عمر فقد تولى الأمر وقد امتد الاسلام الى أرض الفرس والروم ، وكثر المسلمون عدداً ، واتصلوا بحضارات الأمم المفتوحة ، وتطلع بعضهم الى الاستمتاع بالنعيم الذى كان يرفل فيه حكام هاتين الأمبراطوريتين وقادتهما ، كان عمر على صلة تامة بهذا التطور طيلة عهد سلفه ، ولذلك كان لابد له أن يتولى هذا الأمر فى قوة واعتداد بالنفس ، ليكبح جماح الطامعين •

وهناك ملاحظة أخرى تبرز فى حياة عمر وتتصل بالتطور الاجتماعى أيضا اتصالا وثيقا ، تلك هى العطف واللين والرحمة التى ملأت نفسه ، وأصبحت أبرز خصاله عقب توليته الخلافة ، فقد عَرَفَ الناسُ عمرَ فى عهدى الرسول وأبى بكر شديدا حازما ، وصوّره التاريخ لنا على أنه الشخص الوحيد الذى مثّل منذ دخل الاسلام حتى تولى الخلافة دور الشدة والقوة بجانب الرسول وبجانب الخليفة الأول ، حتى إذا آل له الأمر انقلب رخاء ويسراً ورحمة •

نجده فى غزوة بدر يصر على إعدام أسرى قريش ، ويهتف بالرسول قائلا : هؤلاء أئمة الكفر ، اضرب أعناقهم ، مكّنّى من أقربائى فيهم ، ومكّن عليا وحمزة من أخويهما فنضرب أعناقهم •

ونجد شدته قد ذاعت ، وأصبح اسمه مقترنا بالجد والحزم عند الصغار والكبار ، فلقد رُوِىَ أن جارية سوداء فى بيت الرسول ، نذرت مرة إن عاد الرسول سالما من احدى غزواته أن تضرب بالدف فرحا وسرورا ، فلما عاد الرسول سالما استأذنته أن تفى بنذرها فأذن لها ، وأخذت الجارية تضرب بالدف أمام الرسول ، ودخل أبو بكر وعثمان وعلى وغيرهم من الصحابة ، وجلسوا مع الرسول والجارية مستمرة فى فرحها ونشاطها أمامهم ، ثم دخل عمر فسرعان ما وجمت الجارية وأسرعت تخفى دفها ، فقال الرسول : إن الشيطان ليخاف منك يا عمر •

ويستمر عمر فى شدته وحزمه فى عهد أبى بكر ، حتى إذا أصبح عمر خليفة برز ما كمن فى نفسه من عطف ولين ورحمة ، ولا شك أن أصدق تصوير لنفس عمر ما حدّث به عن نفسه فى هذا الموضوع ، قال :

« بلغنى أن الناس هابوا شدتى ، وخافوا غلظتى ، وقالوا قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه ؟ ومن قال ذلك فقد صدق .

« إننى كنت مع رسول الله ، فكنت عبده وخادمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته فى اللين والرحمة ، وكان — كما قال الله — بالمؤمنين رءوفا رحيما ، فكنت بين يديه سيفا مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى ؛ فلم أزل كذلك مع رسول الله حتى توفاه الله وهو عنى راض ، والحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد .

« ثم ولى أبو بكر أمر المسلمين فكان من لا تنكرون دعته وكرمه ولينه ، فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتى بلينه ، فأكون سيفا مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى ، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راض ، فالحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد » .

« ثم إنى قد وليت أموركم أيها الناس ، فاعلموا أن تلك الشدة قد ضوعفت ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين ، فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض ، ولست أدع أحدا يظلم أحدا او يعتدى عليه حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن للحق ، وانى بعد شدتى تلك أضع خدى على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف » .

وهكذا يبدو لنا بوضوح أن رحمة عمر الكامنة فى نفسه لم يكن هناك ما يدعو لإبرازها فى عهدى الرسول وأبى بكر ، لأن فاضت رحمة الرسول ورحمة أبى بكر حتى لم يبق لعمر مجال فى هذا الاتجاه ، فلما آل له الأمر

وأصبح مسئولا عن الرحمة والشدة ، وملجأ الحنان للمعوز والمظلوم ، ومصدر الحزم للظالم والجائر ، وفى عمر بهذين الهدفين وزاد .

نماذج من حزم عمر :

فأبو سفيان ، مع حَوْله وطوله يظلم مسلما فيأمره عمر بأن يرد للمسلم حقه ، فيتردد أبو سفيان ، وحينئذ يهوى عليه عمر بالدرة ولا يدعه حتى يعيد الحق الى نصابه .

وسيف الاسلام خالد بن الوليد القائد الذى لم يهزم قط ، والذى أبلى أعظم بلاء فى نصرة الاسلام ، يأخذ عليه عمر بعض المآخذ فيقرر عزله .

وجبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة يدخل الاسلام ويذهب ليطوف بالبيت ، وهناك يطأ أعرابى ذيل إزاره سهوا ، فيلتفت الملك اليه ويلطمه لطمة قاسية . ويقضى عمر للأعرابى أن يثأر لنفسه ، ولما احتج جبلة بأنه ملك والأعرابى سوقة ، أجابه عمر : لقد سوى الاسلام بينكما .

تلك صورة موجزة من شدة عمر ، وهى ومثيلاتها تدل دلالة قوية على أنها قسوة فى الحق ، قسوة لا تعـرف الطغيان ولا التشفى وانما تقيم العدل وتكسر حدة الظالم .

ونماذج من لينه وسماحته :

وبجانب ذلك نجد نفس عمر تفيض رحمة ولينا وسماحة ، نجده يسرع إلى دار الدقيق ليحمل منها عدلا لامرأة فقيرة وصغارها الجائعين ، وفى دار الدقيق يقول لمولاه « أسلم » : احمل على هذا العدل . فيقول أسلم أنا أحمله عنك يا أمير المؤمنين ، ويكرر عمر قولته ويكرر أسلم جوابه ، فيضيق به عمر ويصيح : لا أم لك ، أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة ؟ احمله على . ويسرع عمر الى المرأة ، ويساعدها فى الطبخ وتبريد الطعام وإطعام الأطفـال .

ويذهب مرة فى عسسه الى ظاهر المدينة فيسمع أنين امرأة ، ويتساءل عنها ، فيخبر أنها قد جاءها المخاض ، فيسترسل عمر ليسأل : من معها يساعدها ؟ فيعرف أنها امرأة غريبة فقيرة نزلت هى وزوجها فى هذه البقاع حديثا ، فيسرع عمر الى زوجته ويسألها : هل لك فى أجر ساقه الله إليك ؟ ويخبرها الخبر ، فتوافق على الذهاب لمساعدة المرأة ، ويصحبها عمر حاملا على ظهره دقيقا وشحما ، وتحمل زوجته ما يصلح للولادة ، ويجلس عمر مع الزوج يحادثه ولا يعرف أحدهما الآخر ، ثم تنادى زوجُ عمر : يا أمير المؤمنين بَشِّرْ صاحبكَ بغلام . فيدرك الرجل أنه فى حضرة الخليفة العادل الرحيم ، فيثنى عليه ويشكر له .

وليس من الممكن أن نسترسلَ فى ذكر هذه القصص الرائعة فقد أوردت منها كتب الأدب والتاريخ مجموعة كبيرة ، وكلها تشترك فى أنها تصوِّر عمر حاكما مسلما مثالياً ، وقدوة حسنة لولاته وأتباعه .

صور من أخلاق عمر :

بقى علينا أن نصور فى نفس عمر جوانب غير جانب الاعتداد بالنفس والرحمة الفياضة ، وتلك الجوانب الجديدة ستصوره الحاكم الذى يترتب على صلاحه صلاح الرعية : **« صنفان من أمتى إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسدا فسد الناس : العلماء والأمراء » :**

لعمر فى مال المسلمين سياسة وضحها بقوله : ألا إنى أنزلت نفسى من مال المسلمين بمنزلة ولى أمر اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف تقرُّم البهيمة بالبادية : التقضم لا الخضم (أى كما تأكل ماشية البادية قليلا قليلا بأطراف أسنانها دون أن تملأ فمها بطعام تحتاج إلى الأضراس لطحنه) .

وهكذا كانت سياسة عمر وحياته ، بيت صغير قليل الأثاث ، طعام

طالما تكوّن من الخبز والزيت والملح : ملابس ان اختلفت عن ملابس المسلمين فهى أقل منها ، وعفة عن مال المسلمين بلغت الغاية وزادت .

كان سارية بن زُنَيْم يقود جيشا من جيوش المسلمين فى حرب فارس ، وقد كتب له النصر ، وكان له مما ظفر به المسلمون سَفَط فيه جواهر ، فاستوهبه سارية من الجند وبعث به وبخبر النصر الى عمر ودخل رسول سارية بيت عمر وقت الظهيرة ، وطلب عمر طعاما لنفسه ولضيفه ، فجاء الغداء : خبز وزيت وملح جريش ، ونادى عمر زوجته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب ، فقالت : انى لاسمع حسّ رجل ، ولو أردتَ أن أبرز للرجال اشتريت لى غير هذه الكسوة . فأجاب عمر ألا يكفيك أن تكونى بنت على بن أبى طالب وزوجة عمر ؟ فقالت : ما أقل غناء ذلكَ عنى .

وبعد أن فرغ الطعام قدّم رسول الجيش لعمر هدية الجيش له ، فتجهّم وجه عمر وصاح : لا ولا كرامة ، عد الى الجيش وقدم لهم ما غنموه ، وفتح الباب يطرد الرجل من بيته ، واعتذر الرجل ، وذكر أنه أنضى بعيره ، فأبدله عمر بعيرا من إبل الصدقة وجعل بعيره مكانه ، ورجع الرجل آسفا كاسف البال .

وكان عمر شديد الاحساس بالمسئولية الملقاة على عاتقه ، وهناك قصة شهيرة تعود المؤرخون أن يذكروها ويعلقوا عليها باعجابهم بحساسية عمر وشعوره بحق المسلمين عنده ، وقد سبق لنا أن أشرنا اليها ، ولكنى هنا أعيد الاشارة اليها وأعلق عليها من جانب آخر :

بينما كان عمر يعس اذ رأى نارا فاتجه لها فرأى امرأة وحولها صِبْيَة يتضورون جوعا ورأى قدرا منصوبة ... فسأل عمرُ المرأة عمّا يُبْكى بنيها . فقالت : الجوع ، جزى الله عمر . قال وما يدرى عمر بكم ؟ قالت المرأة : يتولى أمورنا ويغفل عنا . . . فأسرع عمر الى بيت الدقيق

وحملَ دقيقا وشحما وسارع للمرأة ، وأخذ يساعدها فى طهو الطعام وتقديمه للأطفال وهى تقول له : أنت أولى بهذا الأمر من عمر .

والذى نعجب له فى هذه القصة هو إدراك المسلمين لحقهم عند الخليفة ، وإدراكهم لواجب الخليفة تجاههم ، وهذا يدل فيما أرى على نضج ديمقراطى رائع ، شملَ المرأة والرجل ، والمتعلم والجاهل ، والغنى والفقير .

ومن هذا أيضا ما حكى أن عمر جاءته برود فوزعها على المسلمين بردا بردا لكلٍّ منهم ، وأخذ هو أيضا أحد هذه البرود ، وبعد أيام صعد المنبر وندب الناس الجهاد ، فوقفَ رجلٌ وقالَ : لاسمع ولا طاعة فسأل عمر : ولم ذلك ؟

قال الرجل : لأنك استأثرت علينا ، لقد خرج نصيبك من البرود بُرْداً واحداً ، وهو لا يكفيك ثوبا ، فكيف فصّلته قميصا وأنت رجل طويلٌ ؟ فالتفت عمر الى ابنه وقالَ : أجبه يا عبد الله . فقالَ عبد الله . لقد ناولته من بردى ما أتمَّ به قميصه . قال الرجل : أما الآن فالسمع والطاعة .

وهكذا كان عمر يسمح للناس بمحاسبته علانية ، وفى جمهرة من الناس ، وكان يرى أن هذا حقهم ، فلم يغضب مرة ، ولم تأخذه العزة بالإثم .

ومن إحساس عمر بالمسئولية إعلانه أنه مسئول عن أخطاء ولاته ، ولا يعفيه من المسئولية أنه يحسن اختيارهم ، وقال مرة لمن حوله : أرأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل ، أكنت قضيت ما علىَّ ؟ قالوا : نعم . قالَ : لا ، حتى أنظر فى عمله لأرى عَمِلَ بما أمرته أم لا .

ومن احساسه بالمسئولية أنه جعلَ موسم الحج موسم استطلاع ومحاسبة ، يستقبلُ فيه ولاته فيسمع منهم ، ويستقبلُ المسلمين من جميع الجهات ليسألهم عما يشكون منه ، ويستقبلُ عيونه الذين كان يوفدهم

ليروا أحوال الناس وسلوك الولاة ، ثم يعطى كل ذى حق حقه دون تردد أو إهمال .

على أن إحساسه بالمسئولية وصل الى درجة عالية عندما قرر ألا يبقى فى الحجاز ليفد له الشاكون والمظلومون ، وخاف أن يكون بُعد الشقة حائلا دون بعض المسلمين من الحضور للمدينة ، أو إيصال شكواهم اليه ، ورأى من واجبه أن يسعى هو لهم يرى أحوالهم ويسمع منهم . قال عمر : « لئن عشت ان شاء الله لأسيرنّ فى الرعية حولا كاملا ، فانى أعلم أن للناس حوائج تُقْطَع دونى ، أما عمالهم فلا يرفعونها إلىّ ، وأما هم فلا يصلون إلىّ . فأسير الى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى البصرة فأقيم بها شهرين ؟ والله لنعم الحول هذا » .

المؤمن فى ميزان عمر :

ولعمر فى تقدير المؤمن ميزان رائع ، نظر فيه الى أن يكون المؤمن عضوا صالحا فى المجتمع ، قال : « لا تنظروا الى صيام أحد ، ولا الى صلاته ، ولكن انظروا من اذا حدث صدق ، وإذا ائتمن أدى ، وإذا هم بالمعصية زجر نفسه وكبح جماحها » وقال : « لا يعجبنكم من الرجل طنطنته ، ولكن من أدى الأمانة وسلم الناس من لسانه ويده » .

صور من اجتهاد عمر :

وكان عمر فى القضاء والاجتهاد موهوبا ملهما . وقد بدت بوادره هذه منذ عهد الرسول حتى قال عليه السلام فيه : « قد كان فيكم رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فان يكن فى أمتى أحد فعمر » وقد كان عمر جريئا فى اجتهاده ، يعرض رأيه ويدافع عنه ولو كان للرسول رأى سواه وكذلك كان فى عهد أبى بكر ، وفى بعض الحالات كان القرآن الكريم

يؤيد رأى عمر كما حدث فى أسرى بدر ، ولنا هنا أن نلاحظ أمرا ذا بال هو أن عمر كان يحترم رأى الآخرين كما يحترم رأى نفسه ، جاءه رجل يعرض عليه قضية فأحاله الى على بن أبى طالب الذى كان يتولى القضاء ، فقضى على فيها باجتهاده ، فلما رأى عمر الرجل سأله عن قضيته

قال الرجل : قضى علىٌ بكذا •

قال عمر : لو كنت أنا لقضيت بكذا •

قال الرجل : فما يمنعك والأمر لك ؟

قال عمر : لو كنت أردك الى كتاب الله أو الى سنة رسوله لفعلت ، ولكنى أردك الى رأى ، والرأى مشترك ولست أدرى أى الرأيين أحق عند الله •

وقد وصل عمر فى الاجتهاد مرحلة عالية بعيدة الأثر فى حياة الدولة الاسلامية ، فاقترح الخراج وأعاد النظر فى توزيع الغنائم ، وفى عطاء المؤلفة قلوبهم وغير ذلك مما سنشير اليه عند الحديث عن عمر والمجتمع الاسلامى •

وفيما يتعلق بالشورى جعل عمر من كبار المسلمين مجلس مشورة له ، لا يبرم أمرا ولا ينقضه الا بعد مذاكرتهم والاستئناس بنصيحتهم وسابق علمهم من مأثورات النبى وأحاديثه •

وارتفع بهم أن يكونوا أتباعا له فجنبهم ولاية الأعمال قائلا لمن راجعه فى ذلك : « أكره أن أدنسهم بالعمل » فسبق الدساتير العصرية بحسن تصرفه وصادق تدبيره ، فهم كانوا مجلس الأمة ، وليس لأحد من مجلس الأمة أن يلى عملا من أعمال الحكومة ، فهما فى الدولة وظيفتان لا تجتمعان (١) •

---

(١) عبقرية عمر للعقاد ص ٢٦٠ — ٢٦١ •

وكان كثيرا ما يلجأ للشورى العامة ، فيدعو الناس الى الاجتماع فى المسجد ، ويعرض عليهم الأمر الذى يهمه فيستمع لآرائهم ، ويستفيد باتجاهاتهم وأفكارهم .

وكان يأمر الولاة والقادة بألا يستبدوا بأمر وأن يستشيروا من معهم من الصحابة ، ومما ورد فى كتابه الى أبى عبيد الثقفى قائده فى العراق قوله : « اسمع من أصحاب رسول الله وأشركهم فى الأمر » .

على أن أهم ما نحب إبرازه بصدد الحديث عن الحكم وسياسة الحاكم أن الرسول وخليفته كانت حياتهم كلها لمصلحة الرعية ، حتى ليمكن القول إن الحاكم كان خادم المحكومين ، ولم ينل أحد منهم لنفسه شيئا قط ، ولكنه أعطى من ماله ومن جهده عطاء لم ينتظر من الناس له جزاء ، كان كل منهم بذلك أسمى قدوة للحكام جميعا مهما اختلف الزمان والمكان (١) .

عمر والمجتمع الاسلامى :

تحدثنا فيما سبق عن شخصية عمر ، ولكننا قد تخيرنا من أخلاقه ما يتصل بالمجتمع لتظل فى حدود الإطار الموضوع لهذا البحث . ونريد أن نتحدث عن المجتمع الاسلامى نفسه فى هذه الفترة الحاسمة من فترات التاريخ .

بدأ التوسع الاسلامى فى عهد الصديق فى السنة الثانية عشرة للهجرة ، ومات أبو بكر فى العام التالى والحرب لا تزال دائرة بين المسلمين وبين الفرس والروم ، وفى عهد عمر كانت الدولة الاسلامية قد امتدت واستقرت ، وهدأت الحروب ، بعد أن شملت الدولة الاسلامية العراق وفارس والشام ومصر وبرقة .

---

(١) اقرا كتاب « السياسة فى الفكر الاسلامى » للمؤلف .

لم تعد الدولة الاسلامية عربية ؛ وانما شملت أجناسا مختلفة ، واتصلت بحضارات قديمة ، كحضارة الفرس والأشوريين والبابليين والمصريين •

ولم تعد الحياة سهلة بسيطة . وانما تعقدت الأمور وجدّت مشكلات متعددة الجوانب كثيرة الاتجاهات ، فمثلا لم يكن لدى المسلمين جيش ثابت منتظم ، وكان الرسول وأبو بكر وعمر — فى أول عهده — يندبون الناس للجهاد فيأتى الناس ، ويحضرون معهم طعامهم وسلاحهم وما يركبونه ان كانوا من الفرسان ، فمن لم يستطع الحصول على فرس يركبه انضم الى صفوف الرجالة ، وبعد الجهاد يعود هؤلاء المجاهدون ليباشروا أعمالهم العادية فى التجارة أو الزراعة أو رعى الغنم • فلما اتسعت المملكة الاسلامية ، وأصبحت لها حدود تصلها بالروم كان لابد من تكوين جيش يحرس هذه الحدود ويقف أمام الأعداء المتربصين ، وهكذا اضطر عمر الى تكوين جيش •

ولم تكن هناك مرتبات منتظمة ، بل كان المجاهدون يقتسمون الغنيمة إن حصلوا عليها ، فان لم يحصلوا على غنيمة قنعوا بالثواب من الله • وعادوا إلى أعمالهم التى يرتزقون منها • ولكن الجيش المرابط على الحدود ، والذى اتخذ الدفاع عن الدولة الاسلامية عملا تفرغ له احتاج الى مرتبات منتظمة ، تصرف لأعضائه ، دون أن يتركوا هم وأسرهم لغنيمة قد تجىء وقد لا تجىء •

ودخل الاسلام أمما غير عربية ، فكان لابدّ من تقديم اللغة العربية لهؤلاء بشكل ما •

وهكذا احتاجت الدولة الجديدة الى كثير من المنشآت ، وهكذا تطلع المجتمع الجديد الى نظم جديدة تحل ما ظهر فيه من مشكلات عديدة ؛ وقد نهض عمر بهذا العبء الضخم نهوضا عظيما ، ووفق توفيقا بلغ الغاية

فيما أنشأ وما اقترح ، وكان تالعهد به حاسما موهوبا ، ولم يـدع أمرا يضطرب ثـم يقترح له الدواء ، وانما كان فى الغالب يحس بالحاجة قبل ظهورها فيقوم بالوقاية حتى لا ينشأ الداء • وسنعيش فى هذا المجتمع فترة من الزمن لنرى ركبه يسير فى أمن ورخاء •

حاجات المجتمع الجديد :

تحدثنا فيما سبق كيف كوّن عمر الجيش ورتب المرتبات ، وقد سار عمر يستجيب للدواعى الجديدة فرتب الدواوين ؛ وعين لها الموظفين من الفرس والروم والمصريين ، وقسم الولايات ، وضرب الدراهم ، وأنشأ نظام الحسبة ، وثبّت التاريخ الهجرى ، ونظم البريد ليصل بين أجزاء المملكـة الفسـيحة ، وبذلك ضمن عمـر للمجتمع الاسلامى حيـاة منتظمة سلسة تضمن له السلامة وتحقق له الخير •

والدين الاسلامى يشرع للدنيا ، ينظم علاقات الفرد بالفرد ، والفرد بالمجتمع ، ويشرّع للآخرة فيعلّمنا عبادة الله ووحدانيته والايمان بالصراط والميزان والجنة والنار ، من أجل هذا أدرك عمر مسئوليته ليضع للمجتمع الجديد ما يلائمه من نظم وليغير فى بعض الأحوال من النظم التى اتبعت من قبله إذا كانت الأحوال فى المجتمع الجديد تستدعى الابتكار أو التغيير ، وكان عمر كما يقول الدكتور هيكل (١) يسترشد بروح الاسلام لا بالناحية الحرفية فيما يعرض عليه ، وكان لعظيم ايمانه وشدة امتثاله تعاليم رسول الله ، جريئا فى الاجتهاد ، وان خالف ظاهر النص ، فاذا ورد نص لم يبق فى أحـوال الجماعة ما يقتضى تطبيقه لم يطبقه ، واذا اقتضت أحـوال الجماعة تأويل النص أوّله ، حريصا فى هذا وفى ذاك على ملاءمة الحكم لأحوال المجتمع مع اتفاقه فى الوقت نفسه مع روح المبادىء والتعاليم المحمدية السليمة •

---

(١) الفاروق عمر جـ ٢ ص ٢٨٢ .

وسنعرض فيما يلي بعضا من المشكلات الاجتماعية التي اجتهد فيها عمر ووضع لها حلولا ناجحة ضمنت لهذا المجتمع حياة ناجحة موفقة .

ولعل أبرز الأدلة على اتباع عمر لروح الاسلام أكثر من اتباعه للناحية الحرفية ، موقفه من كبار الصحابة ، فقد منعهم من مغادرة المدينة إلا باذنه ولأجل محدود ، ولم يسمح لهم بالخروج الى الأقاليم أو امتلاك الضياع بها ، فمن الواضح أنه ليس في الدين الاسلامي أن يمْنَع الرجل الذي لا حكم عليه من الخروج من بلد الى بلد ، ومن امتلاك الضياع بالحق والعدل ، ولكن عمر أدرك أن هذه الطبقة من كبار الصحابة لو خرجت للأقاليم لالتف حولها الناس ولأخذوا بما سيسمعونه منهم من أحاديث عن صحبتهم للرسول وموقفهم في نصرته ، وسيخلق هذا لهم مكانة في نفوس الجماهير من الناشئين الذين يتسقطون الأحداث المتصلة بالرسول ، فاذا أضيف الى هذا اباحة تملك الضياع لهؤلاء ، ستكون النتيجة أن كلا منهم سيكون لنفسه دولة في قلب الدولة ، ولهذا منعهم عمر من مغادرة المدينة إلا باذن ولأجل محدد كما قلنا ، وكان عمر في ذلك يعمل بروح الاسلام .

فلما تولى عثمان أذن لهؤلاء بالسفر والاقامة حيث يشاءون ، فكان ما خافه عمر ، وأنشأ هؤلاء لأنفسهم أرستقراطية دينية سداها المال ولحمتها السبق في الاسلام وصحبة الرسول ، وكثر أشياع كل منهم وأتباعه ، فلما حضرت وفود البلدان تعمل على خلع عثمان ، كان كل وفد حريصا على أن تسند الخلافة للصحابي الذي يعيش ببلدتهم ، فأهل البصرة يريدون الزبير ، وأهل الكوفة يريدون طلحة وهكذا (١) .

عمر والغنائم :

ومن اجتهاد عمر أيضا اقتراحه مسألة الخراج ، وقصة ذلك أن

---

(١) انظر تاريخ الاسلام السياسي للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٣٤٥ — ٣٤٦ .

المسلمين كانوا قد جروا حتى أوائل عهد عمر على أن ما يغنموه فى الحروب يقسم أخماسا ، فأربعة أخماسه توزع على الجند المنتصرين ، وأما الخمس الخامس فلولى الأمر ليوزعه على من شملتهم الآية الكريمة : « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسة وللرسول واذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » (١) • فلما فتح المسلمون أرض السواد بالعراق وأرادوا قسمها على هذا النحو ، خالفهم عمر ، واقترح أن تبقى الأرض فى يد زارعيها وأن يدفعوا عنها خراجا لبيت المال ، وفى ذلك ما يحبب الأهلين فى الاسلام ، إذ سيبقى كل فى أرضه ، وسيدفع خراجا عنها أقل مما كان يدفعه عنها قبل الاسلام ، ثم ان ذلك سيضمن دخلا منتظما لبيت المال الذى أصبح مسئولا عن دفع مرتبات منتظمة للجنود والقضاة وغيرهم •

ولا شك أن رأى عمر كان صدمة للجنود ، بل كان مخالفا لكل ما فى أذهان الناس ، ولكن عمر كان مؤمنا بهذا الرأى فوقف قويا يشرحه ويدافع عنه • دون أن يستعمل نفوذه أو سلطانه لفرضه على المسلمين ، ومال المسلمون الى هذا الرأى يوما بعد يوم ، وكان فى مقدمة من مال إليه عثمان وعلى وطلحة ، ثم أرسل عمر الى عشرة من أشراف الأنصار فجاءوا إليه فقال لهم : إنى لم أزعجكم الا لتشتركوا معى فيما حملت من أموركم ، فانى واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون بالحق ، خالفنى من خالفنى ووافقنى من وافقنى ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الرأى لأنه هو هواى ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده فإنى ما أريد به الا الحق ، قالوا : نسمع يا أمير المؤمنين • وشرح لهم عمر رأيه على نحو ما أوجزناه آنفا فأجابوا : الرأى رأيك فنعم ما قلت وما رأيت (٢) •

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٤١ .
(٢) اقرأ قصة الخوارج فى المراجع الآتية :
أ — الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣١ .
ب — يحيى بن آدم : الخراج ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٨ .
جـ — أبو يوسف : الخراج ٢٩ — ٣٠ .
د — الاقتصاد فى الفكر الاسلامى للمؤلف .

كم كان عمر موفقا فى هذا العمل الاجتماعى العظيم ، وكم كان عميق الفكر ، ينظر للمسلم ولغير المسلم ، وينظر للحاضر والمستقبل ، برأى حصيف وإيمان وطيد ، بل بالهام لم يحظ به إلا القليلون .

عمر والمؤلفة قلوبهم :

وتوزيع الزكاة يجرى تبعاً للآية الكريمة « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » (١) . وكان من المؤلفة قلوبهم فى صدر الاسلام جماعة كان الرسول يعطيهم من الزكاة ليتألفهم وليساعد على تثبيت الايمان فى قلوبهم ، ومن هؤلاء أبو سفيان وعُيَيْنَة بن حصن والأقرع بن حابس ، وهم من أصحاب النفوذ فى الجزيرة العربية ، وقد كان الرسول يعطيهم بسخاء وكذلك أعطاهم أبو بكر ، فلما جاء عمر حضر اليه عيينة والأقرع ظانين أنه سيسير على نهج الرسول وأبى بكر فى هذا الأمر ، ولكن عمر تدبر الأمر وواجههما بقوله « إن الله أعز الاسلام وأغنى عنكم فان ثبتّم عليه والا فبيننا وبينكم السيف » .

وهكذا وضع عمر هؤلاء الناس على قدم المساواة مع باقى المسلمين ، فعليهم أن يعملوا كما يعمل الناس ، لا أن يعيشوا عالة على سواهم ، ولا أن يأخذوا نصيبا أحرى به أن يدفع للفقراء والمساكين ، ومنذ ذلك الحين اتجه الفقهاء الى إعطاء المؤلفة قلوبهم اذا كانوا حديثى عهد الاسلام ، ليستطيعوا أن ينظموا أمورهم ويرتبوا شئونهم ، وبعد ذلك يقطع عنهم هذا العطاء .

عمر والضرورة :

ومن اجتهاد عمر تطبيقه لمبدأ الضرورة فى كثير من الأحداث الهامة ، فقد عرضت عليه قضية امرأة زنت وأقرت بالزنا ، ولكنها عندما سئلت

(١) سورة التوبة : الآية ٦٠ .

عن سبب ذلك أجابت بأن السبب هو حاجتها الشديدة إلى ماء يروى ظمأ كانت تعانيه ، وقد أبى صاحب الماء أن يمنحها شربة حتى تسلم له نفسها . فرفضت حتى اشتد بها العطش وخافت الهلاك فقبلت ، وقد استشار عمر الصحابة فى هذا الأمر ، فقال على : إنها مضطرة ، ويأخذ عمر بهذا الرأى ولم يوقع عليها الحد .

وسرق غلمان لحاطب بن أبى بلتعة ناقة لرجل من مُزَينَة ، فأتى بهم الى عمر فأقروا ، فاستدعى الخليفة عبد الرحمن بن حاطب ، وقال له : إنكم تستعملون هؤلاء الغلمان وتجيعونهم حتى أن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حل له ، وأيم الله اذا لم أقطع أيديهم لأغرمنك غرامة توجعك . ثم قال : يا مُزَنى بكم أريدَت منك ناقتك ؟ .

قال : بأربعمائة .

قال عمر لعبد الرحمن بن حاطب : أعطه ثمانمائة :

وأعفى الغلمان من الحد لأن الضرورة هى التى دفعتهم للسرقة .

مجتمع متعاطف

حدثت فى عهد عمر حادثة جسيمة ، أو قل أحداث جسام ، وثيقة الصلة بموضوعنا ، تلك هى المجاعة القاسيه ، وما جرته من أوبئة فتاكة ، وموت ذريع ، وقد استمرت هذه الأحداث عدة شهور ، جاوزت العام ، ولكنها كانت وثيقة الدلالة على تعاطف هذا المجتمع ، الذى تكوّن منه جسم اذا شكا منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

تسعة شهور تبتدىء من أواخر السنة السابعة عشرة للهجرة لم يهطل المطر خلالها فى شبه الجزيرة ، ثم تحركت الطبقات البركانية بداخل الأرض فاحترق سطحها وما عليه من نبات ، وكثر الرماد الناعم الذى تحمله الرياح حتى سمى هذا العام عام الرمادة .

والجزيرة العربية تعيش على المطر ، انه يهطل فيشرب الناس ويزرعون ويحصدون ، وترعى ماشيتهم فتربى اللحم والصوف وتدر اللبن . فاذا توقف المطر وطال توقفه جف الزرع والضرع ، وعم الجوع والبلاء ، وهلكت الماشية أو أصبحت عجفاء هزيلة ، وهذا ما حصل فى هذا العام ، فان الماء نضب ، ونضب معين الرزق ، وجفت الماشية ، حتى أصبح العربى يذبح الماشية ثم يعافها لقبحها وهزالها .

وقد شملت هذه البلوى الحضر والبادية فى الجزيرة العربية . وهرع أهل البادية الى المدينة حيث يعيش الخليفة يطلبون اليه أن يدبر أمرهم ، ويلتمسون عند أهل الحضر شيئا مما تعودوا أن يختزنوه .

وأحس عمر بجوع الناس وحرمانهم فحلف ألا يذوق لحما ولا سمنا حتى يحيا الناس ، ووضع دستوره العادل « كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يمسني ما يمسهم » قال عياض : رأيت عمر عام الرّمادة ، وهو أسود قد تغير لونه من الحرمان وأكل الزيت . وقال يزيد بن أسلم : لو لم يرفع الله المَحْلَ عام الرمادة لظننا عمر يموت هما بأمر المسلمين .

وكتب عمر الى الولاة فى الشام وفلسطين والعراق ومصر يستنجدهم ويطلب منهم العون وكانت عبارته لهم قصيرة عميقة التأثير : « سلام عليك ، أما بعد ، أفترانى هالكا ومن قبلى . وتعيش أنت ومن قبلك . فياغوثاه ! يا غوثاه ! يا غوثاه ! » (١) لم يُصْدِر عمر أوامر . وكل ما فعله هو هذه المقارنة التى تُقَرِّرُ ضرورة التعاون فى السراء والضراء ، وأن من العدل أن يقتسم الناس الخير والشر ، وليس من الاسلام أن يجوع ناس ويشبع آخرون أو يتخمون .

وسارع المسلمون فى كل مكان يلبون دعوة اخوانهم فى الجزيرة العربية ، وانهال العطاء من كل جانب بكثير من السخاء والكرم وكان أبو

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٨ ، والمقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٤١ .

عبيدة بن الجراح أسرع الأمراء استجابة لنداء عمر ، فقدم من حمص فى أربعة آلاف راحلة محملة طعاما ، وكتب عمرو بن العاص للخليفة يقول : أما بعد ، فيالبيك ثم يالبيك ، قد بعثت اليك بعير أولها عندك وآخرها عندى .... (١) ، وبعث معاوية ثلاثة آلاف بعير من الشام ، وبعث سعد بن أبى وقاص ألف بعير من العراق تحمل الدقيق ، هذا عدا الأكسية الكثيرة التى أرسلها هؤلاء ، وكان عمر يرسل مَنْ يستقبل العير ويميل بها الى المحتاجين ، وكان حريصا على أن يسد خلة الناس ويزيل عنهم الجوع ، فكان يقولَ لكل من مندوبيه : أما ما لقيتَ من الطعام فمِلْ به الى أهل البادية ، فأما الظروف فاجعلها لحفاً يلبسونها ، وأما الإبل فانحرها لهم يأكلون من لحومها ويخزنون من ودكها . ولا ترض أن يقولوا ننتظر بها الحيا ، وأما الدقيق فيصنعون ويحرزون حتى يأتى أمر الله بالفرج .

وكان عمر يُعِدُّ الطعام فى بيته ويقدمه للوافدين من البادية وغيرهم ممن ليست لهم بيوت بالمدينة ، وقد بلغ من طعموا على موائده ذات ليلة عددا هائلا ، أما المرضى والضعفاء فكان يرسل لهم طعامهم حيث هم ، هذا بخلاف الأسر بالمدينة التى كانت تأخذ الدقيق والأدم وتتولى الطبخ بنفسها .

وضع عمر دستور التعاون الذى لا نعتقد أن المدنيّة فى أسمى مراحلها تستطيع أن تصل اليه قال : لو لم أجد للناس ما يسعهم الا أن أدْخِلَ على أهل كل بيت عدّتهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم حتى يأتى الله بالحيا فعلت ، فانهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم .

وما أن انتهى هذا القحط وهبط المطر حتى روع المسلمين حادث آخر ليس أقلّ خطراً من المجاعة والجدب ، وذلكَ هو الوباء الذى انتشر فى أرض

---

(١) المرجعان السابقان .

الشام وانتقل منها إلى العراق ، وقد حصد هذا الوباء عددا كبيرا من المسلمين . وكان يصيب الرجل فيسقط سريعا ، وكان أبو عبيدة بن الجراح على جند الشام فى ذلك الحين حيث انتشر الوباء واستفحل خطره . وأبو عبيدة حبيب الى نفس عمر ، وهو أمين هذه الأمة كما لقبه الرسول ، وكان عمر يفكر فى أن يستخلف أبا عبيدة بعده ، ومن أجل هذا فكر فى إبعاده عن الشام وما فيه من وباء وموت .

ولكن عمر كان يدرك أن أبا عبيدة يحرص على أن يبقى مع جنده يناله ما ينالهم أو تحميه عين الله ، ولذلك نجد عمر لا يكتب لأبى عبيدة يعلن له ما يسرّ بشأنه ، بل يكتفى بأن يكتب له : « أما بعد فإنى قد عرَضَتْ لى اليك حاجة أريد أن أشافهك فيها ، فعزمت عليك اذا نظرت فى كتابى هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل إلى » .

ولكن أبا عبيدة أدرك ما أراده عمر ، وعزّ عليه أن يخلى جنده فى منطقة الخطر ويَفِرّ بنفسه ، فكتب الى عمر يقول : « انى قد عرفت حاجتك الىّ ، وانى فى جند من المسلمين لا أجد بنفسى رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضى الله فىّ وفيهم أمره وقضاءه ، فحللنى من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعنى فى جندى » وقرأ عمر هذا الكتاب فبكى ، فسأله من معه : هل مات أبو عبيدة ؟ فأجاب : لا وكأن قد . ومات أبو عبيدة بعد ذلك فى وسط الوبـاء (١) .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٢٠١ ، والكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ٢٢٥ .

غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى

فى أكثر الأقطار الاسلامية يعيش عدد كبير من غير المسلمين ، فعلى مــر التاريخ يوجـــد مســيحيون ويهــود فى مصر ، وإندونيــسيا ، والعــراق ، والمغرب ، وغيرها ، كيف عــاش هؤلاء فى المــاضى وكيف يعيشـــون الآن ؟

وفى مقابل ذلك عاش المسلمون أقلية فى بعض البلاد ، أو فى بلاد حكوماتها غير اسلامية ، كما عاشوا فى الأندلس بعد سقوط الحكومــات الاسلامية ، وكما عاشوا فى فلسطين وقت انتصار الصليبيين ، وكما عاشوا فى الهند حتى عهد قريب ، وكما يعيشون فى إسرائيل الآن • كيف عاش المسلمون فى تلك المجتمعات غير الاسلامية ، وكيف يعيشون ؟

الاجابة عن هذين السؤالين واضحة ، نراها فى الواقع الذى نعيش فيه ، ونقرؤها عن الماضى فيما دونته أدق المصادر العربية والأجنبية • تعال بنا نسجل ما شاهدناه وما نشاهده فى عهدنا الحاضر ، ثم نعود فنرى ما دونه المؤرخون عن أحداث الماضى :

ففى العهد الحاضر نرى غــير المسلمين فى المجتمعات الاســلامية يستمتعون بالحقوق الواسعة التى كفلها لهم الاسلام ، وينعمون بالتعاون والود وطيب العشرة التى اشتهر بها المسلمون • ونطوف العالم الاسلامى فهيهات أن نرى شكاة من مسيحى أو يهودى ضد المواطنين المسلمين ، بل كثيرا ما نرى الثروات الضخمة والمتاجر الكبيرة يملكها يهود أو مسيحيون يعيشون فى ظل حكومات إسلامية •

وفى العهد الحاضر أيضا ، رأينا — فيما يقابل ذلك — المسلمين الذين يعيشون تحت سلطات حكومات غير اسلامية يعانون ألوانا من الآلام والقسوة والحرمان والاضطهاد ، انهم هكــذا يعانون فى اسرائيل • حتى هجروا ديارهم ثم لم يسمح لهم بالعودة اليها ، وهكذا يعيشـــون فى الفلبين

مهددين بالابادة ، وهم كذلك عانوا فى الهند قبل التقسيم حتى اضطروا تحت ضغط الوحشية والبربرية أن يستقلوا بقطعة من أرض الهند أطلقوا عليها الباكستان .

والماضى صورة تطابق الحاضر فى الحالتين : **فقد لقى المسلمون من الحكومات غير الاسلامية صنوف الاضطهاد والتنكيل** ، ويحدثنا غوستاف لوبون (١) عن ضرب من ضروب القسوة والبربرية التى كانت طابع حكم الصليبيين فى فلسطين فيقول : لم يكتف قومنا الصليبيون الأتقياء بضروب العسف والتدمير والتنكيل التى اتبعوها ، فعقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على ابادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود الذين كان عددهم ٦٠ ألف ، فأفنوهم عن آخرهم فى ثمانية أيام ، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولدا ولا شيخا . ويقول غليوم الصورى أن الصليبيين كانوا من السفهاء الفاسدين والملاحدة الفاسقين ، ولو أراد كاتب أن يصف رذائلهم الوحشية لخرج من طور المؤرخ ليدخل فى طور القادح الهاجى .

أما نتيجة انتصار المسيحيين بالأندلس على المسلمين فيحدثنا عنها الواقع الذى يرينا أنه ليس فى أسبانيا الآن مسلم واحد ، لقد ألقوا بالمسلمين فى قاع البحر أو أسالوا دماءهم وأزهقوا أرواحهم ، او ارغموهم إرغاماً على ترك الاسلام والدخول فى دينهم فقد نشر فى فبراير سنة ١٥٠٢ أمر بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) من إشبيلية وما حولها إذا لم يقبلوا التعميد ، وعليهم أن يغادروا أسبانيا قبل شهر أبريل وألا يصحبوا معهم ذهبا ولا فضة ، وألا يذهبوا فى طريق يقودهم الى أرض اسلامية والنتيجة التى جاءت أثرا لهذه الشروط موت الجميع ودمار الجميع (٢) .

وهكذا ندرك فى يسر وسهولة أن المسلمين لقوا فى المجتمعات غير الاسلامية ألوانا من الاضطهاد والابادة ، وكان الهدف الذى سنعت اليه

---

(١) حضارة العرب ص ١٩٤ .

(٢) اقرأ الجزء الرابع من موسوعة « التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » للمؤلف ص ١٠٦ .

هذه المجتمعات هو إفناء الاسلام وإرغام ذويه على الارتداد عنه ، فإذا تمسك بعض المسلمين بدينهم أسلموهم الى الدمار والفناء .

أما غير المسلمين فى المجتمعات الإسلامية خلال العهود الماضية فقد شهد التاريخ أنهم نعموا فى ظل الاسلام بالرخاء والأمن والسلامة ، فقد رسم القرآن الكريم وأحاديث الرسول الطريق القويم للمسلمين فى معاملة غير أتباع ديانتهم ، وسار السلف الصالح فى ضوء ذلك ، وانحدر هذا الاتجاه خلال عصور التاريخ حتى أثنى عليه وامتدحه الكتاب المسيحيون أنفسهم ، تعال بنا نقتبس من هذا الضوء بعضا منه دليلا على ما أوردناه هنا .

يحث الله تعالى المسلمين أن يحسنوا معاملة غير المسلمين وأن يكونوا معهم بررة وعدولا ، قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين . ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين (١) » .

ويبيح الاسلام للمسلمين أن يؤاكلوا غير المسلمين وأن يصاهروهم ، ولا شك أن المصاهرة تخلق امتزاجا بين هؤلاء وأولئك ، فأخوال الأولاد سيصبحون من أهل الكتاب ، وفى هذا رباط كبير أباحه الله بين المسلمين وأهل الكتاب مما يدل على أن الاسلام دين الانسانية ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » (٢) .

---

(١) سورة الممتحنة : الآية الثامنة .

(٢) سورة المائدة الآية الخامسة . ويتساءل بعض المفكرين : لماذا يجوز للمسلم أن يتزوج كتابية (مسيحية أو يهودية) ، ولا يجوز للكتابى أن يتزوج مسلمة ؟

والجواب سهل هو :

أولا — أولاد الكتابية من مسلم سيكونون مسلمين بحكم الشرع الاسلامى =

وقد يدخل الابن الاسلام ويظل الأب على غير الاسلام ، وهنا يدعو الاسلام الابن أن يظل طيب الصحبة لأبيه مع اختلاف الدين ، قال تعالى : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا » (١) .

ويوضح القرآن للمسلمين أدب الجدال بينهم وبين أهل الكتاب ، ومن هذا الأدب أن يعلن المسلمون ايمانهم بأديان أهل الكتاب تقربا منهم ، وتضييقا للهوة بينهم ، قال تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » (٢)

ومن تسامح الاسلام مع أهل الكتاب الذين يعيشون فى بلاد إسلامية أنه أباح لهم ما أباحته لهم أديانهم وإن حرمها الاسلام على المسلمين ، فليس هناك من حرج على أهل الكتاب أن يشربوا الخمر أو يأكلوا لحم الخنزير ، وليس للمسلمين أن يمنعوهم من ذلك .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم مثلا أعلى فى معاملة أهل الكتاب ، فقد روى أنه كان يحضر ولائمهم ، ويعود مرضاهم ، ويشيع جنازاتهم ، ويزورهم ويكرمهم ، حتى روى أنه لما زاره وفد نصارى نجران فرش

=

وبحكم سلطان الأب ، أما اولاد الأم المسلمة من الأب الكتابى (لو امكن الزواج) فيحتمل أو يكثر ان يرغمهم الأب على اتباع دينه ؛ ومعنى هذا أن تلد الأم المسلمة أولادا يكونون غير مسلمين ، وهذا ما لا يرضاه الفكر الاسلامى .

ثانيا — يعترف المسلم بنبوة موسى وعيسى ، ويكن لهما الاحترام ، فلن تجد الكتابية فى رحابه ما يؤلمها فى دينها ، ولكن الكتابى الذى لا يعترف بالاسلام ولا بالقرآن ولا بمحمد يحتمل أو يكثر أن يهاجم هذه القيم ، أو يمنع زوجته من أداء واجباتها الدينية ، ولهذا منع هذا الزواج .

على أن كثيرين من المجتهدين يمنعون تزوج المسلم من كتابية اذا خيفت على الأطفال أو كان فى هذا الزواج ما يقوى شوكة أعداء الاسلام عليه وقد شرحنا ذلك بتفصيل كاف فى كتاب « الحياة الاجتماعية فى التفكير الاسلامى » .

(١) سورة لقمان الآية ١٥ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٦ .

لهم عباءته وأجلسهم عليها ، وروى أنه كان يقترض من أهل الكتاب نقودا ويرهن عندهم أمتعته ، حتى أنه توفى ودرعه مرهون عند بعض يهود المدينة فى دين عليه ، وكان يفعل ذلك لا عجزا من أصحابه عن اقراضه إذ كان منهم الموسرون الذين هم مستعدون لأن يضحوا بأنفسهم وأموالهم فى مرضاة نبيهم ، بل كان يفعل ذلك تعليما للمسلمين وإرشاداً (١) .

ويروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله : من آذى ذمياً فليس منى . وكان حرص المسلمين على الوفاء لأهل الذمة حقيقة مشهورة معروفة ، حتى أنه يروى أن واصلا بن عطاء زعيم المعتزلة قابل مرة عصابة من الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين الذين يخالفونهم فى العقيدة ، ورأى واصل أن الطريق لنجاته هو وصحبه من موت محقق ، أن يدعى هو وأصحابه أنهم ذميون وهكذا فعل وهكذا نجا (٢) .

ومن الطبيعى أن السلف الصالح ساروا فى معاملة أهل الكتاب سيرة القرآن وسيرة الرسول ، ولنأخذ عمر بن الخطاب نموذجا للسلف الصالح ، ففى عهده اتسع العالم الاسلامى وضم آلافاً من غير المسلمين ، وفيما يلى سطور من نور تبين جانبا من أدب الاسلام وخلفاء الاسلام :

تحقق النصر لجيوش المسلمين التى تحاربت فى إيلياء (بيت المقدس) ولكن عمر كان حريصا على السلم بمقدار حرصه على النصر . ولذلك نجده يرحل بنفسه الى هذه المدينة ، ويكتب بينه وبين المسيحيين بها عهدا جاء فيه :

« ... هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، سقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من

---

(١) عفيف طبارة : روح الدين الاسلامى ص ١٩٩ .
(٢) المبرد : الكامل فى اللغة والأدب جـ ٢ ص ٢٥٤ .

خيرها .. ولا من صليبهم ولا من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود ... » (١) .

وكان عمر لا يكتفى بهذه العهود يقطعها لهم عليه وعلى قومه ، بل كان يشفعها بوصاياه المتكررة الى ولاته أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمة ، وأن يوفوا لهم بعهدهم ويخففوا عنهم ، والا يكلفوهم فوق طاقتهم ، وقد سجل ذلك فى وصيته قبل موته .

ومن الناحية العملية نجد أن عمر وفى بما وعد بل زاد عليه عطفا وتسامحا وحسن معاملة ، فبينما هو فى كنيسة القيامة اذ دخل وقت الصلاة ، فخرج عمر وصلى خارجها ، وقال للبطريرك : لو صليت داخل الكنيسة لخفت أن يقول المسلمون من بعدى : هذا مُصَلَّى عمر ، وأن يحاولوا أن يقيموا فى هذا المكان مسجدا .

الزكاة للفقراء من المسلمين وغير المسلمين :

ويروى أنه رأى شيخا يهوديا يسأل الناس ، فسأله عمر : ما الذى حملك على السؤال ؟ فأجاب الرجل : الحاجة والسن . فأخذ عمر بيده وذهب الى منزله حيث أعطاه عطاء سخيا ، ثم أرسله الى خازن بيت المال مع رسالة قال فيها : انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من مساكين أهل الكتاب (٢) .

ومر وهو فى أرض الشام بقوم مجذومين من النصارى ، فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت بانتظام (٣) .

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ١٥٩ .
(٢) أبو يوسف ، الخراج ص ١٥٠ .
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٥ .

وبلغ من حرصه على الرحمة بأهل الكتاب أن عزل واليا أحس أنه ضاق ذرعا ببعض أهل الكتاب فى ولايته ، فخاف عمر أن يجور عليهم ؛ روى أن نصارى تغلب كانوا يناوئون واليهم الوليد بن عقبة ، فنفد صبر الوليد مما كانوا يعملون ، فقال شعرا يتوعدهم ويهددهم ، وسمع عمر بعض هذا الشعر فخشى أن يقسو الوليد عليهم ، وأن يبطش بهم ، فعزله عن ولايته وعين أميرا غيره .

الجزيـــة :

وكان أهل الكتاب يدفعون الجزية للمسلمين ، يدفعها منهم القادر على حمل السلاح ، ولا تدفعها المرأة ولا الصبى ، ولا الشيخ ولا الأعمى ... والجزية مقدار ضئيل من المال يتفاوت بتفاوت حالة الذمى المالية ، وأقصاه ٤٨ درهما فى العـــام ويدفعها الأغنياء ، وهى حوالى جنيهين ، وهى عـــلى المتوسطين ٢٤ درهما ، وعلى العمال والصناع ١٢ درهما .

وتدفع الجزية لسببين :

١ — يستمتع أهل الكتاب بالمرافق العامة مع المسلمين ، كالقضاء والشرطة وغيرهما ، والمرافق العامة تحتاج الى نفقات يدفع المســـلمون قسطها الأكبر ويسهم أهل الكتاب بالجزء فى تكاليف هذه المرافق .

٢ — لا يكلف القادرون من أهل الكتاب أن يحملوا السلاح ويدافعوا عن البلاد بل يقوم بذلك المسلمون ، ولذلك يدفع أهل الكتاب هذه الضريبة نظير اعفائهم من هذا الواجب الكبير . ويسجل التـــاريخ أن بعض أهل الكتاب قاموا بنصيبهم فى الدفاع فى بعض الأحوال فسقطت عنهم الجزية وكان ذلك فى عهد عمر أيضا (١) .

---

(١) اقرأ « الاقتصاد فى الفكر الاسلامى » للمؤلف ، وهناك مســـــألة واضحة ولكن لا مانع من ذكرها دفعا لأية شبهة عند بعض القراء ، وهى انه بناء على الدراسة السابقة لا يلزم الاسلام أهل الكتاب فى العصر الحاضر ان يدفعوا الجزية ؛ لأنهم يدفعون الضرائب التى يدفعها المسلمون ويحملـــون السلاح فى الجيوش مع المسلمين .

ويروى البلاذرى (١) أن المسلمين عندما دخلوا حمص أخذوا الجزية من أهل الكتاب الذين لم يريدوا أن يدخلوا الاسلام ، ثم عرف المسلمون أن الروم أعدوا جيشا كبيرا لمهاجمة المسلمين ، فأدرك المسلمون أنهم قد لا يقوون على الدفاع عن أهل حمص ، وقد يضطرون للانسحاب ، فأعادوا إلى أهل حمص ما أخذوه منهم وقالوا لهم : شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم ، فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : إن ولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع جندكم . ونهضوا بذلك ، فسقطت الجزية عنهم .

والذى نريد أن نسجله هنا أنه مع بساطة هذه الجزية ، ومع سياسة المعاملة الكريمة التى اتبعها عمر ورعاها ، دخل كثير من أهل الكتاب فى عهده دين الاسلام أفواجا ، لا هربا من الجزية ، ولا تحاشيا لسوء معاملة وانما اعجابا بعدل الاسلام وخلق خليفة المسلمين .

وسار المسلمون فى مختلف عصورهم سيرة عمر بن الخطاب ، سار عليها الخلفاء الأمويون عندما انتصروا فى الهند والأندلس ، وسار عليها نور الدين زنكى فى انتصاراته ضد الصليبيين ، وسار عليها صلاح الدين الأيوبى والظاهر بيبرس والأشرف خليل ، هؤلاء الأبطال الذين قضوا على حكم الصليبيين فى فلسطين ولكن دون تنكيل ودون وحشية ، ونختم هـذا البحث بنماذج من أقوال بعض الكتاب المسيحيين يعترفون فيها بما ناله المسيحيون فى ظل الاسلام من سلام وعون :

يقول عيشو يابه أحد البطاركة المسيحيين : إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون ، انهم ليسوا بأعداء للنصرانية ، بل يمتدحون ملتنا ويوقرون قسيسينا ، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا (٢) .

---

(١) فتوح البلدان ص ١٤٣ .

(٢) Thomas of Marga : Books of Governors Vol. 2, p. 155.

نقلا من « روح الدين الاسلامى » ص ٢٠١ .

ويقول آدم متز (١) إن ما يميز المملكة الاسلامية عن أوربا النصرانية في القرون الوسطى أن الأولى يسكنها عدد كبير من معتنقي الأديان الأخرى غير الاسلام ، وليست كذلك الثانية ، وإن الكنائس والبِيَع ظلت في المملكة الاسلامية كأنها خارجة عن سلطان الحكومة ، أو كأنها لا تكون جزءا من المملكة ، معتمدة في ذلك على العهود وما أكسبتهم من حقوق . وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين ، فتسبب عن ذلك خلق جو من التسامح لم تعرفه أوربا في القرون الوسطى .

وبعـــد

هذه هي الأسس التي تكوّن عليها المجتمع الاسلامي ، والنـاظر اليها يدرك أنها شاملة لكل حاجات المجتمع ، فهي تنظم علاقة الانسـان بربه ، وتنظم علاقة الانسان بالانسان وعلاقته بالمجتمع ، ومع هذه القوانين الحاسمة التي تنظم هذه العلاقات ، تبرز المؤاخاة ، والقدوة الحسنة ، ونفقة التطوع لتضـيف المندوب الى الواجب ، ولتوضح أن الاسـلام ليس فقط دين قوانين ، ولكن بالاضافة الى ذلك دينُ حبٍ وسماحة .

ونما المجتمع الاسلامي في عهد أبي بكر وعمر ، وجدّت بالتوسـع العظيم وقبل التوسع مشكلات جديدة ، ولكن روح الاسـلام وحكمة الخليفتين العظيمين ليبتكرا في حدود الاطار الاسلامي ما احتاجه المجتمع الجـديد .

ولو سارت الأمور على هذه النحو في العصور التالية لظل المجتمع الاسلامي قمة بـين المجتمعات في جميع الشئون ، ولكن أشياء حدثت فأحدثت التراجع في مسـيرة هذا المجتمع ، وعن هذه الأشياء سـيكون حديثنا في الباب التالي :

---

(1) An Introduction to the Islamic civilization. by Khuda Bakhsh.

الباب الرابع

تدهور العالم الاسلامي وأسبابه

اصطلحت عوامل متعددة على النيل من الاسلام والمسلمين طيلة قرون طويلة من التاريخ ، وسنتحدث عن هذه العوامل فى هذا الفصل ، ولكنى أميل الى أن أبادر إلى تسجيل ملاحظة احس بأنها جديرة بالابراز فى هذا المكـــان •

اشتدت الأزمات على المسلمين نابعة من الداخل أو واردة من الخارج ، وجاءت عهود كثيرة لم يبق فى أثنائها بلد اسلامى واحد الا وهو يئن ويعانى قسوة هذه الأزمات ، ولكن الاسلام ظل ينتشر ويمتد ظله من مكان الى مكان ، لقد استطاعت هذه العوامل أن تضعف المسلمين ، ولكنها عـــلى رغمها وقفت عاجزة أمام قوة الاسلام وتطوره وانتشاره •

الإسلام غلاّب :

وكانت هناك أديان أخرى وحركات دينية متعددة لها دعاة ومبشرون ، وكان هؤلاء الدعاة مؤيدين بالثقافة الواسعة ، وبالسلطان ، والنفوذ ، وبالمال والوعود ، ولكنهم جميعا وهنوا أمام انتشار الاسلام وامتداده على يد تاجر ضحل الثقافة ، أو داعية يدعو الناس للاسلام ، ولا يقدم لهم المال ولا الأمانى ، بل يأخذ منهم الهدايا ويتقبل العطايا •

أين نتائج الدعاية والتبشير فى السودان ؟ وأين نتائجها فى إندونيسيا ؟ وفى إفريقية ؟ وغيرها ؟ ثم كيف انتشر الاسلام وتسرب الى القلوب فى هذه البقاع وفى غيرها بجميع الدول والقارات ؟

يقول زويمر رئيس المبشرين المسيحيين : « إن المبشرين المنتشرين على ضفتى النيل ، وشرقى إفريقية وبلاد النيجر والكنغو ، يشكون مر الشكوى من سرعة انتشار الاسلام فى هذه الأنحاء ، وبالرغم من أن انتشاره فى الهند الهولندية (إندونيسيا الآن) قد لقى الموانع من جهود جمعيات التبشير الهولندية والألمانية فهـــو يتوطد ويثبت هناك » •

إننا معشر المؤرخين نتعب أنفسنا فى البحث عن أسباب انتشار الاسلام واضمحلال التبشير بالهندوكية والبوذية والمسيحية وغيرها ، ولو أنصفنا معشر المؤرخين لأرحنا أنفسنا من جهد التفكير ، وأبرزنا الجانب الروحى فى نفوسنا ، وقلنا بقوة وإيمان : إن الله وحده هو الذى حمى الاسلام وحرسه ، وهو الذى هيأ النفوس لاستقباله واعتناقه ، لأنه الدين الذى ارتضاه ، وقال عنه : « إن الدين عند الله الاسلام » (١) .

الإسلام ينتشر فى حالتى النصر والهزيمة :

وتدعونى هذه الملاحظة الى تدوين ملاحظة أخرى وثيقة الصلة بموضوعنا ، ولست أعرف أحداً من المؤرخين أبرزها أو تحدث عنها ، تلك هى نتائج الغزوات الحربية التى تمت فى عهد الرسول . ويقول أكثر المؤرخين أو كلهم إن النصر كان حليف المسلمين فى هذه الغزوات إلا فى غزوة أحد (٢) والذى أقرره ، نتيجة لدراسة قمت بها فى هذا الموضوع ، يعارض ما يميل له هؤلاء المؤرخون ، فانى أستطيع أن أسجل أن الله نصر المسلمين فى غزوة بدر وهم أذلة قال تعالى « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » (٣) وفيما عدا غزوة بدر عرف المسلمون مرارة الهزيمة أحيانا . ولم يحرزوا نصراً ذا بال أحياناً أخرى ، وإليك مقتطفات قصيرة عن أهم هذه الغزوات :

غزوة أحد :

اضطرب المسلمون ، واختل نظامهم حتى تعرضت حياة الرسول للخطر ، وجرح عليه السلام فى وجنته ، وكسرت رباعيته ، وشج فى رأسه ، واستشهد من المسلمين أكثر من سبعين . فيهم حمزة بن عبد المطلب عم الرسول وكثير من خيرة الصحابة .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٩ .

(٢) انظر تاريخ الاسلام السياسى للدكتور حسن ابراهيم حسن ج ١ ص ١٤٧ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٢٣ .

غزوة بئر معونة :

كان المسلمون فى هذه الغزوة من خيرة القراء والحفاظ (١) ، وكان الرسول قد اختارهم برياسة المنذر بن عمرو ليدعوا أهل نجد لدخول الاسلام ، وكان أهل نجد قساة غلاظا • فهبوا يحاربون هذا الوفد الذى كان أعضاؤه لا يتجاوزون الأربعين ، ودارت معركة فنى فيها هؤلاء المسلمون جميعاً •

غزوة الأحزاب :

لقد صور القرآن هذه المعركة أجمل تصوير يغنينا عن العودة إلى كتب التاريخ ، قال الله تعالى : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا ، واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبى ، يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا » (٢) •

صلح الحديبية :

فى العام السادس للهجرة خرج المسلمون يقصدون العمرة ، فمنعتهم قريش من دخول مكة ، وجرت مفاوضات بين الطرفين أسفرت عن اتفاقية هاك بعض ما جاء فيها :

١ — أن يرجع الرسول هذا العام من غير عمرة ، وتكون عمرته فى العام القادم •

٢ — أن يَرُدَّ الرسول من يأتيه من قريش مسلما بدون إذن وليه •

٣ — لا تلتزم قريش برد من يأتى إليها من عند محمد •

---

(١) انظر خبر هذه الغزوة فى تهذيب الأسماء للنووى ج ١ ص ٣٦ •
(٢) سورة الأحزاب الآيات ١٠ — ١٣ •

وقد لاحظ كثير من المسلمين ما فى هذه الشروط من ذلة ومهانة ، وظهر الغضب عليهم ، يقول الطبرى (١) : «بعد أن فرغ الرسول من صلح الحديبية قال لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا ، فلم يقم منهم رجل ، حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد ، قام فدخل على زوجته أم سلمة فذكر لها ما لقى من الناس ، وما كان من مخالفتهم أمره . فقالت : يا نبى الله ، اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك فقام فخرج فنحر بدنته ودعا حالقه فحلقه دون أن يكلم أحدا منهم ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً .

غزوة مؤتة :

وقعت هذه الغزوة فى السنة الثامنة للهجرة ، وهى أول معركة حامية وقعت بين المسلمين والروم ، وكان جيش المسلمين صغيرا جدا إذا قيس بجيش الروم ، كان ثلاثة آلاف رجل واجهوا فى مؤتة مائة ألف فى رواية ومائتى ألف فى رواية أخرى ، فلا عجب إذاً أن حاقت الهزيمة بجيش المسلمين ، وسقط بعضهم قتلى ، وكان من بين القتلى قائد الجيش زيد ابن حارثة ، فحمل الراية بعده جعفر بن أبى طالب وقاتل حتى قتل ، فحملها بعده عبد الله بن رواحة وقاتل حتى قتل ، وتفرقت صفوف المسلمين وتضعضعت قوتهم المعنوية ، وتولى قيادتهم خالد بن الوليد ولكنه لم يحارب بهم ، وانما احتال لينسحب بمن بقى من الجيش دون أن يعرض جيش المسلمين وهو فى هذه الحالة الى صدام لا تؤمن عواقبه ، وقد غضب المسلمون بالمدينة من انسحاب هذا الجيش وقابلوه هاتفين فى سخرية : يافرار . فررتم فى سبيل الله .

غزوة حنين :

سجل القرآن حالة المسلمين فى مطلع المعركة وصور هزيمتهم تصويراً

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ٨٠ .

يغنينا عن العودة الى كتب التاريخ ، قال تعالى : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » (١) .

غزوة تبوك :

نلجأ الى القرآن الكريم أيضا ليصور لنا حالة المسلمين فى هذه الغزوة قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ، ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله إثاقلتم إلى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل » (٢) وقال : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم (٣) .

هذه نماذج واضحة الدلالة على أن سيوف المسلمين لم تحقق نصراً فيما قاموا به من حروب (٤) ، ومع أن سيوف المسلمين لم يكن لها كبير غناء فقد انتشر الاسلام وعم جزيرة العرب فى حياة الرسول ، لقد نعم المسلمون بالنصر المبين فى بعض المعارك ، وأيدتهم قوة الله فى بعضها فأفلتوا من الهزيمة بعد أن أوشكت أن تقع ، وتمت عليهم الهزيمة أحيانا ولكن الاسلام كان يسير فى كل حال ، وكان يتقدم فى ساعتى اليسر والعسر لقد حفظ الله دينه ورعاه ، حفظه يوم كان محمد فى مكة مغلوبا على أمره هو والضعفاء من أتباعه ، حفظه يوم كان ياسر يعذب عذابا قضى عليه ، ويوم كان خباب بن الأرت يوثق ظهره بالرمضاء ، ويوم كان محمد وأبو بكر يضربان بقسوة عند البيت الحرام ، وفى هذه اللحظات حيث كان

---

(١) سورة التوبة : الآية ٢٥ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٣٨ .

(٣) سورة التوبة : الآية ١١٧ .

(٤) لقراءة تفاصيل كاملة عن الغزوات ونتائجها اقرأ الجزء الأول من موسوعة « التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » للمؤلف (الطبعة الثانية عشرة) .

المسلمون مستضعفين ، كان الاسلام ينمو ويمتد هنا وهناك ، وحارب المسلمون بعد الهجرة كما ذكرنا ، وانتصروا وانهزموا ولكن الاسلام استمر انتصاره دون أن توقفه هزيمة أو يدفعه فوز .

وانتصر المسلمون فى معاركهم ضد الفرس والروم (١) ، ولكن دخولهم هذه الأرض لم يكن السبب فى انتشار الاسلام ، فقد كانت هناك مندوحة مشروعة لأهل البلاد المفتوحة ليبقوا على أديانهم ويدفعوا الجزية ، متمتعين بالتسامح الواسع الذى ضمنه لهم الاسلام ، والذى عرف به حملة الاسلام فى أكثر عهوده ، وشهد به المستشرقون ، ولكن الفرس والسوريين والمصريين وغيرهم دخلوا الاسلام عن طواعية ورغبة ، عن طريق الدعوة التى قام بها العلماء من المسلمين الذين كانوا يبدءون نشاطهم بعد أن تضع الحروب أوزارها ، كما دخله العرب فى عهد الرسول يوم كانت سيوف المسلمين غير ذات غناء .

أيمكن بعد هذا أن يقال إن الاسلام انتشر بالسيف ؟ اللهم لا ، بل إن التاريخ يثبت لنا شيئا عجيبا ؛ يثبت أن كثيرا من الصليبيين الذين جاءوا إلى الشرق لمحو الاسلام دخلوا فيه طائعين ، يقول السير توماس الراهب « لقد اجتذبت الدعوة إلمحمدية الى أحضانها من الصليبيين عددا مذكورا حتى فى العهد الأول ، أى فى مطلع القرن الثانى عشر ، مما يلفت نظر من يطلع على سجلات الصليبيين .

ويقول السير جون ماندفيل : كان بعض المسيحيين يرتدون عن دينهم ويصيرون عرباً .

ويقول بعض مؤرخى النصارى : إن ستة من أمراء مملكة القدس

---

(١) حدثت بين الفرس والروم (أكبر قوتين فى العالم قبل الاسلام) حروب ظلت مئات السنين ، ولم تستطع أى منهما أن تحقق نصرا نهائيا على الأخرى وجاء الاسلام فقضى على الدولتين جميعا فى حوالى عشر سنوات : انها روح الاسلام التى غابت للأسف عن المسلمين .

استولى عليهم الشيطان ليلة معركة حطين : فأسلموا وانضموا الى صفوف الأعداء ، دون أن يقهروا من أحد على ذلك (١) .

ومثل ذلك حدث للمغول المتبربرين الذين دمروا الشرق الإسلامى ، وقتلوا الخليفة العباسى وأسرفوا فى إراقة دماء المسلمين وإزالة جميع معالم الحضارة الاسلامية ، ولكن سرعان ما اعتنقوا الاسلام وشملتهم مبادئه ، يقول الأستاذ أرنولد (٢) لا يعرف الاسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطبا أشد هولا من غزوات المغول ، فلقد انسابت جيوش جنكيزخان انسياب الثلوج من قمم الجبال ، واكتسحت فى طريقها العواصم الاسلامية ، وأتت على ما كان لها من مدنية وثقافية ، على أن الاسلام لم يلبث أن نهض من تحت أنقاض عظمته الأولى ، وأطلال مجده التالد ، واستطاع أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه .

كيف استطاع الاسلام أن ينتشر وأن ينتصر فى تاريخه الطويل ؟

الجواب سهل يسير هو أن الاسلام فاجأ العالم بمبادىء سامية رأى فيها الناس انقاذا للبشرية المعذبة ففى الوقت الذى كان فيه الملوك سادة أو آلهة ، وكانت الشعوب عبيدا ، ليس فقط بسبب قسوة الحاكم وجبروته ، بل بدافع داخلى من نفوس هذه الشعوب جعلهم يقنعون بالعبودية ويرون فى الحاكم الها له دم غير دمائهم ، ويتكون من طينة غير طينتهم ، فى هذا الوقت طلع محمد وأصحابه من بعده على الناس بمبدأ المساواة بين الحاكم والمحكوم والملك والسوقة .

وفى الوقت الذى كان الملوك يتمتعون بالثراء العريض يجمعونه من

---

(١) عن الحروب الصليبية اقرأ الجزء الخامس من موسوعة « التاريخ الإسلامى والحضارة الاسلامية » للمؤلف .

(٢) The Preaching of Islam pp. 218-219.

جهد الشعوب البائسة ، رأى الناس محمداً ورأوا أصحابه من بعده فقراء يرقعون ثيابهم ويخصفون نعالهم .

وفى الوقت الذى كانت أقوال الملوك وأفعالهم هى القانون ... العدالة ، اذ بالاسلام يأتى بقانونه السماوى فيخضع له العظيم والحقير (١) .

تلك بعض المبادىء أو بعض المفاجآت التى أدهشت العالم وجذبت الناس زرافات ووحدانا لهذا الدين الانسانى العظيم ، وعندما جذب الاسلام الناس اليه لم يدعهم فى حيرة من أمور دينهم ودنياهم بل أمدهم بأرقى نظم الحكم وأرقى نظم الاقتصاد ، ووضع أسمى الأسس لحياة اجتماعية صالحة ، كما أوضحنا ذلك فيما سبق من أحاديث .

فاذا استعرضنا أحوال المسلمين منذ عهد الاسلام الباكر حتى اليوم مارين بالغزوات ، فالحروب فى فارس والروم ، فهجمات الصليبيين والمغول ، فحملات المبشرين ، قادتنا كلها إلى نتيجة واحدة ، هى أن المسلمين كانوا يضعفون ويقوون ، ولكن الاسلام كان قويا على الحالتين ، وينهزمون وينتصرون ولكن الاسلام كان ينتصر دائما ، وأساس انتصاره هو أسسه ومبادئه ، فلا نزاع أن الهزائم التى لحقت بالمسلمين أكثر جدا مما أحرزوه من انتصارات ، لقد كثرت أخطاؤهم فتوالت هزائمهم ، أما الاسلام فلا خطأ منه ولا خطأ فيه . ولهذا لا ينى ركب ، ولا ينال منه .

فاذا قام المصلحون اليوم يطلبون الى المسلمين أن يهبوا من رقدتهم ، فهم يبغون الفوز للمسلمين ويحرصون على إسعادهم . أما الدين فله رب حماه ويحميه ، ورعاه ويرعاه .

---

(١) اقرأ موضوع « ختام عهد » فى نهاية الجزء الأول من موسوعة « التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » للمؤلف .

ولنعد بعد هذا التقديم الى الحديث عن الموضوع الذى عقدنا له هـ
الفصل ، وهو تدهور العالم الإسلامى وأسبابه •

وعندى أن هذا التدهور يرجع الى عوامل ثلاثة :

١ ــ أسباب داخلية •

٢ ــ أسباب خارجية •

٣ ــ أسباب دينية •

وسنبحث كلا من هذه العوامل على حدة :

أولا : العوامل الداخلية

التى أضعفت المجتمع الاسلامى

ان العوامل الداخلية التى أضعفت المجتمع الاسلامى كثيرة ومتنوعة وأهمهـا :

١ — ضعف الدعـاة المسـلمين فى القرون المتـأخرة ٠

٢ — اختفاء الأخلاق الاسـلامية فى القرون المتأخـرة ٠

٣ — انكماش الحضارة الاسلامية ٠

٤ — اطماع السلطة ٠

٥ — فساد بعض الحكام المسلمين وفساد أتباعهم من حين الى آخر ٠

٦ — الأتراك المماليك وحكمهم بالعالم الاسلامى ٠

٧ — الامبراطورية العثمانية : ما لها وما عليها ٠

٨ — الفرق والمذاهب والصراع بينهما ٠

٩ — أندية ومؤسسات تكيد للإسلام فى غفلة من المسلمين كالروتارى والليونز ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

وسنتحدث عن هذه العوامل بشىء من التفصيل فيما يلى :

١ — ضعف الدعاة المسلمين فى القرون المتأخرة

ربى الرسول صلوات الله عليه مجموعة من الدعاة كانوا قمماً فى هذا المجال ، أخذوا عن الرسول اتجاهاته وارشاداته ، واندفعوا ينشرون الاسلام بقوة لا تغلب ، وحققوا نجاحا عظيما دونه كل نجاح ، وكان فى قمتهم على بن أبى طالب ومصعب بن عمير وأبو ذر وأبو عبيدة بن الجراح وكثيرون من أمثالهم .

وتقهقرت أديان وعقائد أمام نشاط الاسلام ودعاته ، فعم الاسلام جزيرة العرب وشمل بلاد الشام ومصر والشمال الافريقى ، كما شمل بلاد الفرس وافغانستان وأجزاء واسعة من الهند .

ولم يكن فى هذه البلاد دعاة للأديان والعقائد المتراجعة ، أو كان هناك دعاة ولكنهم لم يستطيعوا أن يواجهوا دعاة العصر الاسلامى الأول ، الذين كانوا يرجحون بكفاءتهم وحماستهم كل قوى تواجههم .

ثم تغيرت الظروف للأسف ، وجاءت عصور كان الدعاة المسلمون خلالها قليلى الثقافة والحماسة ، أو قل كانوا موظفين يتطلعون إلى الأهداف المالية كغيرهم من الموظفين ، وربما انتقل الواحد منهم من وظيفة الداعية إلى وظيفة أخرى رآها أسهل أو أجلب لمال أو جاه .

وفى نفس الوقت كان أتباع الديانات والعقائد المنهزمة يعدون من أسموهم « المبشرين » وقد قلدوا المسلمين الأول فى اختيار أحسن الكفاءات وذوى الحماسة لهذا العمل ، وقد رأينا بين هؤلاء المبشرين أساتذة جامعات وبعض كبار المفكرين الغربيين الذين يجيدون عدة لغات ،

---

(١) اقرأ الجزء الخامس من « المكتبة الاسلامية لكل الأعمار » عن الرسول الداعية ومربى الدعاة .

والذين لهم اطلاع واسع على الفكر الاسلامى ، ورأيناهم وهم يحاولون أن يلتقطوا ما رأوه نقائص فى الاســلام ليذيعوها بين الذين يســتمعون إليــهم .

وكان مع هؤلاء نفوذ ومال وكتب ، وكل ذلك ساعدهم فى عملهم ، فاذا وضعنا هؤلاء فى كفة ووضعنا دعــاة المسلمين المعاصرين فى الكفــة الأخرى فان الكفة الاسلامية ستشيل للأسف وسترجح كفة « المبشرين »

وللأسف الشديد لا يوجه المسلمون عناية تذكر لاختيار الدعاة حتى الآن ، وهناك جهود واسعة تبذل للبحث عن الأصوات الجديدة للغنــاء والوجوه الجديدة للتمثيل ، ولكن ليست هناك جهود ذات بال للبحث عن دعاة ينشرون دين الله .

أنها مشكلة ندعو الله أن يهيىء من زعماء المسلمين مَنْ يعالجهــا لنرى من جديد دعاة مسلمين لهم قدرة ، وفيهم جاذبية ، واستعداد جيد للأداء .

وقد بلغت فاللهم اشهد .

٢ ـ الأخلاق الاسلامية بين الظهور والاختفاء

قلنا فى الباب الثانى من هذا الكتاب ان الاسلام أعاد تكوين الفرد العربى عندما انتقل الى انسان مسلم ، وهـذا أحدث فى الانسان تغيرا واسعا قوامه الأخلاق الاسلامية ، التى تشمل مجوعة من الفضائل ، والتى تحتم اختفاء الرذائل ، وقلنا كذلك إن الأخلاق الاسلامية جذبت ملايين البشر للاسلام ، فالتاريخ مثلا يحدثنا عن الجندى الفقير الذى عثر على تاج كسرى ، وعن ذاك الذى وقع فى يده « حق » من الجوهر ، ثم جاء هذا وذاك وقدما ما عثرا عليه لصاحب الغنائم ، ولم يقبل أى منهما أن يذكر اسمه لأنه فعل ذلك لمرضاة الله ، هذا التصرف جذب الكثيرين للاسلام وأذاع الإعجاب به .

وإننا هنا نتساءل عما اذا كان مثل هذا المسلم لا يزال موجودا فى العالم الاسلامى ؟

فى الحق إنى لا أميل للتشاؤم ، ولا للتسرع فى الحكم ، ولهذا أقرر أن العالم الاسلامى لا يزال عامرا بمثل هؤلاء الأشخاص ، ولكن للأسف اقرر أن الأنباء تحمل لنا من حين إلى آخر أقوالا عن سرقات من المال العام ، وعن كسب حرام نراه من حين إلى حين .

لقد كان المسلم نموذجا للطهارة والاستقامة والاخلاص والبعد عن الرشوة والاهمال ، فجذب الناس للاسلام فى المشارق والمغارب ، فلما تخلى المسلم عن هذه الصفات وانحدر بعض المسلمين الى الرذائل كان ذلك من أسباب ضعف العالم الاسلامى ، فقوة المجتمع الاسلامى كانت من قوة أفراده فلما انهار بعض الأفراد أو الكثيرون منهم تزلزل بناء المجتمع وأصبح ضعيف الأركان .

٣ ـ الحضارة الاسلامية بين الازدهار والانكماش

ذكرنا من قبل أن المجتمع الاسلامى فى عصره الأول قد ازدهرت به الحضارة الاسلامية ، فقد أورد القرآن الكريم أسس الشورى وأسس الاقتصاد ، وشرح الرسول هذه الأسس الحضارية ونفذها ، وكان فى تنفيذها قدوة حسنة لا يكتفى بالواجب بل يزيد عن الواجب سماحة وعطاء .

وفى العصور الاسلامية الأولى كذلك سارت التربية والتعليم على النهج الاسلامى ، وتكونت الأسر والمجتمعات وفق الفكر الاسلامى ، وسار القضاء على النحو الذى رسمه الاسلام .... وعلى العموم كانت الحضارة لاسلامية ليست فقط دراسات ونظما ولكنها كانت أسلوب حياة .

ثم جاءت عهود اختفت فيها الشورى وانتشرت الديكتاتورية ، واختفت العدالة الاجتماعية ، وبرز مكانها الظلم الاجتماعى ، وكثر الأغنياء الذين يبذلون كل الجهد فى جمع المال بوسيلة أو بأخرى ، وبجوارهم الفقراء التعساء ، أما ولاة الأمور فقد برزت الأنانية فى بعضهم ، ولم يعودوا قدوة حسنة لجماهير المسلمين . واختفاء الحضارة الاسلامية كان من أسباب ضعف العالم الاسلامى .

فالركيزة المهمة التى قام عليها المجتمع الإسلامى كانت فى سمو حضارته التى انفرد بها بين المجتمعات ، والتى كانت مفخرة قدمها الإسلام للجنس البشرى ، فإذا اختفت هذه الحضارة من المجتمع الاسلامى فانه يفقد أغلى ما يعتز به ، ولا شك أن العصور المتأخرة شهدت ضعف الحضارة الاسلامية أحيانا واختفاءها أحيانا أخرى ، وهذا أو ذاك كان من أسباب ضعف المجتمع الإسلامى .

٤ — أطماع السلطة

مات الرسول صلوات الله عليه دون أن يعيِّن خليفة يتولى أمور المسلمين بعده ، وحدث نضال عنيف حول تعيين خليفة للمسلمين ، ولندع جانبا أمل الأنصار ومحاولتهم التى قاموا بها فى سقيفة بنى ساعدة ليسندوا الخلافة الى واحد منهم ، ندع هذه الرغبة لأنها كانت قصيرة العمر ، ذوت بعد بضع ساعات من عنفوانهـا ، ونتحدث عن حركتين قويتين نشأتـا وأحدثتا صراعا طويلا لا تزال آثاره وبقاياه تعيش فى عالمنا الذى نعيش فيه الآن • وعندى أن الحركتين لم تقوما على أساس دينى سليم •

وتمثل الحركة الأولى اتجاه بنى هاشم الذين اتخذوا من صلتهم بالرسول سببا يطلبون به أن تكون الخلافة فيهم ، لقد خُيِّل لهم أن النبوة تورث ، وأنهم أولى الناس بشغل مكان الرياسة الذى كان يشغله محمد بن عبد الله ، وكان على بن أبى طالب يتزعم هذا الاتجاه ، وكان رضى الله عنه يتمتع بكثير من المزايا ، ولكن قرابته من الرسول كانت أبرز ما اعتز به بنو هاشم ودافعوا به خصومهم ، استمع الى على وهـو يقول حينما طُلب منـه أن يبايع أبا بكر :

أنا أحق بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم وأنتم اولى بالبيعة لى ، أخذتم هذا الأمر من الأنصار ، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبى صلى الله عليه وسلم ، وتأخذونه منا أهل البيت غصبا ، ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم ، فأعطوكم المقادة ، وسلموا إليكم الإمارة ؟ وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار نحن أولى برسول الله حيا وميتا — فانصفونا إن كنتم تؤمنون ، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون (١) •

---

(١) الامامة والسياسة ص ١١ •

واستمع اليه أيضا وهو يقول : الله الله يامعشر المهاجرين ، لا تخرجوا سلطان محمد فى العرب عن داره وقعر بيته الى دوركم وقعور بيوتكم ، ولا تدفعوا أهله عن مقامه فى الناس وحقه ، فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به ، لأنا أهل البيت ونحن أحق بهذا الأمر منكم (١) .

وأنكرت فاطمة ابنة الرسول رضى الله عنها وزوج على بن أبى طالب حرمان زوجها الخلافة ، وحينما دخل عليها أبو بكر وعمر عقب تولية أبى بكر قالت لهما : تركتم رسول الله جنازة بين أيدينا وقطعتم أمركم بينكم ، فاستأثرتم ولم تردوا لنا حقا (٢) .

أما الحركة الثانية فكانت تمثل اتجاه أكثر البطون والقبائل العربية . وكانت هذه الحركة ترمى إلى إبعاد الخلافة عن بنى هاشم ، اذ تبين لهم أن الخلافة لو منحت لعلى أو لغيره من أفراد بنى هاشم بادىء ذى بدء لاتخذت شكل الوراثة ، ولما كان من الممكن أن تنزع بعد ذلك منهم ، وقد عبر عمر عن هذا الاتجاه فيما قاله لابن عباس : إن الناس كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة ، وإن قريشا اختارت لنفسها فأصابت .

هل كان من حق بنى هاشم أن يطالبوا بالخلافة لمحض قرابتهم من الرسول ؟ وهل كان من حق قريش أن تحرم منها بنى هاشم لأنهم أهل محمد ؟

الجواب عندى بالنفى فى الحالتين ، فالقرابة من الرسول لا تصلح وحدها مبررا لنيل الخلافة ، فليست النبوة ملكا يورث ، ويخطىء بنو هاشم ويسيئون لأنفسهم وللاسلام حينما يحاولون جذب محمد أو دفع

---

(١) المرجع السابق .

(٢) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية جـ ٢ ص ٣٥٣ .

أنفسهم حوله ليظهروه فردا فى أسرة ، والذى نؤمن به أن محمداً بالرسالة أصبح فردا من مجموعة المسلمين أو فى هذه الأسرة الكبيرة ومرشداً لها ، وكان بلال يفضل عنده وعند الله والناس عمه (أبو لهب) مرات ومرات • لقد انتزع محمد نفسه ، وانتزعه الله من هذه الأسرة الصغيرة ليضعه فى هذه الأسرة التى كونها الاسلام ، وفى الحديث الشريف ما يدل على ذلك تمام الدلالة « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » مما يدل بوضوح على أنه ليست الرسالة فقط هى التى لا تورث ، بل المال أيضا ، وعندما نادى نوح ربه فقال « رب إن ابنى من أهلى » تلقى جوابا محكما واضحا هو قوله تعالى « إنه ليس من أهلك » (١) فأهل الرسول هم أتباعه يتفاوتون بحسب عمق ايمانهم وصدق دفاعهم عن الدين الجديد •

ومن جهة أخرى فان القرابة من الرسول لا يمكن أن تكون سببا يحرم به هؤلاء الأقارب من حق أبيح لغيرهم من المسلمين ، فما دامت شروط الخلافة قد توافرت فى واحد منهم ، فهو أهل لأن ينال هذا المنصب الكبير •

ولكن هاتين الحركتين كانتا من مظاهر العصبية التى حاربها الاسلام ، وقد ضعفت العصبية بسبب الفكر الاسلامى ولكنها لم تمت ، فلما أتيحت لها الفرصة تجددت قوتها وظهر نشاطها •

وانتصرت الحركة الثانية ، وأبعد بنو هاشم بالحق أو بالباطل عن الخلافة مدة مائة وعشرين عاما تقريبا تولى الخلافة خلالها أبو بكر وعمر وعثمان ، ثم بنو أمية ، بعد مدة قصيرة قضاها على خليفة ، ولكنها كانت مدة متصلة الاضطرابات والحروب ، فلم ينعم رضى الله عنه بالهدوء يوما واحدا ، ولم يخضع له العالم الاسلامى كله يوما واحدا ، اذ أعلن معاوية التمرد والعصيان فى الشام ، وظل فى تمرده حتى آلت اليه الأمور •

---

(١) سورة هود الآيتان ٤٥ — ٤٦ •

على أن الحركة الأولى ظلت حية تعمل فى الخفاء ، ثم وجدت لها من الفرس نصيرا عظيما ، فقد كان هؤلاء يدينون بنظرية الحق الإلهى المقدس التى تحتم أن يكون السلطان فى أسرة لا يتعداها ، واشتدت هذه المعركة وتطورت ، وانقلبت من دور الدعاية الى العمل ، وزحفت بجيوشها وأعوانها فأسقطت الخلافة الأموية وأقامت خلافة هاشمية .

كم خسر المسلمون من ضحايا ومن جهود فى هذه الحروب الطويلة ؟

وكم أضاعوا مـن وقت وأزهقوا من أرواح ؟

علم ذلك عند الله ولكننا ندرك أنها كانت خسارة بالغة .

ولم تكن الخلافة الهاشمية التى قامت علوية ، بل كـانت عباسية ، ولذلك بدأ صراع جديد مرير بـين العباسيين والعلويين ، كما كان عـلى الخلافة العباسية أن تخوض حروبا دامية ضد بقايا الطوائف التى نبتت فى العهد الماضى وأهمها الخوارج .

وعاشت أطماع السلطة بعد ذلك عبر القرون فى العالم الإسلامى ، وتجارب ولاة العهود والطامعون ، وكانت هذه الأطماع معولا يهدم البناء ويزلزل الأركان .

٥ ــ فساد بعض الحكام وفساد أعـوانهم

تولى السلطة فى العالم الاسلامى فى كثير من الأحوال رؤساء لـم يتخلقوا بأخلاق الاسلام وآدابه فظهرت حقيقتان مهمتان هما :

أولا : أن هؤلاء الحكام الفاسدين كانوا يستعينون فى أمورهم بولاة ومساعدين فاسدين ، ومن الواضح أنه اذا فسد الرأس فسد الجسم كله ، وعلى هذا ظهر فى العالم الاسلامى ولاة استحبوا سفك الدماء وسلب الأموال كسادتهم من الخلفاء والملوك والسلاطين ، بـل يمكن القول إن عدوى هذه الاخلاق قد لحقت بأفراد كثيرين من الشعب بالاضافة الى الولاة وأصحاب النفوذ .

وقد رُوِى أن عالما قال للخليفة المنصور : انى أعرف رجلا اذا صلح صلحت الدولة كلها ، فقال المنصور للعالم : من يكون هذا الرجل ؟ فأجاب العالم : أنت •

وهذا تطبيق لقول الرسول عليه السلام : صنفان من أمتى اذا صلحا صلح الناس ، واذا فسدا فسد الناس ، الأمراء والعلماء •

ثانيا : أن بعض الرؤساء المسلمين نسوا تماما الصلة الاسلامية التى تربطهم بالرؤساء المسلمين فى الدول المجاورة لهم،ولم يكن همّ الواحد منهم الا أن يتوسع على حساب أخيه ، وأن يسطو على ملك جاره ، وطالما شهد التاريخ معارك طاحنة شبت بين مملكتين اسلاميتين ، وطالما شهد التاريخ مسلما يشهر سيفه ليقتل أخاه المسلم ، وجيشا اسلاميا وقف يواجه جيشا اسلاميا آخر ، وكان كلٌّ يحاول النصر على حساب أرواح اسلامية تزهق ، ودم اسلامى يراق ، ولم يكن هناك من سبب لهذه الحروب إلا تحقيق رغبة لرئيس يريد بسط سلطانه ، واتساع رقعة الأرض الخاضعة له •

٦ — الأتراك المماليك يحكمون بالعالم الاسلامى

ومنى العالم الاسلامى بكارثة صعبة هى أن أجزاء مهمة وواسعة به خضعت لحكم المماليك الذين جىء بهم للعالم الاسلامى للخدمة والحراسة الخاصة ، ثم قفزوا الى قيادة الجيوش فالسلطة ، وقد حدث ذلك فى العراق ومصر والهند وغيرها ، ولم يكن لهؤلاء ثقافة تؤهلهم للحكم ، وكانت عهودهم فى الغالب حالكة السواد •

والعجيب أن المعتصم بن هارون الرشيد هو أول من جلبهم وأعطاهم نوعا من السلطة ، وسرعان ما عانى منهم ، ثم نكلوا بذريته ، ومع هذا لم يتعظ السلاطين اللاحقون بذلك ، فجاب الملك الصالح نجم الدين أيوب طائفة جديدة منهم ، وسرعان ما سلبوا الحكم من ابنه توران شاه ، وتكرر ذلك مرات أخرى ، مما يؤكد قصر نظر الكثيرين من الخلفاء والسلاطين الذين كانوا يجلبون لأولادهم بذور الشر والدمار •

ولنعد للحديث عن الخليفة المعتصم ثامن الخلفاء العباسيين لنذكر أنه واجه حروبا كثيرة فى الداخل والخارج ، فاحتاج الى تقوية جيشه وادخال عناصر جديدة فيه ، ولم يكن كبير الثقة بالعرب خوفا من أن يكون اتجاههم علويا ، ولا بالفرس بعد أن نكل آباؤه وأجداده بأبى سلمة الخلال وأبى مسلم الخراسانى والبرامكة وبنى سهل ، فهداه تفكيره الى أن يتخذ جيشا من الترك ، فأكثر منهم وعين عليهم الرؤساء منهم ، ليضمن لنفسه بهم التفوق والنصر ونسى المعتصم أنه بعمله هذا وضع السلاح فى يد من لا يؤمن على السلاح ، فما ان قوى جانبهم حتى عاثوا فى الأرض فسادا ، ونكلوا بالخلفاء والمسلمين ، يقول الأستاذ الامام محمد عبده : فلم تكن إلا عشية أوضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة فى قبضتهم ، ولم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الاسلام ، والقلب الذى هذبه الدين ، بل جاءوا الى الاسلام بخشونة الجهل يحملون ألوية الظلم ، لبسوا الإسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شيء الى وجدانهم وكثير منهم كان يحمل إلهه معه يعبده فى خلوته ، ويصلى مع الجماعات لتمكين سلطته (١) .

ذلك تصوير رائع لهذه الجماعة التى قدر لها أن تسيطر على عاصمة الخلافة مدة طويلة من التاريخ،انهم كانوا قساة، انتهكوا الحرمات ، واستحلوا الدماء وقتلوا كثيراً من الخلفاء وعذبوا كثيرين ، ووصلت بهم قلوبهم المتحجرة الى أن يسملوا عيون بعض الخلفاء ويصلبوهم فى الشمس .

وقد كان لهذه الحالة البشعة التى سيطرت على بغداد أثر خطير فى العالم الاسلامى كله ، فان كثيرا من ولاة الأقاليم أدركوا أن الخليفة فقد سلطانه وأن الأمر أصبح فى يد هؤلاء الترك ، فأنف هؤلاء الولاة من الخضوع للأتراك ، وأعلنوا استقلالهم كاملا أو شبه كامل ، وبهذا تصدع العالم الاسلامى وانقسم إلى دويلات وأقطار .

---

(١) الاسلام والنصرانية ص ١٣٣ .

٧ ــ الامبراطورية العثمانية : مالها وما عليها

هل تعد الامبراطورية العثمانية سببا من أسباب ضعف العالم الاسلامى ؟

إننا نؤجل الجواب عن هذا السؤال حتى نطوف طوافا سريعا نعدد فيه محاسن هذه الامبراطورية ومساوئها ، ثم نقرر الجواب فى ضوء هذا الحساب .

لقد قامت الدولة العثمانية فى آسيا الصغرى على أنقاض دولة السلاجقة فى الأناضول ، وكانت الامارة العثمانية احدى ست عشرة امارة قامت هناك ، وكانت تقع فى أقصى الشمال وتطل على بحر مرمرة ، وكانت تجاوز ما بقى للدولة البيزنطية من أملاك بالأناضول ، كما كانت تواجه الدولة البيزنطية الفسيحة التى كانت على الجانب الآخر من بحر مرمرة ، وكانت الدولة البيزنطية تعانى مشكلات كبرى ، فاستطاعت الإمارة العثمانية أن تحقق انتصارات متتالية على البيزنطيين فى الأناضول ، فأخذت بروسة سنة ١٣٢٦ وجعلتها عاصمة لها ، ثم أخذت نيقية فأزمير ، وهذا جعل هذه الامارة تسيطر على الساحل الجنوبى لبحر مرمرة ، وبالتالى تقف فى مواجهة الامبراطورية العتيقة .

وفى سنة ١٣٤٥ عبر العثمانيون بحر مرمرة الى أوربا واستولوا من عام الى عام على مناطق فسيحة شمال القسطنطينية ، مما جعل هذه المدينة التاريخية العظيمة نقطة تحيط بها الممتلكات العثمانية من كل جانب تقريبا ، وفى ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م استولى عليها العثمانيون بقيادة محمد الثانى .

وقد كان الاستيلاء على القسطنطينية حدثا كبيرا فقد حاول المسلمون الاستيلاء عليها منذ عهد معاوية حوالى سنة ٦٧٠ م ثم حاولوا الاستيلاء عليها فى عهد سليمان بن عبد الملك ولكن هذه المحاولات لم تنجح ، ولذلك

كان استيلاء العثمانيين على هذه العاصمة التى قاومت الاسلام والمسلمين حوالى ثمانية قرون عملا مجيداً ، مما جعل للعثمانيين مكـانة ممتازة فى نفوس كل المسلمين ، وبخاصة أن الزحف العثمانى امتد فى أوربا حتى دقت الجيوش العثمانية أسوار فيينا •

وكان لاستيلاء العثمانيين على القسطنطينية نتائج خطيرة فى المحيط الاسلامى ، ونتائج خطيرة كذلك فى المحيط المسيحى ، ففيما يتعلق بالمحيط الاسلامى نجد العثمانيين يتطلعون لأن يصبحوا مركز امبراطورية اسلامية متسعة الأرجاء ، وبهذا اتجهت اطماعهم للاستيلاء على البلاد العربية أو على أكثرها ، وقد تحقق لهم ذلك بعد موجة انتصارهم فى أوربا ، فدخلوا الشام ومصر والعراق والشمال الافريقى حتى حدود المغرب ، ولم يجدوا مقاومة تذكر من الشعوب العربية التى كانت ترى غالبا أن الانضواء تحت الحكم العثمانى ليس الا تكوين وحدة اسلامية لمواجهة الحركات الصليبية والتجمعات المسيحية التى كانت تعمل للنيل من الاسلام •

أما أثر سقوط القسطنطينية لدى المسيحيين فقد ظهر فى المعاهدات والتجمعات الكثيرة التى قام بها المسيحيون لضرب الامبراطورية الاسلامية الصاعدة ، وقد شملت هذه التجمعات فرنسـا وألمانيا وانجلترا والمجـر وبولندا وأسبانيا وايطاليا وأمراء البلقان ثم روسيا القيصرية ، وكان هذا التجمع الحافل ضد الامبراطورية العثمانية شديد الخطر عليها فأسلمها الى ما سُمّى « الرجل المريض » •

وفى القرن الثامن عشر انسلخت أجزاء مهمة بأوربا عن الامبراطورية العثمانية نتيجة لجهود أوربا ، ثم اتجـه الغرب للاستيلاء عـلى الدول العربية التى كانت تابعة للعثمانيين ، فاحتلت فرنسا الجزائر ثم تونس ، واحتلت انجلترا مصر واحتلت ايطاليا طرابلس الغرب ، ولما خرت تركيا صريعة فى الحرب العـالمية الأولى اقتسـم المنتصرون بـاقى التراث ، وتوزعوا بينهم أسلاب المنهزم ، وكان لانجلترا وفرنسا أكثر نصيب من

هذا التراث كما سيتضح عندما نتكلم عن « تركيا والغرب » ضمن الحديث عن العوامل الخارجية التى اضعفت العالم الاسلامى •

ومع أن العثمانيين حاولوا أن يمثلوا العالم الاسلامى وان يجعلوا من عاصمتهم عاصمة الاسلام والحضارة الاسلامية ، فان الواقع يقرر أن المسلمين لم يجنوا أية ثمار من انتصارات العثمانيين ، فلما وقعت الهزائم بالدولة العثمانية عانى المسلمون شدة المرارة من نتائج هذه الهزائم •

ويرجع السبب فى انهيار الامبراطورية العثمانية الى حياة الديكتاتورية التى كانت متأصلة فيها،والى نزق كثير من خلفاء العثمانيين، هؤلاء الذين حملوا لقب الخلافة دون أن تتوافر فيهم شروط هذا المنصب ، ويقول الأستاذ محمد كرد على (١) : إن العثمانيين قلما كانوا يهتمون بتطهير المملكة من أهل الفساد ، وقلما كانوا ينفذون من ناموس الادارة ما يخففون بــه فقر البلاد وبؤسها ، فتركوا الأهلين يعملون ما يشاءون ما أدوا مـا عليهم لخزانتها ••• وقد شاركت البلاد العربية فى حظ مملكة لا تبطل حروبها وفتنها ، ولاتها لا يعرفون ما يصلحها ، فتراجعت وانحلت أوضاعها •

ويقول فى مكان آخر (٢) وكـــان بايزيد الثانى على أكبر جانب مـــن السفاهة ، فانتشرت المفاسد والمنكرات فى أيامه فى كل مكان بين العـــام والخاص ، ونسوا الشرع وعبثوا بأحكام الدين ، وكانت تحمل إلى قصر بايزيد أجمل الفتيات والفتيان من كل أرض ، كما تحمل اليه أطيب المسكرات ، وألطف المغنين والمغنيات ، والموسيقين والموسيقيات ، ولا شأن للكبراء إلا أن يأتوه بما ترغب فيه نفسه من الجوارى والغلمان •

ويحدثنا الجبرتى المؤرخ المصرى عن مصر فيصور صورة بشعة لهذه

---

(١) الاسلام والحضارة العربية جـ٢ : ص ٣١٦ — ٣١٧ •
(٢) نفس المرجع جـ٢ ص ٥٠٠ — ٥٠١ •

البلاد وكيف عمها البؤس وانتشرت بهـا الرشوة فى عهـد العثمانيين الحـــالك (١) .

والذى ينظر للعالم الاسلامى طوال عهد العثمانيين يرى أنه مسخر لرغبة الخلفاء ، ففى الشعب جوع وفقر فى حين يحظى الخليفة وأعوانـه بمتاع الحياة ونعيمها .

وقد أتاحت الهزائم المتلاحقـة التى نزلت بتركيا الفرصـة للدول الاسلامية لتطرح هذا العبء الثقيل ، وتتخلص من هذه السلطة الغاشمة ، وتعلن استقلالها كاملا ، ولكن الفهم الخاطىء لروح الاسلام السـمحة جعل كثيرا من المسلمين يعدون الخروج على الخليفة خروجا على الوحدة الاسلامية ، وقد سبب ذلك الفهم بقاء دول اسلامية كثيرة ترزح تحت ثقل الطغيان والجهل اللذين كانا شعار الترك (٢) ، وقـد أحس الأتراك أنفسهم بما أصابهم مـن تأخر وتدهور بسبب هـذه الخلافة الجائرة الفاسدة ، فقرر المجلس الوطنى التركى اسقاط الخلافة فى ٢ مارس سنة ١٩٢٤ وطرد جميع آل عثمان من البلاد العثمانية عقابا لهم على ما جلبوه للبلاد من تدهور وسقوط .

ولا نزاع أن مصطفى كمال وأعوانه أفادوا تركيا بوضعهم حـدا لعبث الذين سموا أنفسهم خلفاء ، غـير أن القادة الجدد أسـاءوا فهم الأسباب التى هوت بدولتهم ، وظنوا خاطئين أن الاسلام هو السبب ، فأسقطوا من دستورهم أن الاسلام دين الدولة ، وظنوا أن البعث الجديد سيجىء فى ركاب اللادينية فأعلنوا ذلك للأسف ، ومرت السنون ولا تزال تركيا تعـانى .

---

(١) حوادث سنة ١١٩٨ .

(٢) اقرأ تاريخ العثمانيين فى الجزء الخامس من موسوعة التـاريخ الاسلامى للمؤلف .

فالاسلام لم يكن قط من دواعى الهزائم والتخلف ، ولكن الانحراف عن الاسلام الذى كان شعار بعض خلفاء العثمانيين وقادتهم هو الذى قاد للهزائم والتدهور ، وقد اتجـه مصطفى كمال الى الحياة الغربيـة ومحاربة الاسلام بطريق مباشر أو غير مباشر ، ثم أفلست هذه السياسة ، **وعادت الجمهورية التركية إلى رحاب الاسلام ، وأخذت تتعاون على اعلان شأن الاسلام والمسلمين من جديد ، بعد حوالى ستين عاما من الضياع ومن متاهات أتاتورك وخلفائه ، والاسلام غلاّب دائما إن شاء الله .**

العثمانيون والصفويون :

بقيت نقطة خطيرة عن العثمانيين ، هى أنهم خاضوا حروبا طاحنة قاسية ضد الصفويين فى ايران ، لقد شهد عالم ما قبل الاسلام صراعـا مريرا بين الفرس والروم ، حينما كانتا أكبر دولتين فى العالم فى ذلك الزمان ، وجاء الاسلام ، وأصبحت المنطقة كلها اسلامية ، وكان يؤمل أن يحل الوفاق محل الخصام ، أو على الأقل تكون العلاقات سلبية دون ود وبدون حرب ، ولكن الذى حدث للأسف أن صراعا طويلا وقاسيا قـام بين الدولتين ، وكان العراق فى الغالب أرضا للمعارك الفتاكة ، وطالمـا شهدت هذه الأرض ألوانا من العسف واراقة الدماء والقسوة البالغة ، وقد اتخذت الدولتان سـببا جديدا للصراع هو السنة عنـد العثمانيين والتشيع لدى الصفويين ، وفى الحق أن التشيع أو السنية لم تكن الا وسيلة للصراع وإراقة الدماء ، ولم يكن هؤلاء ولا أولئك حريصين على هـذا المذهب أو ذاك .

وبعد ، نعود إلى السؤال الذى بدأنا به هذه الدراسة عن الامبراطورية العثمانية وما ارتبط بها من نفع أو ضر للاسلام ، فنقرر أنها نشرت الاسلام ببعض ربوع أوربـا ، ولا يزال ذلك موجودا حتى الآن ، وأنها حرست فلسطين من اليهود طيلة عهد قوتها . هذا من جانب ، ومن جانب آخر فقد انغمس كثيرا من قادتها فى الضلال ، وسيطرت الديكتاتورية عـلى أكثر

عهودها ، وللديكتاتورية نتائج خطيرة ، وحرمت العالم العربى من التطور والحرية ابان انتصاراتها ، فلما انهزمت أسلمته للضياع والانهيار .

وباجمال تعد القرون الأربعة التى حكمت الامبراطورية خلالها العرب قرون اضمحلال وضعف ، وجاءت بعدها فترة استعمار كئيبة .

وعندما سقطت الامبراطورية وقام أتاتورك أعلن عداءه للاسلام والمسلمين واتخذ جانب الغرب ضد القوى الإسلامية التى كانت تابعة لبلاده عدة قرون .

ونظرة الى هذا الميزان يتضح أن كفة الحسنات تشيل ، وأن مساوىء هذا العهد ترجح رجحانا كبيرا .

وسيأتى فيما بعد حديث عن موقف الغرب من الامبراطورية العثمانية فى حالتى قوتها وضعفها .

٨ — الفرق والمذاهب :

من الأسباب الداخلية التى أضعفت بنيان المجتمع الاسلامى الفرق والمذاهب التى ظهرت فى العالم الاسلامى ، ومن أشهر هذه الفرق الشيعة والخوارج ، ثم المعتزلة والمرجئة والجبرية ، ثم القرامطة ، فالزنج ، وقد كانت هذه الفرق معاول تحاول أن تدك المجتمع الاسلامى عن قصد أو عن جهل ، فالشيعة اندس بينهم « مدعو التشيع » وهم جماعة ليسوا شيعة بل ليسوا مسلمين ، وكان هدفهم أن يحدثوا فى المجتمع الاسلامى شرخا واضطرابا ، وقد تحدثنا بافاضة عن مدعى التشيع فى الجزء الثانى من موسوعة التاريخ الاسلامى .

وكان الخوارج قوما من البدو ، يحبون الغارة لسبب أو بدون سبب ، وقد حاربوا مع على ثم حاربوه ، فلما قُتل حاربوا الأمويين ثم حاربوا العباسيين ، وانقسموا الى فرق شتى وأخذوا يحارب بعضهم بعضا ، وكم أحدثوا من صدع فى العالم الاسلامى وكم أسالوا من دماء . وفى الجزء الثانى والثالث من الموسوعة السابقة أحاديث مفصلة عنهم وعما أنزلوه بالمجتمع الاسلامى من كوارث ، وبخاصة أن بعض قياداتهم لم تكن عميقة الايمان كأولئك الذى قادوا الشيعة فانحرف هؤلاء القادة بالشيعة وبالخوارج الى مدى بعيد عن الاسلام ، وفى الجزء الأربعين من « المكتبة الاسلامية » دراسات واسعة عن هذه القيادات التى دفعت بالفساد الى هذه الفرق أو دفعت بالفرق الى الفساد .

والمعتزلة كان اتجاههم فكريا ، ولكن نشأ عنه كثير من الاضطراب والأذى لبعض العلماء كما حدث للإمام ابن حنبل ، وكان المرجئة والجبرية رد فعل لاتجاهات المعتزلة .

أما القرامطة فقد أحدثوا بالعالم الاسلامى صراعا امتد عدة قرون وكم قتلوا من الناس واعتدوا على الحجيج ، وكم قتل الناس منهم ، وهناك حديث مفصل عنهم فى الجزء السابع من موسوعة التاريخ الاسلامى .

ونجيء للزنج الذين امتد صراعهم ضد الخلافة العباسية أكثر من أربعة عشر عاما ، ولم ينجح الموفق أخو الخليفة العباسى وقائد جيشه فى الانتصار عليهم الا بعد جهد كبير ، وبعد أن بنى مدينة تواجه معسكر الزنج وصمد بها صمودا طويلا •

ونقرر للأسف أن أكثر هـذه الحركات كان نابعا من بلاد فـارس التى كانت دائما مركزا ينبت الثورات ضد الاسلام ، فإن زعماء الفرس هالهم أن يضيع نفوذهم وثراؤهم على أيدى العرب المسلمين ، وأيقنوا أن مواجهة الاسلام بالسيف شيء لا أمل فيه ، فدبروا المؤامرات والمكائد ضـده بخلق هذه الجماعات التى حفلت بها عصور الاسلام ، وسـاعد اليهود من بقايا سجن بابل على ذلك ، أولئك الذين استوطنوا بلاد فارس ورفضوا العودة لفلسطين عندما سمح لهم بالعودة ، فكان لتعاون بقايا اليهود مع الموتورين من زعماء الفرس وأشياعهم أخطر الأثر على الاسلام والمسلمين ، وأصبحت بلاد فارس منذ ذلك الوقت المبكر مبـاءة تدفع ضد الاسلام من حين الى آخر أخطر العناصر وأقسى الثورات •

٩ ـ أندية ومؤسسات

تكيد للإسلام فى غفلة من المسلمين

فى كتابى « اليهودية » (١) عقدت بابا عنوانه « اليهود فى الظلام » وضحت فيه أن من مكائد اليهود أنهم يعملون فى الخفاء أعمالا تعـود بالخطر الجسيم على المجتمع البشرى بوجه عام والمجتمع الاسـلامى بوجه خاص ، وذلك مثل الاثارة وبث الفتن ، ومثل نفوذهم خلف وسائل الإعلام حيث يذيعون ما يشاءون ويمنعون ما يشاءون ، ومثـل التجسس والتستر خلف أديان أخرى للوصول الى أهدافهم ، ومثل التآمر والاغتيال .

الماسونية والروتارى والليونز :

على أن من أخطر الأعمال التى يقوم بها اليهود فى الظلام إنشاؤهم الجمعيات والأندية السرية مثل الماسـونية والروتـارى ، والليونز والبهجا ... ، وهذه المؤسسـات والأندية تتظاهر بالنشاط الاجتمـاعى وتتستر خلفها كل خطر للأديان والأوطان ، وقـد أعلن المؤتمر الاسلامى الذى عقد بمكة المكرمة فى مارس سنة ١٩٧٤ أنه ثبت أن هذه الجمعيـات جمعيات هدامة ، وأنها وثيقة الصلة بالصـهيونية ، ويجب الابتعاد عنها تماما . كما حذر المرسوم البابوى رقم ٨٦٤ الصادر فى ١٩٥٠/١٢/٣٠ من الاشتراك فى هذه الهيئات بأى وجه من الوجوه ، وذلك دفاعا عن العقيدة وعن الفضيلة .

ومع هذا لا يزال لهذه الجمعيات نشاط ظاهر ونشاط خفى ، ولعل المثقفين والمسئولين يتنبهون .

* * *

.. تلك بايجاز هى العوامل الداخلية التى أضعفت العالم الاسلامى ، فلننتقل الى الحديث عن العوامل الخارجية :

ثانيا : العوامل الخارجية

التى أضعفت المجتمع الاسلامى

منى العالم الاسلامى بكثير من الأعداء الذين تسلطوا عليه من خارجه ، وهاجموه ، وفتكوا بكثير من المسلمين فتكا قاسيا ، وأنزلوا بهذا العالم صنوفا من التنكيل ، وكانوا من أقسى الأسباب التى غرست الضعف والهوان به ، ويمكن تقسيم هؤلاء الأعداء قسمين :

قسم غلبه الاسلام بعد هذا الصراع فاعتنق الاسلام بعمق أو بشكل سطحى وهم المغول .

وقسم بدأ صراعه ضد الاسلام من مطلع الاسلام ، واستمر فى صراعه حتى العهد الحاضر ، وهو الغرب المسيحى باتجاهاته الصليبية ، وقد اتخذ هذا القسم فى مسيرته الطويلة أسماء عديدة ومواقف كثيرة مثل :

١ — الصراع بين المسلمين والبيزنطيين فى صدر الاسلام ، ثم فى عصر عمر بن الخطاب وفى العهد الأموى والعباسى .

٢ — موقعة ملاذكرد (١٠٧١م) التى كانت من الأسباب المباشرة للحروب الصليبية . وكانت بين السلاجقة والامبراطور البيزنطى رومانس الرابع .

٣ — الحروب الصليبية الشهيرة التى استغرقت قرنين من الزمان (١٠٩٧ — ١٢٩٢م) .

٤ — الزحف الصليبى على أسبانيا والمغرب العربى ، وقد بدأ مع بدء الحروب الصليبية فى الشرق تقريبا ، وظل فى حركته وامتداداته حتى القرن العشرين .

٥ — الحركة الصليبية ضد الامبراطورية العثمانية من منتصف القـــرن الرابع عشر حتى القـــرن العشرين •

٦ — الحركة الصليبية وراء الحملة الفرنسية على مصر والشام •

٧ — الحركة الصليبية تعاونت لتتحقق لدول الغرب المسيحى أن تستعمر الدول الاسلامية •

٨ — الحركة الصليبية تزرع الصهيونية بين دول العالم الاسلامى وتحمى دولة الصـــهاينة •

وقد تحدثنا عن المغول وعن كثير من الحركات الصليبية التى أشرنا اليها ، فى موسوعة التاريخ الاسلامى ، وسنمر هنا مرورا سريعا على مـــا يرتبط منها بدراســـتنا الحالية •

المغـــول

هناك أحاديث طويلة مفصلة عن المغول أوردناها فى الأجزاء . الخامس والسابع والثامن من موسوعة التاريخ الاسلامى ، وهى تشمل أصل المغول وعقائدهم وأشهر زعمائهم ، كما تشمل الحديث عن زحفهم الهادر الذى ضم مناطق واسعة من الصين وأواسط آسيا والذى وضعهم على حافة العالم الاسلامى فاجتاحوا الدولة الخوارزمية ودمروا أشهر مدنها كبخارى وسمرقند ثم هراه وطوس والرى ، تلك المدن التى كان لها فى التاريخ الاسلامى مكانة سامية وذكرى عاطرة .

واقتحم المغول ما يسمى الآن افغانستان فبلاد ايران ، ثم اتجهوا غربا وحققوا بعض انتصارات فى شمال العراق ، فاستولوا على ماردين ونصيبين والموصل ، ثم أخذوا إربل فسامرا ، وكان ذلك سنة ٦٣٤ هـ .

ولنصور خطورة المغول نذكر أنهم حوالى نفس التاريخ ، وبالضبط سنة ٦٣٨ هـ اتجهوا للزحف تجاه أوربا ، فاستولوا على شبه جزيرة القرم وأخذوا موسكو وأحرقوها ، ثم استولوا على البلاد الروسية عاما بعد عام حتى وقعت كلها تحت أيديهم ، وقد [illegible]رها قرنين ونصف قرن ، ومن روسيا امتد زحفهم على بولندا والمجـ[illegible] .

أما عن الجبهة الاسلامية فقد استأنفوا نشاطهم فيها ، وتحالفوا مع الصليبيين للقضاء على المسلمين ، وزحفوا [illegible] شمال العراق تجاه بغداد ، وفى سنة ست وخمسين وستمائة وصل الطاغية هولاكو حفيد جنكيز خان إلى بغداد بجيوشه ، ونزل قائده ياجونوس على بغداد من غربيها وهولاكو من شرقيها ، ثم خرج له الخليفة المستعصم فى أعيان دولته وأكابر رجاله ، فضرب المغول رقاب الجميع ، وقتلوا الخليفة وداسوه بالخيل ، ودخل التتار المدينة واقتسموها وبقى السيف يعمل بها أربعة وثلاثين يوما ، وقل من سلم ، فبلغ القتلى ألف ألف وثمانمائة ألف وزيادة (١٫٨٠٠٫٠٠٠)

وقد نهب المغول دار الخلافة حتى لم يبق فيها لا ما قل ولا ما جل ، ثم أحرقت بغداد بعد أن قتل أكثر اهلها ، ثم عبر هولاكو ورجاله الفرات لمحاصرة حلب ، فلما دخلوها وضعوا السيف يومين فى رقاب أهلها حتى أبادوا الخلق ، وبعد حلب دخل المغول حماة ودمشق وأنزلوا بالسكان ما أنزلوه بسكان بغداد .

وورث التتار تراث المسلمين ،وخلفوهم فى الحكومة ، وناهيك به بؤسا وشقاء للمسلمين أن يتولى أمورهم أمة جاهلة وحشية ليس لها علم ولا دين ولا حضارة ولا ثقافة ، لقد أطبق الظلام أو كاد على العالم الاسلامى ، وطمع فيه الطامعون ، وانحلت وحدته ، وتفككت عراه وذل شأنه بعد عز .

وسلمت مصر من تدمير التتار بعد أن أبلى بنوها بلاء حسنا فى موقعة « عين جالوت » التى هزم فيها جيش التتار شر هزيمة وقتل قائده وعدد ضخم من رجاله وكان ذلك فى منتصف رمضـــان سنة ٦٥٨ هـ ثـــم لاحق المصريون بقيادة بيبرس المغول تجاه الشمال فأوقعوا بهم هزيمة أخرى فى قيسارية وفى عهد السلطان قلاوون هاجم المغول حمص من بغداد ولكن الجيش المصرى أوقع بهم هزيمة كبيرة ، وفى عهد الناصر أغار المغول على دمشق واحتلوها ولكن الناصر أعد لهم جيشا ضخما والتقى بهم بالقرب من دمشق فشتت شملهم ووقع جيشهم بين قتيل وأسير ، وكان الأسرى عشرة آلاف .

وهناك جولة أخرى مغولية على العالم الاسلامى بقيادة تيمورلنك كـــانت كحملة هولاكو دموية ومدمرة .

لقد لاقى العالم الاسلامى الأهوال من المغول الذين دمروا الحضارة وسفكوا الدماء ، وامتد نشاطهم فشمل عدة ممالك اسلامية كما امتد مع الزمن عدة قرون ، وقد دخل الكثيرون منهم الاسلام عقب ذلك وكونوا امبراطورية فى الهند ، ولكن اسلام الكثيرين منهم لم يكن عميقا ، وقد وضحنا ذلك وسواه فى الأجـــزاء التى سبق ذكرها من أجزاء موســـوعة التاريخ الاسلامى .

الصليبيون

قلنا آنفا ان الحروب الصليبية التى استغرقت قرنين من الزمان (٤٩١ — ٦٩٢هـ = ١٠٩٧ — ١٢٩٢م) كانت لها امتدادات فى العصر الحديث باسم الاستعمار ثم باسم الصهيونية ، أما أن الاستعمار امتداد للحروب الصليبية فذلك شىء واضح لأن الدول التى استعمرت العالم الاسلامى هى نفسها الدول التى اشتركت فى الحروب الصليبية ضد المسلمين ، وأما أن الصهيونية امتداد للحروب الصليبية فذلك شىء لا يخفى على الباحثين ، **فالغرب المسيحى مع كراهيته لليهود هو الذى زرع اليهود فى فلسطين ليكونوا شوكة فى ظهر العالم الاسلامى وليصرفوا المسلمين الى الحرب حتى لا يحقق العالم الاسلامى تقدما يذكر فى مجال الحضارة والاستقرار .**

ومن أجل هذا فإن حديثنا عن الصليبيين وامتداداتهم لابد أن يطول :

وعندما نتحدث عن دور الحروب الصليبية فى إضعاف العالم الإسلامى نذكر بإيجاز نقاطا محددة تحمل أخطر المدلولات ، وقد أتيح لى أن أسجل هذه النقاط فى الفيلم الانجليزى One God and Three God

فالحروب الصليبية شملت الأخطار الآتية :

١ — اشتركت فيها كل دول أوربا ضد العالم الاسلامى .

٢ — استمرت قرنين من الزمان .

٣ — أعلنها البابا « أوربان الثانى » وقادها القسس ، وقال البابا فى إعلانها كلمات لا يليق أن تصدر من رجل دين هى :

Let the truce of God observed at Home, and let the arms of the Christians be directed to Conquering the Infidels.

فهو يأمر أن تتوقف الحروب فى أوربا ، وأن تتجه أسلحة المسيحيين الى القضاء على الكفرة (يقصد المسلمين) وإنه لمن العار أن يصرخ

قائد دينى عظيم هـذه الصرخة ، وأن يحث الناس على اراقة الدمـاء واحداث المجازر •

٤ ـ اشترك فيها ملـوك أوربا الذين عاصروهـا كلهم تقريبا ، وكانت الحروب الصليبية الثالثة بقيادة فردريك ملك ألمانيا وريتشـارد قلب الأسد ملك انجلترا وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وكانت الحرب الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وقد أسر هـذا فى موقعة المنصورة وسجن بدار ابن لقمان •

٥ ـ دارت هذه الحروب الطويلة فى أرضنا ودمرت الكثير من مدننا التى كانت مزدهرة وبخاصة أنطاكية وطرابلس وعكا والمنصـورة ويقرر الباحثون المسلمون أن هذه الحروب كانت شـديدة الأثر على الاسـلام والمسلمين ، التهمت البشر والموارد ، ودمرت الزرع والضرع والمنازل والطرق (١) •

٦ ـ وعندما نقرأ للمؤلفـين الغربيـين المنصفين مثـل غوسـتاف لوبون وكيرك وهيرنشو وامرتون نجد اعترافا واضحا ومفصلا يقرر أن الحروب الصليبية كانت ذات نتائج عظيمة بالنسبة للغرب ، وكانت نواة لعصر النهضة ، وبالعكس كانت الأحوال بالنسبة للشرق فقد عانى مـن نتائجها شر المعاناة (٢) •

٧ ـ وبعد هزيمة أوربا وطردها من الشرق واصلت أوربا حملاتها عن طريق التبشير الدينى فانشأت مدارس الرهبـان مثل الفرنسيسكان والدومينيكان ، كما دفعت للشرق ألوانا من الثقافة لا تناسب الاسـلام

---

(١) سنتحدث بعد قليل عن ملامح اخرى للصليبيين •

(٢) اقرأ ذلك فى الجزء الاول من موسوعة النظم والحضارة الاسلامية وهو بعنوان « تاريخ المناهج الاسلامية » •

رغبة في التأثير على المسلمين ، واتخذت كذلك الاقتصاد وسيلة من وسائل اضعاف المسلمين والتغلب عليهم •

الغرب ضد الامبراطورية العثمانية :

ولم يتوقف حقد الغرب المسيحى على الشرق الاسلامى بانتهاء الحرب الصليبية ، فقد اتجهت أوربا لمحاربة الامبراطورية العثمانية التى كانت طيلة عدة قرون بعد الحروب الصليبية ممثلة للعالم الاسلامى كله كما ذكرنا من قبل •

الحملة الفرنسية على مصر :

وما ان انتهت أوربا من الامبراطورية العثمانية حتى اندفع نابليون بالحملة الفرنسية على مصر ليستأنف الحروب الصليبية التى يقول المؤرخون عنها انها كانت فى أغلب مظاهرها مشروعا فرنسيا ، وان البابا عندما أراد أن يعلنها ترك مقر رياسته وذهب ليعلنها من كلير مونت بفرنسا •

وقد فشلت الحملة الفرنسية فشلا ذريعا ، وأسهمت انجلترا فى القضاء عليها عندما دمرت الاسطول الفرنسى فى موقعة أبى قير البحرية ، ومع هذا اشتركت انجلترا وفرنسا وغيرهما من دول أوربا فى الدعاية لخرافة تذكر أن الحملة الفرنسية تركت بمصر أو خلفت بمصر نتائج حضارية ، وهو ادعاء متهافت فندناه بالتفصيل فى الجزء الخامس من موسوعة التاريخ الاسلامى ، فالحملة الفرنسية كانت ضد الحضارة المصرية القديمة عندما سلطت مدافعها الى رأس أبى الهول ، وكانت ضد الحضارة الاسلامية عندما اقتحمت بالخيول الجامع الأزهر واستباحت حريات المسلمين ، هذا بالاضافة الى ما أراقته من دماء وما خربته من أعمال ، وبالاضافة كذلك الى ما قدمته من اغراء ليعقوب شام لينشئ « اللواء القبطى » لمساعدة الحملة على الرغم من إرادة زعماء الأقباط الذين استنكروا هذا التصرف الأحمق •

الاستعمار الغربى لكل العالم الاسلامى :

وما أن انتهت الحملة الفرنسية حتى بدأ الاستعمار الغربى لكل الدول الاسلامية بدءا من "المغرب واعتدادا إلى أندونيسيا ، وكان هذا العدوان الغربى بصورة واحدة ، قسوة وفتك وتدمير ، فتن وقلاقل ، محاربة العلم ، وتشجيع الخرافات .

وقد تعاونت الدول الغربية تعاونا كاملا لإخضاع المسلمين فاذا عجزت هولندا الفقيرة عن اخضاع اندونيسيا ساعدتها انجلترا ، وإذا ضعفت إسرائيل عن مقاومة الدول العربية المحيطة بها ، خرج التصريح الثلاثى (أمريكى بريطانى فرنسى) لحماية الحدود الحالية لدول الشرق الأوسط ، وقد أثبتت الحوادث أن المقصود بهذا التصريح هو حماية حدود إسرائيل فاذا اعتدت إسرائيل وحاولت تغيير الحدود فالتصريح حبر على ورق ، وإذا أحست إسرائيل بأى تهديد صاح أصحاب التصريح بأنهم سينفذون التبعات التى ألقيت عليهم ، وسيقفون فى وجه المعتدى .

وقبل أن نسرد السلسلة التاريخية لهذا العداء الذى بدأ بالحروب الصليبية واستمر إلى اليوم نريد أن نضع عنوانا كبيرا هو :

هل هذا العدوان يجرى باسم الدين أم باسم السياسة ؟

وفى الإجابة عن هذا السؤال نذكر أنه كان هناك بعض الناس يعتقدون أن هذا العداء يجرى باسم السياسة ، ويرون أن التكتلات العالمية ، والمراكز (الاستراتيجية) ، ثم المحافظة على الأسواق التجارية ، وغير ذلك من العوامل السياسية والاقتصادية هى التى دعت إلى ما عاناه الشرق من الغرب من عداء متصل وحملات غادرة متتالية .

ولكن هذه النظرية لا تقوى على الوقوف أمام البحث العلمى التاريخى ، ولم يكن يعتنقها إلا من عرفوا بسلامة النية ، أو من كانوا يعملون لحساب

الغرب ، وفى كل يوم تتقوى الأدلة ، ويزداد الأمر وضوحا بأن العداء هو أولا دينى لا سياسى ثم هو ثانيا عداء الغرب للشرق •

وسأسرد فيما يلى نصوصا عربية وشرقية تؤيد هذا الاتجاه ، ثم أتبع ذلك بتدوين بعض ملاحظات لى عن هذا الموضوع •

جاء فى النشيد الإيطالى ما يلى :

أمــاه ، لا تبكى ، بـل اضحكى وتأملى ، ألا تعلمين أن إيطاليـا تدعونى ، أنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسرورا لأبذل دمى فى سحق الأمة الملعونة ، ولأحارب الديانة الاسلامية ، سأقاتل بكل قوتى لمحو القرآن ••• إن سألك أحد عن عدم حدادك على فأجيبيه : إنه مات فى محاربة الاسلام ، الطبل يقرع يا أماه ، ألا تسمعين هرج الحرب ؟ دعينى أعانقك وأذهب •

وقال مستر جلادستون من مشاهير الإنجليز :

يجب إعدام القرآن •

وكتب صاحب مجلة العالم الإسلامى ما يلى :

« العالم النصرانى على اختلاف أممه وشعوبه عرقا وجنسية هــو عدو قاس مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص ، فجميع الدول النصرانية متحدة مما على دك الممالك الاسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا •

« والروح الصليبية كامنة فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم • كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل ، فالنصرانية لم يزل التعصب مستقرا فى عناصرها ، متغلغلا فى أحشائها متمشيا فى كل عرق من عروقها ، وهى أبداً ناظرة إلى الاسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الدينى الممقوت •

« وجميع هـذه الشعوب النصرانية مجمعة" ومتفقة" على عـداء الإسلام ، وسحق المسلمين (١) » .

والآن أضيف إلى هذه الأقوال المقتبسة الملاحظات الآتية :

أولا — كانت روح القسوة والتشفى واضحة فى انتصارات الغربيين ، فلم يكن ما أحرزوه من نصر على المسلمين فى بعض المعارك نهاية للمطاف ، وإنما كان بدءاً لمجازر شنيعة ، وإزهاق أرواح ، وسكب فيض من الدماء ، وطالما شملت القسوة الأطفال والنسـاء والعجائز ، وطالما جرت هـذه المجازر ، والسافكون يحتسون الخمر ويرقصون طربا ، لا للنصر وإنما لمـا يحدثونه بالمسلمين من إبادة وتدمير ، ولم تكن المسألة مجرد قتل وإنمـا كان يصحب ذلك تعذيب وتنكيل وقد كتب الجنرال نيكلسون يقول : يجب علينا أن نسن قانونا يبيح لنا أن نحرق أو نسلخ جلود هؤلاء وهم أحياء ، لأن نار الانتقام التى تتأجج فى صدورنا لا تخمد بالشنق وحده ، وقد كان الجنرال نيكلسون حسن النية لأنه فكر فى سن قانون بذلك ، ولكن غيره فعل هذا وأفظع منه دون أن يحتاج الى سن القوانين ، وقد كتب المؤرخون الافرنج أنفسهم هذا التاريخ المرير ، وانتقدوا الأعمال البربرية التى قام بها الأوربيون ضد المسلمين انتقادا قاسيا . فهل يمكن أن نقول بعد هذا إن العداء سياسى أو اقتصادى ؟ الجواب لا شك بالنفى ، إذ لو كان الغرض هو كسب النفوذ أو الأسواق لا كتفى الأوربيون بالنصر ، ولمـا أنزلوا بالمسلمين هذه الألوان من الوحشية والتنكيل .

ثانيا — هل هو من محض المصادفة أن جميع الدول الاسلامية دون استثناء تقريبا من المغرب إلى إندونيسيا كانت مستعمرة للدول الغربية حتى سنة ١٩٤٥ ؟ وانه لم تكن هناك دولة مسيحية واحدة مسـتعمرة ؟

الجواب القوى الواضح أن ذلك لا يمكن أن يكون من محض المصادفة ، وإنمـا كـانت السيطرة عـلى الدول الاسلامية واستذلالها هدفـا

(١) انظر يوم الاسلام للاستاذ أحمد أمين ص ١٠٩ — ١١١ .

مرسوما أعده الغربيون ينفذوه ، كما كان ضمان حرية الدول المسيحية واجبا مقررا آمن به الغربيون وأتبعوه .

ثالثا — هل يمكن أن يتصور الانسان أن فرنسا كان يمكن أن توجه قواتها المبيدة وأسلحة الغرب المدمرة الى الجزائر ، عدة سنين تفتك فيها وتدمر لو كان سكان الجزائر شعبا مسيحيا ؟

رابعا — هل يمكن أن يتصور الانسان أن هولندا الصغيرة الفقيرة تستطيع وحدها أن تأتى من أقصى الشمال لتسيطر على أكثر من مائة مليون مسلم يسكنون آلاف الجزر التى تتكون منها الآن إندونيسيا ؟ وهل كانت هولندا تستطيع وحدها ذلك لو تخلت عنها سفن بريطانيا وأسلحة أمريكا؟ولماذا اشترط الحلفاء على اليابان عقب استسلامها ألا تسلم إندونيسيا للوطنيين؟ وهل كانت هولندا تستطيع بعد الحرب العالمية الثانية أن تحلم حلمها الفاشل باستعادة السيطرة على إندونيسيا لو لم تؤيدها بريطانيا بقوة الحديد والنار كما سيأتى بيان ذلك عند الكلام عن هولندا وإندونيسيا ؟

خامسا — هناك دعوى واضحة البطلان يقولها المستعمرون ، وهى أن احتلالهم هذه البلاد كان يقصد إلى رفع مستواها . . . والاجابة على ذلك سهلة يسيرة توضحها الحقائق الآتية :

كيف تركت انجلترا الهند والباكستان بعد احتلال دام حوالى ثلاثة قرون ؟

وكيف تركت السودان بعد أن احتلته حوالى ثمانين عاما ؟

وكيف تركت هولندا إندونيسيا بعد أكثر من ثلاثة قرون ؟

وما هو حال ليبيا بعد الاحتلال الايطالى ؟

ولماذا وعدت انجلترا أن تجعل من فلسطين وطنا قوميا لليهود ، ولم تخرج منها إلا بعد أن سلمتها لعصابة الصهيونيين ؟

سادسا — يقولون إن السبب فى احتلال هذه البلاد هو تخلفها فى ميادين العلم والسياسة والاقتصاد . . . ونحن نتساءل : هل مصر أكثر تخلفا من الحبشة ؟

سابعا — تحدث حروب بين الدول المسيحية بعضها والبعض الآخر لأسباب مختلفه كالحرب التى حصلت بين ألمانيا وايطاليا من جهة وبين دول الحلفاء من جهة أخرى ، ولكن الملاحظ أنه عـلى الرغم مما أنزله المحور بالحلفاء من خسائر فان دول الحلفاء سرعان ما أنهت عداءهـا لدولتى المحور وأدخلت محل هذا العداء صداقة ومساعدات شاملة .

ثامنا — كانت تركيا موطن الخلافة الاسلامية ، وقد جعلها ذلك هدفا لعداء الغرب المتصل القاسى ، وخلق منها « الرجل المريض » بل عملوا على أن يموت ذلك المريض ، فلما خلعت تركيا من دستورها كلمة الاسلام أمنت شر الغرب وأصبحت له من الأصدقاء ، وسيأتى مزيد ايضاح لهذه النقطة عند الكلام عن « تركيا والغرب » .

تاسعا — وفى الشرق الأوسط تقوم الدولة العربية « لبنان » ويكثر سكانها المسيحيون ، وقد اتجهت الصهيونية إلى محاولة خلق جفوة بين لبنان والدول العربية الأخرى ، وقد عبَّر موسى شرتوك الذى كان وزيرا لخارجية إسرائيل عن هذه المحاولة حين قال : إن إحساسنا تجـاه لبنان إحساس طيب ، ولا نضمر لها أى عداء .

وكان موسى شرتوك بذلك متأثراً بحكماته من المسيحيين الغربيين ، ولكن التجمع الإســلامى فى لبنان دفع إسرائيل لتهاجم لبنان بقســوة فى الثمانينات ، بَيْدَ أن اللبنانيين أغرقوا الصهاينة فى الدمــاء فأجبروهم على الجلاء عن أرض لبنان .

عاشراً — وأثبت التاريخ الحديث مهزلة من المهازل اتصلت بالهجوم الغادر الذى قامت ته انجلترا وفرنسا ضد مصر فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، وقد تشعبت هذه المهزلة إلى عدة اتجاهات .

١ — هجوم غادر فيه قتل وتدمير بدون سبب .

٢ — هجوم عنيف من انجلترا وأمريكا ضد اندونيسيا لأنها وقفت تؤيد شقيقتها مصر وتشد أزرها فى محنتها .

٣ — يخول الكونجرس الأمريكى أيزنهاور أن يستعمل الجنود الأمريكيين لحماية استقلال دول الشرق الأوسط اذا تعرضت لخطر شيوعى ، أما إذا هُدِّدَ استقلال هذه الدول بالقوات الغربية فان إيزنهاور ليس له أن يستعمل القوات الأمريكية لحماية استقلال هذه الدول ! ! ! بل ربما بارك هذا التهديد وأيده .

مرة أخرى : ما طبيعة هذا العداء ؟

الجواب : إنه عداء دينى ما فى ذلك شك ، وقد كان من الممكن أن يعلن الغربيون ذلك لولا أنهم خشوا أن تحس الدول الاسلامية بالخطر يتهددها جميعا فتتحد وتتعاون لمقابلة هذا العدوان . والغرب حريص على أن يثير الخلاف بين هذه الدول وأن يبذر بينها بذور الشقاق بايهامها أن هذا العداء لا صلة له بالناحية الدينية ، وبذلك تخطفها ويستذلها واحدةً بعد واحدة ، على أن كثيرين من الغربيين لم يستطيعوا إخفاء السبب الرئيسى فراحوا يعلنونه ويجهرون به ، كما تحدثت بذلك النماذج التى نقلناها عن بعضهم فيما سبق .

بقى علينا أن نقرر حقيقة كبيرة الخطر ، وهى أن عداء المسيحيين الغربيين للمسلمين ليس الا انحرافا عن مبادىء المسيحية الصحيحة ، فالمسيحية كما علّمها السيد المسيح تفيض رحمة وتسامحا ، ولكن ما لاقاه

المسيح وأتباعه من جفوة اليهود وقسوتهم وتنكيلهم ، أثار حفيظة المسيحيين فإذا بهم يستعذبون أن يعذبوا الآخرين ، ويحبون إراقة الدماء ، ثم إذا بهم يتعاونون مع اليهود أعدائهم الأول فى محاربة الاسلام والقضاء عليه ، لا لشىء إلا لأن الاسلام سهل الانتشار ، رأوا فيه منافسا خطيرا اجتاح أرض المسيحية ، وتسرب إلى قلوب كثير من المسيحيين .

أما الاسلام فكما قلنا من قبل يدعو أتباع الديانات السماوية المختلفة إلى التعاون لخير الانسانية ، ويرى أن الايمان بالله والاعتقاد بوحدانيته أساس قوى يمكن أن يتعاون فى ظله أتباع هذه الديانات ، وقد كان الرسول خير من مثل لذلك وتبع أصحابه سيرته وبخاصة عمر بن الخطاب الذى قدم من بيت مال المسلمين مرتبا منظما للعجزة والشيوخ من اليهود والنصارى ، والذى رفض أن يصلى فى كنيسة القيامة حين دخل وقت الصلاة وهو بها ، خوف أن يحاول المسلمون أن يتخذوها مسجدا كما سبق .

وقد سار أمراء المسلمين على هذا النحو ، فعند ما فتح الصليبيون بيت المقدس أسالوا الدماء أنهارا ، وعندما استرده المسلمون شملوا بالعفو والتسامح سكانه المسيحيين ، وقد كان تسامح المسلمين بعيد الأثر حتى فى نفوس الصليبيين الذين بدأ الكثيرون منهم يقتبسون هذه الروح التى عُرِفَ بها المسلمون ، ويقول توماس أرنولد : إن الصليبيين الذين كانوا يفدون حديثا الى الشرق كانوا يعجبون من روح التسامح التى يرونها فى الصليبيين الذين طال مقامهم فى فلسطين ، وكانت الكنيسة تكرر احتجاجها لتفشى روح التسامح بين أتباعها .

ويقول الراهب ميشو (١) : ومن المؤسف أن تقتبس الشعوب المسيحية من المسلمين التسامح ، واحترام عقائد الآخرين ، وعدم فرض أى معتقد عليهم بالقوة .

---

(١) رحلة دينية فى الشرق ص ١٧ .

تلك هى روح الأغلبية الساحقة من المسلمين ، فاذا كان بعض الولاة الأتراك أو غيرهم عرفوا بالقسوة والتعصب فذلك شيء بعيد عن الاسلام ، وقد لاقى المسلمون أنفسهم كثيرا من العنت من خشونة هؤلاء الأتراك وقسوتهم •

وقد آن لنا أن نذكر موجزا سريعا لعدوان الغرب على الشرق أو لعدوان المسيحيين واليهود الغربيين على المسلمين •

صــور العدوان المسيحى على الشرق الاسلامى

ملامح أخرى للحروب الصليبية :

فى الشرق الأوسط مجموعة من الدول الاسلامية ، كانت أسبق من غيرها إلى اعتناق اسلام ، وكانت بالتالى أسبق من غيرها فى تلقى عدوان الغرب ، وقد بدأ هذا العدوان بما يعرف بالحروب الصليبية ، ولا يزال مستمرا حتى الآن • وسنعطى موجزا سريعا لهذه السلسلة من الاعتداءات ، وسنقتبس من الكاتب الغربى الدكتور غوستاف لوبون بعض سطور مما دونه عن الحروب الصليبية ليكون شاهدا على بنى جنسه (١) • قال :

« كانت أوربا ولا سيما فرنسا فى القرن الحادى عشر الذى جردت فيه الصليبية الأولى فى أشد أدوار التاريخ ظلاما ، وكان النظام الاقطاعى يأكل فرنسا التى كانت مملوءة بالحصون التى كان أصحابها — وهم من أنصاف البرابرة — يقتتلون على الدوام ، ولا يملكون سوى أناس من العبيد الجهال ، ولم يكن فى ذلك الحين لسوى البابا نفوذ شامل ، وكان الناس يخشون البابا أكثر مما يحترمونه •

« وكانت دولة الروم فى الشرق قائمة ، وكانت القسطنطينية مع انحطاطها عاصمة لدولة كبيرة لا تنتهى فيها المشاحنات والمنازعات ،

« وكانت الدول الإسلامية فى دور تفكك وانحلال ، ولكن حضارتهم كانت مع ذلك محافظة على سلطانها القديم » .

« فالحرب الصليبية التى شبت فى ذلك الحين لم تكن سوى نزاع عظيم بين قوم من الهمج الأوربيين ، وبين حضارة المسلمين التى كانت تعد من أرقى الحضارات التى عرفها التاريخ .

« وكانت أكثر قوافل الحجاج الأوربيين الى بيت المقدس تكون فيالق عسكرية أكثر منها جماعات للحجيج . فكان بها بارونات وفرسان ، طالما هاجمت الأعراب والتركمان ، فاضطر هؤلاء الى الدفاع عن أنفسهم ، وبخاصة أن التركمان الذين قاموا مقام العرب فى سوريا ، كانوا أقل تسامحا من العرب ، فألزموا حجيج النصارى دخول القدس بخشوع ، ولم يسمحوا لهم بالدخول فى شكل عسكرى ، وعلى ضوء المشاعل ، كما كان العرب يسمحون بذلك .

« وزار بيت المقدس الراهب بطرس الناسك ، فاغتاظ لما رأى من معاملة المسلمين للنصارى ، وخيل إليه أنه مبعوث الرب لانقاذ الأراضى المقدسة من الكفار (المسلمين) ، واستعان بالبابا أوربان الثانى فأيده البابا ، ثم أيده الأمراء الاقطاعيون ، وبخاصة أن المسلمين كانوا يهددون القسطنطينية ويحاولون الاستيلاء عليها ، وقد لعبت أطماع التجار والأمراء دورا كبيرا فى تنشيط هذه الحركة » .

وفى ربيع سنة ١٠٩٦ بدأت الجيوش الأوربية ترحف ولكنها تعرضت إلى مجاعات وأمراض فتاكة ، ومن نجا منها عمل فى السلب والنهب والتدمير ، وقد روت آن كومنين بنت قيصر الروم أنه كان من أحب ضروب اللهو عند الصليبيين قتل الأطفال وتقطيعهم إربا إربا وشيهم ، ولكن هذه الجيوش الهمجية العاطفية لم يكن لها غناء ، وانما فنى أفرادها بالأوبئة والمجاعات والفتن الداخلية ثم بدفاع العرب .

وتلا ذلك زحف ضخم قوامه مليون أوربى يقودهم الأمراء والملوك ، وقد استولى ذلك الجيش على القـدس فى يولية سنة ١٠٩٩ ، ويقـول غوستاف لوبون : « لم يكتف قومنا الصليبيون الأتقياء بضروب العسف والتدمير والتنكيل التى اتبعوها ، فعقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود والنصارى الارثوذكس الذين كان عددهم ٦٠ ألفا فأفنوهم عن آخرهم فى ثمانية أيام ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولدا ولا شيخا .

ويقول غليوم الصورى : « إن الصليبيين كانوا من السـفهاء الفاسدين والملاحدة الفاسقين ، ولو أراد كاتب أن يصف رذائلهم الوحشية لخرج من طور المؤرخ ليدخل فى طور القادح الهاجى » .

وتوالت بعد ذلك الحروب بين المسلمين والصليبيين ، وقد تم طرد الصليبيين من القدس على يد صلاح الدين الأيوبى ، ودخل صلاح الدين القدس وأسر ملكها سنة ١١٨٧م وأنهى سلطان الصليبيين عليها ، ولكنه — كما يقول غوستاف لوبون — « لم يشأ أن يفعل فى الصليبيين مثل ما فعله الصليبيون الأولون فى المسلمين ، وقد وجد هؤلاء فى حماه أمنـا وسلاما » .

وانزعج ملوك أوربا لاسترداد المسلمين للقدس ، وتألفت حملة ضخمة سنة ١١٨٩ يقودها أقوى ملوك أوربا وهم فيليب أوغسطس ملك فرنسا وفردريك بارباروس قيصر ألمانيا ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ولم يكن لهذه الحملة من أثر إلا القتل والتدمير فى أثناء الانتصارات الصغيرة التى كان يحرزها المهاجمون .

ومن الحملات التى قادها ملوك أوربا أيضا الحملة التى قامت من فرنسا بقيادة ملكها سانت لويس سنة ١٢٤٨ ، وقد اتجهت هذه الحملة الى

الاستيلاء على مصر ، ولكن الجيش المصرى هزمها وأسر الملك وسجنه فى دار ابن لقمان بالمنصورة •

وبعد مائتى سنة من الصراع المرير والضحايا التى لا تعد ولا تحصى ، استطاع المسلمون أن يستردوا بلادهم من الصليبيين السفاكين ، وقد بدأت انتصارات المسلمين تتضح على يد نور الدين زنكى (١١٤٩ — ١١٧٤ م) وجاء بعده صلاح الدين الأيوبى فحقق أعظم انتصارات المسلمين وبخاصة بمعركة حطين (١١٨٧) التى أدت للاستيلاء على عكا ونابلس والرملة ويافا وبيت المقدس التى سقط ملكها أسيرا فى أيدى المسلمين كما سبق ، وفى عهد السلطان بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) تهاوت المستعمرات الصغيرة التى بقيت للصليبيين على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وفى سنة ١٢٩٢ م سقطت آخر مدينة لاتينية فى يد ملك مصر السلطان الأشرف خليل ، وانتهى بذلك هذا الصراع الذى شنته أوربا المسيحية على مسلمى الشرق (١) •

وبعد ، هل كان المقصود بهذه الحروب الاستيلاء على القدس لأنها كعبة المسيحيين ؟

فلماذا إذاً كان الذبح والتقتيل والإبادة ؟

ولماذا استولى المسيحيون على غير القدس من أملاك إسلامية وأسسوا إمارات أربعة فى الشام ؟

ولماذا وجهت بعض الحملات الصليبية للاستيلاء على مصر ؟ وعلى تونس ؟

لا ، لم يكن الغرض الاستيلاء على القدس ، وإنما كان الغرض تدمير الاسلام والقضاء على المسلمين •

---

(١) اقرأ عن الحروب الصليبية فى الجزء الخامس من موسوعة « التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » للمؤلف .

أوربا والتتار والمسلمون :

تعوّد المؤرخون بعد الحديث عن الحروب الصليبية أن يتساءلوا : لماذا فشلت أوربا فى هذه الحروب ؟ ولماذا توقف ملوك أوربا عن مد يد العون إلى الأمراء الصليبيين وهم يهوون تحت أقدام المسلمين الواحد بعد الآخر ؟ ويجيب المؤرخون بأجوبة مختلفة حسب اتجاهات هؤلاء المؤرخين وظروفهم ، ولكن خطرت لى فكرة لم أر أحدا من المؤرخين ذكرها ، وقد أوحت لى بهذه الفكرة تلك التواريخ المتسلسلة لكبار الأحداث التى وقعت فى العالم الاسلامى فى هذه الأثناء ، فعندما وضعت هذه التواريخ أمامى ظهر أن النشاط الصليبى بدأ سنة ١٠٩٧ وامتد طيلة القرن الثانى عشر والثالث عشر ، وأن زحف التتار المدمر بدأ على العالم الاسلامى فى مطلع القرن الثالث عشر ، وأن هولاكو استولى على بغداد سنة ١٢٥٨م وأعمل السيف فى رقاب المسلمين ، ودمر الحضارة الاسلامية فى عاصمة الخلافة ، وفى نفس ذلك الوقت كانت تسقط الامارات الصليبية فى أيدى المجاهدين المسلمين كما سبق القول .

الا يمكن أن نفكر أن عناية الصليبيين الأولى كانت متجهة إلى القضاء على الاسلام وسحق المسلمين كما ذ... ذلك من أقوال الكثيرين منهم ، فلما رأوا أن زحف التتار على العالم الاسلامى يحقق لهم هذه الغاية بنفس القسوة وروح التدمير التى يريدونها ، أغناهم ذلك عن مواصلة بذل الجهد من جانبهم ، وقنعوا بهذا السيف الحاد الذى تسلط على رقاب أعدائهم المسلمين . وأسال دماءهم أنهارا ، وأعمل كل ضروب التخريب والتدمير فى جميع نواحى الحضارة الاسلامية ؟

قد يوافق المؤرخون على أن يعدوا هذا سببا من الأسباب المهمة التى جعلت ملوك أوربا يتوانون عن مساعدة ذويهم ، وقد لا يوافقون ، ولكنى أميل الى أن أعتبر هذا سببا ذا بال من الأسباب الرئيسية التى أوقفت زحف الصليبيين على الشرق الأوسط ، فلما دخل التتار الإسلام

وأصبحوا بعض أتباعه ، عادت أوربـا تتحفز من جديد ، وتعد العـدة لاستئناف نشاطها الحربى على العالم الاسلامى ، واتجهت فى هذه المرة إلى الهجوم على تركيا زعيمة العالم الاسلامى وموطن الخلافة الاسلامية آنذاك ، والهجوم كذلك على ما تبع تركيا من ممالك إسلامية أخرى (١) .

تركيا والغرب :

شهد القرن السادس عشر الميلادى دولة إسلامية كبرى هى تركيا : تقيم إمبراطورية اسلامية من أكبر الامبراطوريات التى عرفها التاريخ ، ويأخذ سلطانهـا لقب الخليفة ومنصب الخلافة ، ويضم إليـه الجزيرة العربية ومصر والشام والعراق وشمال إفريقية أو أكثره ، وشهد هذا القرن تلك الامبراطورية الاسلامية القوية المتحدة تهدد أوربا ، وتحتل منها مـا يعـرف الآن برومانيا وبلغاريا واليونان ويوغسلافيا وألبانيا والمجر ، وتجعل كلا من البحر الأسود والبحر الأبيض بحيرة إسلامية ، وشـهد

---

(١) الأبحاث التى وردت فى صلب الكتاب هى نص ما احتوته الطبعة الأولى ، وقد اطلعت بعد ذلك على كتاب :

Kirk : A Short History of the Middle East.

وفى (ص ٧٦) منه ما يفيد أن الصليبين حاولوا أن يتصلوا بالتتـار ويعقدوا معهم حلفا ضد المسلمين للغرض المشترك ، يقول Kirk :

وعندما اكتسح التتار البلاد الاسلامية كان الصليبيون قد وصلوا الى حالة من الضعف قربت نهايتهم . وقد حدث عند ذلك ما تتمثل فيـه عقلية الخطط السياسية الملتوية التفكير ، فقد تراءى لمدبرى السياسة المسيحية فى ذلك الوقت أن يبرموا مع أولئك القوم الوحشيين تحالفا ضد المسلمين ، فأوفد البابا انوسنت الرابع من قبله جون دبيانو John de Piano فى مهمة سياسية الى منغوليا سنة ١٢٤٥ ، وبعد ذلك بثلاث سنوات أوفد لويس التاسع المعروف بالناسك وليم روبرد كوى William of Rubruquis الى بلادهم ولكن البعثتين باءتا بالفشل .

ونعود الى كلامنا فنقرر انه عندما فشل مشروع التعاون بين الصليبيين والتتار ، رأى الصليبيون أن التتار وحدهم يوفون بالغرض ، فتركوا الميدان لهم ، وتوقفت عون أوربا لجماعات الصليبيين .

القرن السادس عشر اسم الخلافة العثمانية وهو مصدر رعب لدى الدول الأوربية ومبعث خوف وذعر للمسيحيين الغربيين ، وقد ذكرنا هذا لمحة من قبل .

فماذا فعل الغرب أمام هذه الامبراطورية الاسلامية الكبرى ؟

يقول الأستاذ محمد حبيب أحمد (١) : تألبت الدول الأوربية على الخلافة الاسلامية ، واجتمعت كلمة المسيحيين على الوقوف فى وجه التيار الاسلامى الجارف ، وعقدت المعاهدات وتضافرت القوى لهذا الغرض ، وكان من سوء حظ الخلافة الاسلامية أن ظهرت هذه الحركة الأوربية فى وقت كان سلاطين آل عثمان قد انغمسوا فى الترف ، واستسلموا للدعة والنعيم .

وقد اتخذ الصراع ضد تركيا شكلا دينيا واضحا ، إذ تكوّن ضدها « حلف مقدس » من النمسا ومن بولندة والبندقية ، وكان لهذا الحلف أثر كبير فى التغلب على تركيا وضعضعة قوتها ، ثم دخلت روسيا باسم الدين هذه الحرب تؤيدها جميع الدول المسيحية ، وأنزلت بالخلافة الاسلامية ضربات قاصمة وخسائر فادحة ، وكانت نتيجة هذه الأحداث أن هوت تركيا من شاهق وهان أمرها ، حتى أصبحت تعرف « بالرجل المريض » ، وكان من الممكن القضاء على « الرجل المريض » بسرعة لولا اختلاف دول أوربا على تركته ، فمَنْ الذى يرث بوغازى الدرنيل والبسفور ؟ إن ورثتهما روسيا امتد نفوذها إلى البحر المتوسط وهددت مصالح انجلترا وفرنسا ، وإن ورثتهما انجلترا خنقت روسيا فى البحر الأسود ، وحلاً لهذه المسألة اتفقت الدول على ألا تجهز على « الرجل المريض » وأن تبقيه على قيد الحياة لا حرصا عليه ، ولكن كراهة لما سينجم من خلاف حول ميراثه (٢) .

(١) نهضة الشعوب الاسلامية ص ١٦ .

(٢) انظر ما كتبناه عن « المسألة الشرقية » فى الجزء الخامس من موسوعة : التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية .

استعمار الدول العربية :

على أنه إذا كان التنافس بين الدول المسيحية أبتى البوسفور والدرنيل فى يد تركيا ، فإن هذه الدول تخطفت كثيرا عن ممتلكات « الرجل المريض » بعد أن جعلته فى حالة يعجز فيها عن الدفاع عن هذه الممتلكات ، وهكذا حطم الغرب المسيحى الخلافة العثمانية . واستولى على الأقطار العربية ، التى كانت تكوّن أبرز جزء فى جسم الخلافة .

وهكذا احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وتونس سنة ١٨٨١ ومراكش سنة ١٩١١ ، وأخذت الدول لفرنسا فاحتلت لبنان سنة ١٨٦٠ ثم احتلت سوريا سنة ١٩١٨ .

واحتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ .

واحتلت إيطاليا طرابلس سنة ١٩١١ . .

واحتلت انجلترا العراق سنة ١٩١٧ ثم فلسطين عقب ذلك .

وامتد نفوذ بريطانيا كاملا إلى الحجاز حيث حالف الشريف حسين الغرب ضد تركيا .

وقبل ذلك كانت بريطانيا قد سيطرت على أكثر المدن الساحلية فى الجزيرة العربية وأخضعت لنفوذها وحمايتها مستعمرة عدن وسلطنة مسقط وعمان ، ومشيخات الكويت وقطر والبحرين ، وعن طريق هذا الساحل بدأت بريطانيا ، تهدد اليمن والمملكة العربية السعودية ، وقد اتخذ هذا التهديد شكلا أقوى عندما ظهر البترول فى المملكة السعودية فاحتلت بريطانيا واحة البريمى ، إذ كرهت أن تجاورها دولة تهدد نفوذها فى هذه البقاع .

ولم يكن سقوط أكثر الدول العربية فى أيدى بريطانيا وفرنسا مصادفة ، ولا كان بسبب الحرب العالمية الأولى التى هزمت فيها تركيا مع ألمانيا ، وإنما كان ذلك خطة مرسومة ، وسياسة موضوعة ، اتفقت عليها

الدولتان ، ففى سنة ١٩٠٤ عقدت الدولتان اتفاقا سريا يطلق يد فرنسا فى الشمال الأفريقى وفى سورية ولبنان ، مقابل إطلاق يد إنجلترا فى مصر وفلسطين .

ولكن هذا كله لم يضع حدا لعدوان الغرب على تركيا ، ويرى كثير من الباحثين أن من الأسباب الهامة التى دفعت مصطفى كمال إلى إلغاء الخلافة ، أن أوربا المسيحية واصلت هجومها على تركيا وكانت ترى فى لقب الخلافة رابطة يمكن أن تجدد قوة الشعوب الاسلامية وتعاونها ، فأرهقت تركيا هجوما وإيذانا ، ولم تكف عن تركيا حتى ألغت الخلافة ، وألغت المدارس والمؤسسات الدينية ، ثم رفعت من دستورها النص على أن « دين الدولة هو الاسلام » وعندئذ فقط بدأت تركيا تأمن شر العدوان المسيحى .

أما البلاد الاسلامية التى وقعت تحت سلطان المسيحيين الأوربيين فقد عانت ضروبا من الهوان ، مزق هؤلاء شملها وأنزلوا بها الذل والاستعباد ، ونشروا الجهل والخرافات وسلبوا مواردها ، وتركوا الشعوب فقيرة جائعة ، ولقى الأحرار والمفكرون أسوأ المصائر فى هذا الظلام القائم ، لقوا الحتف والسجن والنفى والتشرد ، وأنفقت ثروات هذه البلاد على المبشرين الذين يحاربون الاسلام ويحسنون للناس اعتناق المسيحية .

الحركة الصليبية تزرع الصهيونية بفلسطين :

ولاقت فلسطين أسوأ المصائر ، فقد أصدر الإنجليز وعد بلفور وشجعوا هجرة اليهود ، ولم يخرجوا منها إلا بعد أن أسلموها لليهود لقمة سائغة ، وقد أوضحنا فى كتابنا « اليهودية » والجزء الخامس من موسوعة « التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » ظروف المؤامرة التى حاكها الانجليز باسم اليهود للقضاء على عروبة فلسطين ، وسلب هذه البقعة من العالم العربى ، لتكون مركزا استعماريا فى الحزام الاستعمارى الذى يفرضه الغرب على الكرة الأرضية ...

تحرر العرب يفزع الغرب :

واستطاعت الدول الاسلامية أن تحصل على استقلالها بعد كفاح مرير ، ولكن عدوان المسيحيين الغربيين لا يزال قائما على أشده يتلمس السبيل للفتك بالمسلمين الوادعين ، وقد تعرضت مصر سنة ١٩٥٦ إلى حملة جديدة قوامها الحديد والنار صبها الغرب ، لا لشيء إلا لأن مصر أرادت أن يكون استقلالها كاملا لا تشوبه شائبة (١) وتعرضت مصر كذلك لقوة الولايات المتحدة وأسلحتها عندما استطاعت أن تحقق نصراً على أسرائيل سنة ١٩٧٣ .

بريطانيا والهند :

عندما نتحدث عن اضطهاد أوربا المسيحية للمسلمين ، يعترض بعض الناس بقولهم إن الهند عانت اضطهادا طويلا من بريطانيا مع أن الأغلبية الساحقة من سكانها غير مسلمين .

نعم عانت الهند اضطهادا مريرا من بريطانيا امتد بضعة قرون ، ولكن الباحث المدقق يدرك أن العداء كان موجها إلى الهند لأنها كانت مركزا إسلامياً ، لقد كانت الهند دولة أو دولا إسلامية قبل الاحتلال البريطانى ، فاتبع البريطانيون نفس السياسة المسيحية المرسومة وهى القضاء على القوى الاسلامية أيا كان مقرها ، وهكذا اجتاحت القوى البريطانية شبه القارة الهندية .

ولما استقرت القوات البريطانية فى الهند ظهرت الجماعة الهندوكية التى لم تعتنق الاسلام ، وحينئذ اتجه التدمير الاستعمارى إلى مسلمى الهند أكثر من غيرهم ، وهنا نترك الكلمة إلى كاتب (إنجليزى) هو السير وليام هانتر Sir William Hunter الذى كتب يحذر الإنجليز نتائج السياسة الحمقاء التى اتبعوها ضد مسلمى الهند ، قال :

---

(١) كتبت هذه السطور فى اثناء ازمة قناة السويس وحملة انجلترا وفرنسا واسرائيل على بورسعيد فى نوفمبر سنة ١٩٥٦ .

« ولقد عاش ملايين المسلمين فى الهند بعد سقوط دولة المغول فى تعاسة وشقاء بعد أن فقدوا كبرياءهم وأملاكهم وقوتهم ، وكانوا مُبعَدون عن الادارة والمناصب اللهم إلا المراكز التافهة •

« وإنه لن يجدينا نفعا أن نصم آذاننا عن هذه الحقيقة الماثلة من أن المسلمين الهنــود لهم الحق فى مقاضاتنا عن الأمــور الخطيرة التى ارتكبناها ضدهم ، والتى لم ترتكبها حكومة من الحكومات ؛ إنهم يقاضوننا عن إغلاق كل حياة كريمة فى وجوه الأعلام منهم • ويقاضوننا كذلك عن نظام التعليم الذى يجعل معظم مجتمعهم فى حضيض الفاقة والبؤس ، ويقاضوننا أخيرا عن عدم المساهمة الفعالة فى ميزانية التعليم الخاص بهم » •

وكان الهندوس كلما مسهم شىء من جور المستعمر وعسفه يزدادون سخطا على المسلمين ، مقررين الحقيقة الهامة وهى أن الاستعمار لم ينزل بلادهم إلا متتبعا للاسلام والمسلمين ، وأنه لولا وجود المسلمين فى الهند لما لاقت الهند من بريطانيا ما قاسته من عنت وإرهاق •

ويقول الأستاذ محمد حبيب أحمــد (١) : واستطاعت الســياسة البريطانية أن تســتغل الظروف المحلية فتوسع الهوة بين قسمى الهنــد الرئيسيين : الهندوس والمسلمين ، وقد ابتدأ البريطانيون سياستهم فى الهند باضطهاد المســلمين ، إذ أنهم كانو ســادة البلاد ، الذين نظموا المقاومة التى انتهت بثورة سنة ١٨٥٧ وهم الذين نشروا الدعاية الحادة ضد الاحتلال البريطانى لبلادهم •

وقد نُفّذت فى الهند نفس السياسة التى نُفّذت فى دول الشرق الأوسط : تمزيق البلاد إلى إمارات وأقاليم ، ونشر الجهل والخرافات ، وكانت الهند كما يقول المؤرخون درة التاج البريطانى ، ولكن سكان هذه

---

(١) نهضة الشعوب الاسلامية ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .

الدرجة كانوا يعانون الجوع والحرمان لتتهيأ للتاج البريطانى ألوان الرخاء والترف •

يقول الدكتور عمر فروخ تحت عنوان تراث الاستعمار (١) :

المستعمر لا يريد أن يعلّم أبناء البلاد الخاضعة له ، وإذا اضطر إلى أن يعلمهم علمهم ما يضرهم أكثر مما ينفعهم ، عن أجل ذلك لا نستغرب إذا علمنا أن الانجليز لما غادروا الهند كان عدد الأميين ٨٨٪ من مجموع أربعمائة مليون نفس ، أما ماعدا الأميين وهم ١٢٪ من السكان فكان منهم ٢٪ تعلموا شيئا من اللغة الانجليزية ، وأما العشرة فى المائة فلم تكن ثقافتهم تتعدى قراءة شىء فى لغاتهم المحلية ، أما تعليم البنت فلم تتجاوز اثنتين فى الألف ، وحتى هؤلاء كان نصيبهن من التعليم ضئيلا •

هولندا وإندونيسيا :

كان الأستاذ إحسان عبد القدوس أحد الصحفيين المصريين الذين رافقوا جمال عبد الناصر فى رحلته لمؤتمر باندونج سنة ١٩٥٥ • وقد كتب الأستاذ إحسان فى المجلة التى يرأس تحريرها مقالا عنوانه « جنة المساكين » والعنوان قوى الدلالة على ما يحويه المقال ، ثم أتيح لى أن أعيش فى إندونيسيا أستاذا للدراسات الاسلامية واللغة العربية بالجامعة الاسلامية الحكومية ، ومديرا للمركز الثقافى العربى بجاكرتا • وهكذا عشت بنفسى فى الجنة • وعشت بنفسى مع المساكين ، وأنا أكتب هذه السطور فى أحضان هذه الجنة الوارفة وبين أكتاف هؤلاء المساكين •

أما الجنة أى إندونيسيا فقد منحها الله وأضفت عليها الطبيعة جمالا شاملا يعجز البلغاء والفنانون عن تصويره ، وكنت فى الحقيقة أحسب قلمى يستجيب لى ، ولكنه عند وصف الطبيعة فى إندونسيا لا يستجيب أو

---

(١) باكستان : دولة ستعيش ص ٧٠ •

لا يوفى بما يلزم أن يقوم به : جلست مرة مع بعض رفاقى فى أحد الجبال الشامخة بين المناظر الرائعة ، وأصوات الطيور المغردة ، وأمامنا مرتفع خلاب تنبع من بين صخوره المياه ، ثم تنحدر من أعلى فتكون شلالا بديع المنظر ، وتنساب هذه المياه الباردة النقية بين الحشائش والزهور والأشجار محدثة صوتا أعذب من الموسيقى ، قال لى أحد الرفاق : هل تستطيع أن تصف هذا المنظر ؟ وأجبته بسؤال آخر يحمل جواب من أعياه الجواب ، قلت متطلعا الى السماء : يارب ، كيف تكون جنة الخلد ؟

وليس مثل هذا المكان نادرا فى إندونيسيا ، بل إنه ليس قليلا ، إنه حولك أنى تعيش فى هذه البلاد ، فالجبال الخضراء منتشرة فى طول البلاد وعرضها ، بحيث تتمتع كل مدينة بجبل يهرع إليه سكانها من حين إلى آخر كما يلجأ المصريون الى احضان البحر فى شهور الصيف ، لا ، إن الشارع الذى نعيش فيه ليس بعيد الشبه عن الجبال ، وحديقة المنزل تحفة خلقتها الطبيعة ، والقرية الصغيرة الوداعة لا تعرفها بمنازلها ومبانيها ، وإنما تعرفها بالأشجار الباسقة التى اختبأت بينها الدور وتوارت خلفها البيوت .

وليس فى إندونيسيا صيف ولا شتاء ، ولكنه ربيع دائم طول العام ، ربيع بنسيمه وأزهاره وجوه الذى لا تشكو فيه حرا ولا تحتاج فيه إلى دفء ، وكنت مرة فى بلدة صولو واشتدت الحرارة قليلا ، فدعانى مضيفى إلى الذهاب الى بيته فى الجبل (توانج ما نجو) فلبيت الدعوة ، وركبنا السيارة الى الجبل ، وبدأت الحرارة تقل رويدا رويدا والسيارة تتسلق هذا الجبل الشامخ ، وبعد رحلة لم تتجاوز ساعة واحدة ألفيتنى أقشعر من البرد ، وتوشك أسنانى أن تصطك ، فأشعل مضيفى لنا النار .

قلت لمضيفى : تنقلنى من الصيف الى الشتاء فى ساعة واحدة .

قال مضيفى : هل تحب أن تعود للصيف ؟

قلت : لا ، ولكنى أرجوك أن تشترى لك منزلا فى منتصف الطريق بين الصيف والشتاء ، منزلا يمثل فصل الربيع .

وتكثر الفواكه فى اندونيسيا كثرة شاملة ، وتجود جودة نادرة ، أما أثمانها فمنخفضة بحيث أنها فى متناول الفقير والغنى ، وفى اندونيسيا أنواع من الفاكهة لم أرها فى غيرها من البلدان على كثرة ما زرت من أقطــار ، وهناك فاكهة يمكن أن يقال انها مشاع بين الراغبين أيا كان مالكها الحقيقى ففى حديقة منزلنا بجوكجا شجرة جوافة ، وطالما تسلقها أبناء جيراننا على مرأى ومسمع منا ، ليأخذوا من ثمارها ، وكانت هذه سياسة متبعة مع كثير من الأشجار الماثلة فى حدائق البيوت المجاورة ! .

لست أحب أن استطرد فى الحديث عن هذه الجنة فالحديث عنهــا مجال آخر فى الجزء الثامن من موسوعة « التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » ، حيث تكلمت عن اندونيسيا ضمن الدول الإسلامية غــير العربية ، فلأرفع القلم الآن عن الحديث عن الجنة . لأتكلم كلمة قصيرة عن المســاكين .

يــرى الرأى ملايين البشر فى بعض الصحارى القاحلة والبلــدان الفقيرة ، مستهم الفاقة وأضناهم العوز ، فلا يعجب الانسان لمرآهم ، ذلك لأن الطبيعة حولهم قاسية ضنت بخيرها أو نضب ، ولكن الدهشة تملأ الانسان حينما يرى اندونيسيا تزدحم بالمساكين بين هذه الخيرات التى تهطل من السماء ، والمعادن التى تختفى فى جوف الأرض ، والزروع والثمار التى تغطى سطحها ، واللآلى ، والأسماك التى تنتشر فى البحار المحيطة بها . لو كان فى اندونيسيا ذلك البرد القارس الذى تشهده أغلب دول العالم فى الشتاء لهلك من هذا البرد آلاف الأندونيسيين الذين لا يستطيعون الحصول على لباس يقيهم وطأة البرد أو فــراش دفىء يلجئون اليــه من زمهرير الشتاء . ولكنه الاحتلال فى كل زمان ومكان ، يضمن للمحتل العيش الهنىء ويفرض على أصحاب البلاد البؤس والحرمان .

وقصة احتلال اندونيســيا ترتبط ارتباطا واضحا بقصة انتشــار الاسلام فى هذه البلاد ، ومن الواضح أن هناك فرقا بين دخول الاسلام

فى اندونيسيا وبين انتشاره فيها ، وعلى الرغم من أن هذا الموضوع كـان غامضا حتى عهد قريب فان الدراسات الحديثة التى قمت بها وقام بها غيرى من الباحثين قد وضعت أمامنا ضوءا كافيا أشار لى السبيل عندما تحدثت عن اندونيسيا فى المرجع الذى أشرت اليه آنفا ، وليس هنا مجال تفصيل موضوع دخول الاسلام اندونيسيا وتطوره بها وانتشاره فيها ، لكنى أكتفى بأن أقرر أنه عندما بدأ الاسلام يطبع إندونيسيا بطابعه ، وعند ما أصبح من الممكن أن نعد إندونيسيا دولة اسلامية سارع الاستعمار المسيحى الغربى فامتد لها ، وكان ذلك فى آخريات القرن السادس عشر ، ومطلع القرن السابع عشر ٠

وكانت هناك منافسه بين هولندا وبريطانيا على احتلال هذه البقاع التى تشمل جزر اندونيسيا وتشمل كذلك شبه جزيرة الملايو التى لا تختلف عن اندونيسيا فى طبيعتها ولا فى ظروف انتشار الاسلام بها ، ولكن الخلاف بين هولندا وبريطانيا حُسِمَ على النحو الذى حُسِمَ به الخلاف بين بريطانيا وفرنسا فيما يتعلق بالتنافس فى السيطرة على دول الشرق الأوسط ، ففى سنة ١٨١٦ اتفقت الحكومتان على حسم النزاع بينهما بتحديد الاختصاص وتوزيع مناطق النفوذ ، فأخذت بريطانيا شبه جزيرة الملايو ، وأخذت هولندا الجزر الأندونيسية ، وكان ذلك غنما للدولتين ، فإن هولندا سعدت بتفردها بحكم هذه الجزر الغنية كما سعدت انجلترا بتفردها بحكم شبه جزيرة الملايو حيث أتاح لها ذلك بأن تسيطر على مضيق « ملقا » مفتاح الشرق الأقصى ٠

واستمر بعد ذلك تعاون الدول المسيحية ضد اندونيسيا ، فكلما قامت فيها حركة استقلالية تجمعت قوى الدول الأوروبية وبخاصة انجلترا وفرنسا لإخمادها ، ومن أهم حركات التحرير التى اشتعلت فى اندونيسيا تلك الحركة التى هبت سنة ١٩٢٦ يؤيدها إضراب واسع واضطرابات صاخبة زلزلت أقدام المستعمر ، ولكن النجدة سرعان ما جاءت من انجلترا وفرنسا فأحبطت محاولة المواطنين لنيل حريتهم ٠

وفى الحرب العالمية الثانية زحفت اليابان على إندونيسيا فغرّت من وجهها القوات الهولندية ، وبخاصة أن دول أوربا كانت مشغولة فى صراعها مع ألمانيا فلم تستطع أن تقدم لهولندا أى عون ، وبالتالى لم تستطع هولندا أن تقف وحدها .

وهزمت اليابان واستسلمت ، ولكن الدول المسيحية فرضت عليها ألا تسلم إندونيسيا للوطنيين ، ولم ينتظر الوطنيون أن تسلمهم اليابان بلادهم ، بل عمدوا إلى أن يأخذوها بجهادهم ودمائهم ، وأعلن زعيما إندونيسيا « سوكارنو » و « حتى » استقلال بلادهم فى ١٧ أغسطس سنة ١٩٤٥ ، وهنا نترك الكلمة للأستاذ المؤرخ محمد حبيب أحمد الذى يقول : ولكن دولة الاستعمار الأولى فى العالم — وهى بريطانيا — لم تقبل الأمر الواقع ، ونصبت نفسها ، وجندت جهودها للوقوف فى وجه الحركة الاستقلالية فى البلاد . . . وفى ٢٦ سبتمبر تحركت قطع من الأسطول البريطانى من سنغافورة وقصدت إندونيسيا بحجة تجريد اليابانيين من السلاح ، ولكن سرعان ما ظهر الغرض الحقيقى من الحملة وهو تمكين القوات الهولندية من دخول البلاد ، ولما هاج الإندونيسيون لذلك هددت بريطانيا بضرب مدينة سورابايا ثانية المدن الإندونيسية بقنابل الأسطول إذا لم يسلم الإندونيسيون أسلحتهم ويتركوا للهولنديين حرية النزول ، ولما لم يقبل الوطنيون الإنذار تحولت سورابايا إلى جحيم ملتهب (١) .

وكتب للوطنيين النصر بعد صراع مرير وفيض من الدماء ، أسهمت فيه جزيرة كليمنتان وحدها بأربعين ألف قتيل فى مجزرة واحدة من المجازر التى قام بها المستعمرون سنة ١٩٤٨ ، ولكن هذه الآلاف ماتت لتحيا الملايين ، إذ أدركت الدول الأوربية ألا مناص لها من الاستسلام أمام بسالة الشعب الإندونيسى ، وتأييد الدول الاسلامية وشعوبها ، غير أن الدول المسيحية حين خضعت وسلمت الدار لأصحابها ، عمدت الى

---

(١) نهضة الشعوب العربية ص ٤١٩ — ٤٢١ .

مفتاح فأبقته فى يدها ، أو قل عمدت إلى زاوية من البيت واستقرت فيها آملة أملا نرجو أن يتلاشى ، وتلك الزاوية هى إيريان الغربية التى لا تزال فى يد هولندا ، وشمال كليمنتان وتحتله بريطانيا (١) .

وقد قامت بريطانيا بنفس هذا التصرف فى الملايو ، فعندما اضطرت إلى منحها الاستقلال اقتطعت ميناء سنغافورة ، وأبقت لنفسها السيطرة عليه ، وقد انضمت سنغافورة بعد ذلك الى اتحاد (ماليزيا) ثم استقلت عنه (١٩٦٦) وكونت جمهورية سنغافورة .

أما سيرة هولندا فى سياسة إندونيسيا فيلخصها الأستاذ حبيب بقوله :

ولجأت هولندا فى سياسة اندونيسيا الى الضغط والإرهاب والكبت واتخذت من التعليم ، وفى ركابه التبشير ، وسيلة لفتنة البلاد ، وظنت أن الأمر قد يستتب لها بتخريج جيل أو أجيال من الشباب المفتون عن دينه ، المبعد عن فهم قوميته ، ولكن حساب الاستعمار قد أخطأ (٢) .

فارس وأفغانستان بين روسيا وبريطانيا :

هناك ظروف متشابهة أحاطت بكل من فارس وأفغانستان ، وجعلت الحديث عنهما يمكن أن يجرى تحت عنوان واحد ، وقد نشأت هذه الظروف المتشابهة بسبب موقع البلدين ، فإيران تتصل من ناحية الشمال بروسيا وتتصل من ناحية الشرق بالهند (باكستان الغربية الآن) وكانت بريطانيا الى عهد قريب تحتل الهند ، فكانت روسيا تخشى أن يمتد سلطان بريطانيا من الهند الى ايران ، فتقف بريطانيا وجها لوجه أمام روسيا تهدد مصالحها وحدودها ، ومن جهة أخرى كانت بريطانيا تخشى أن يمتد

---

(١) انتهت مشكلة ايريان الغربية وتسلمتها اندونيسيا فى ابريل سنة ١٩٦٢ ، وتحرر شمال كلمنتان من النفوذ البريطانى ، واندمج فى اتحاد الملايو الكبير (ماليزيا) ثم تحرر الجزء الذى بقى مع بريطانيا ، وأعلن استقلاله فى الثمانينات باسم « دولة بروناى » .

(٢) نهضة الشعوب الاسلامية ص ٤١٤ .

الخطر روسى عبر إيران إلى الهند ، تلك التى كانت ألمع درة فى التاج البريطانى .

وقبل أن تزول هذه الدرة من التاج البريطانى ، وُجِدَ فى إيران نفسها مطمع انجليزى جعل حرص بريطانيا عليها مستمرا على الرغم من استقلال الهند ، وذلك المطمع هو حقول البترول التى تديرها الشركات الانجليزية .

ولأفغانستان موقع مماثل إن لم يكن أشد قسوة ، وذلك لطول الحدود الشمالية بين أفغانستان وروسيا وطول الحدود الشرقية بينها وبين الهند .

ولعل فزع بريطانيا من أفغانستان كان أشد من فزعها من إيران ، ذلك لأن هناك بعض القبائل الاسلامية تسكن فى الشمال الغربى من الهند ، وتربطها بالأفغان روابط قوية ، وكانت انجلترا تخشى أن تتحالف هذه العناصر الاسلامية على غزو الهند ، وبخاصة أن لأفغانستان سابقة فى السيطرة على الهند أيام السلطان محمود الغزنوى .

هل كان خيرا أو شرا أن وقعت فارس وأفغانستان بين روسيا وبريطانيا ؟

الاجابة حاسمة فوقوع دولة صغيرة مسلمة بين دولتين كبيرتين مسيحيتين (روسيا القيصرية وبريطانيا) وكل منهما عَدوةٌ للدول الاسلامية وشديدة الحرص على مصالحها الخاصة ، كل هذا يبين لنا عدم الاستقرار وروح الفزع والخوف التى سيطرت على الدولتين الاسلاميتين ، ولم تقف المسألة عند روح الفزع ، بل تعدتها فى ظروف كثيرة إلى اشتباكات حربية واقتحام حدود الدولتين الاسلاميتين مما يبين أن وقوع هاتين الدولتين بين عدوتين قويتين كان الى جانب الشر أقرب ، على أن روسيا وبريطانيا كانتا أحيانا تجدان حلا يرضى الروح الاستعمارية فيهما ويحول فى الوقت نفسه دون حدة العداء بينهما ، فهما تارة تقتسمان النفوذ فى

ايران على النحو الذى سقناه عند الحديث عن الشرق الأوسط وعن إندونيسيا والملايو ، وتارة تقتسمان رقعة إيران •

ومن اقتسام النفوذ تلك المعاهدة السرية التى أبرمت سنة ١٩٠٧ بين روسيا وبريطانيا ، وفيها وافقت الدولتان على أن يكون النفوذ فى شمالى إيران للروس وفى الجنوب لبريطانيا ، ومن صور الاحتلال ما حدث فى الحربين العالميتين الأولى والثانية من نزوات القوات البريطانية فى جنوب إيران والروسية فى شمالها ، وهذا يؤكد المتاعب التى عانتها كل من الدولتين الاسلاميتين وبخاصة ايران بسبب موقعهما الجغراق •

اللادينية الروسية وأثرها :

وقد اتجه الاتحاد السوفيتى الى اللادينية منذ سنة ١٩١٧ ولكن ذلك لم يخفف صراع هذه البلاد للاسلام ، بل ربما ضاعفه ، لأن الاسلام هو القوة الوحيدة التى تهز أركان اللادينية •

ومع اللادينية اقتحم الاتحاد السوفيتى بلادا غالية على المسلمين جميعا هى « افغانستان » فى ديسمبر سنة ١٩٧٩ ، وكان الاتحاد السوفيتى قد أقام بأفغانستان حكومات موالية له ، أريق بواسطتها دماء الآلاف من المسلمين الأبرياء ، ولم يقتنع الاتحاد السوفيتى بالحكومات الموالية له ، بل اقتحم البلاد وسيطر عليها فأثار ثائرة المسلمين فى كل مكان ، وقامت حركات مقاومة نرجو لها كل توفيق ، وقد شرحنا ذلك بإفاضة فى الجزء الثامن من موسوعة التاريخ الاسلامى •

الصهيونية (إسرائيل)

وأقسى الطعنات التى قام بها الغرب المسيحى ضد المسلمين هـو زرع إسرائيل فى قلب العـالم العربى والإسلامى فقـد عاش الغـرب مدداً طويلـة أو قصـيرة محتلا لبعض المنـاطق بالشرق ، ولم يكن الشرق مكانـا هادئا للغرب ، فلم يجـد الأوربيون راحة فى المنـاطق الاسلامية على الاطلاق ، ومن أجل هذا ، وبسبب المقاومة المسـتمرة ، وبسبب الضغط العالمى كان الغرب يعلن دائما أنه سيجلو عن البلاد ، وجلا فعلا بعد الحرب العالمية الثانية ، أى بعد أن ظهر فى أفق السياسة العالمية الدولتان العظيمتان : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، فما كان لانجلترا وفرنسا وهولنـدا والبرتغال أن تستعمر العالم أمام هـذين العملاقين ، فالذئاب لا تمرح فى الغابة اذا وجدت الآساد .

. . . . .

ولما كان الغرب يوقن أن يوم جلائه سيجىء ، فقـد فكر فى بديل الاستعمار ، على أن يكون البديل مقيما بالمنطقة إقامة دائمة ، واهتدى تفكير الغرب الى خلق اسرائيل بهذه المنطقة متخذا من أكاذيب التاريخ وسيلة لتفكيره (١) .

وقد كانت الخلافات حادة ولا تزال كذلك بين الشرق ممثلا فى الاتحاد السوفيتى وأوربا الشرقية ، وبين الغرب ممثلا فى الولايات المتحـدة وأوربا الغربية ، وتزداد الخلافات أحيانا حتى تهدد السلام العالمى .

ولكن هناك نقطة التقى فيها الشرق والغرب وتعاونا أعمق التعاون كيداً للاسلام والمسـلمين ، تلك هى زرع اسرائيل فى منطقـة الشرق الأوسط ، واختيار مكان خطير لهـا لترتبط حدودها مع مصر وسـوريا ولبنان والمملكة الأردنية الهاشمية والمملكة العربية السعودية ، واهتمام

---

(١) انظر تفاصيل ذلك فى كتاب اليهودية للمؤلف ص ٩٦ وما بعدهـا من الطبعة الثـامنة .

الشرق والغرب بسلامة اسرائيل يبلغ أقصى المدى ، وتتجه الولايات المتحدة فى ذلك الى درجة المبالغة ، كأن العالم كله فى كفة واسرائيل وحدها فى كفة ، ورجحان كفة اسرائيل فى الاقتصاد والمعدات الحربية والتعاون الثقافى والعسكرى يعد سياسة عامة للولايات المتحدة حتى اذا كان ذلك سيعود بالضرر على مصالح الولايات المتحدة نفسها .

وقد كان من الممكن اختيار مكان آخر لليهود ليعيشوا فيه ويحكموه ، ويكون ذلك مثلا فى استراليا أو نيوزيلاندا أو بعض مناطق افريقية ، ولا شك أن ذلك كان لمصلحة اليهود كالدول التى تعيش الآن بهذه المناطق بعيدا عن الصراع والحرب ، ولكن الغرب لم يكن يرعى مصالح اليهود انما كان يهمه ضرب الشرق الاسلامى بوضع هذا البلاء فى قلبه ، واعتقادى أن ذلك نكاية بالمسلمين واليهود جميعا .

ومن الواضح أن اسرائيل تلعب دورها فى خدمة الغرب بكل إخلاص فهى مصدر قلق وارهاق للمال والشعور والانسان ، وبسببها تتجه الجهود فى المنطقة للاستعدادات الحربية ربما أكثر من الاتجاه لترقية الانسان ولكن الحق أن اليهود أيضا ضحية وان لم يدركوا الآن هذه الحقيقة ، ولا شك أن اسرائيل ليست أقوى من الصليبين وسيجىء يوم تختفى فيه اسرائيل من هذه المنطقة كما اختفت امارات الصليبيين .

* * *

وهكذا كانت الشعوب الاسلامية جميعا ، ولا يزال بعضها حتى الآن هدفا لهجمات قاسية من أوربا المسيحية ، هجمات بربرية كانت ترمى الى التشفى والتنكيل والتدمير ، هجمات أسرفت فى إسالة الدم ، ونبش اللحم وتهشيم العظـــام .

ثالثا : عوامل ينسبها بعض النـاس للدين والدين منهـا براء

نسبت بعض عوامل التخلف للدين والدين منها براء ، ان صلتهـا بالدين ترجع الى ارتباطها بالمسلمين أو بمن يعدون أنفسهم أو يعدهم بعض الناس أنهم رجال الدين ، وليس هؤلاء صورة سليمة للاسـلام الحنيف .

إن الاسلام اشراقة نور للبشرية ، ومطلع خير للجنس البشرى ، وهو دين يضمن لمعتنقيه خير الدنيا والآخرة ، ولا يمكن لدين كهذا إلا أن يكون عاملا قويا من عوامل التطور والرقى ، وقد كان الاسلام كذلك فى العهود الاسلامية الزاهرة ، كان غذاء روحيا ، وكـان دافعا قويا للعمل والانتاج ، وفى ظله قامت دولة اسلامية فسيحة كانت بها من مقومـات المدنية ما لم تعرفه دول من قبل .

كيف إذن نسب لهذا الدين أن يكون عاملا من عوامل الضعف الذى أصاب العالم الاسلامى ؟

نعم تخلف بعض الذين ينتسبون اليه ، وفى عصور الظلام كثر عددهم ، فأخطأ كثير من الناس وظنوا أن التخلف مصدره الدين نفسه ، وكان هـذا الظن انحرافا ظالما وبعداً نائيا عن الحقيقة ، وهذا يقودنا ان نورد بعض نماذج من الاختلاف بين الدين ومن يدعون أنهم أتباعه .

بين الشورى والديكتاتورية :

ذكرنا من قبل أن الاسلام قدم الشورى منحة للمجتمع البشرى ، ولم يكن للبشرية عهد بالشورى من قبل ، وانطلقت الشورى لتكون أسـلوب حياة عند دول مختلفة اقتبستها من الاسلام ، وبينما كان الناس يقتبسون الشورى من الفكر الاسلامى ويتمسكون بها كان العالم الاسلامى يتخلى

عنها ، وظهر فى العالم الاســلامى رؤساء وقادة يدينون بالديكتاتورية العنيفة التى تقتل المواهب والآمال ، وعندما غمر هذا النوع من السياسة أكثر دول العالم الاســلامى ظن الناس أن الاسلام هو مصدر هـذا الاتجاه ، والاسلام برىء من الديكتاتورية والاستبداد .

العدالة الاجتماعية والفروق الاقتصادية الحادة :

وضع الاسلام نظاما اقتصاديا رائعا واجه به المشكلة الاقتصادية وقد أوجزناه من قبل (١) وهو يحمى ثراء الغنى ويحدد مصادره ، ويمنع حرمان الفقراء ، وتلك مواجهة عظيمة لهذه المشكلة التى حيرت الناس عبر القرون ، ولكن سرعان ما تخلى المسلمون عن هـذا الاتجاه ، فحصـل الكثيرون على المال من طرق مشبوهة أو محرمة ، وعانى الفقراء الجوع والحاجة ، ومرة أخـرى ظن بعض الناس أن هذه الحالة ناشئة عـن الاسلام ، وهى فى الحق ناشئة عن اهمال تعاليم الاسلام .

رسول زاهد ورؤساء جشعون :

وكان الرسـول عليه السـلام مثالا فى الزهـد واحتقار الدنيا ، وهذا جذب له الناس لتأكدهم أنه لا يعمل لنفسه ، وقد وصل زهده الى غاية بعيدة تقررها زوجته السيدة عائشة عندما تقول : « إن الرسول لـم يشبع قط ، وكان طعامنا التمر والماء ، وتمر الشهور أحيانا ولا توقـد ببيت الرسول نار لطهو الطعام » وكان زهده فى المسكن كزهده فى الطعام ، وعندما مات لم يترك عقـارا ولا ثراء .

اين هذا مما فعله كثير من الرؤسـاء المسلمين على مر التاريخ ؟ أن أكثرهم اتجه للمال بنهم شديد ، وكثيرون منهم دخلوا الحكم وهم فقراء ، ولم تمض الا سنوات قلائل حتى تكدست الثروات فى أيديهم وأيدى ذويهم .

---

(١) انظر حديثا منصلا عنه فى كتاب « الاقتصاد فى الفكر الاسلامى » للمؤلف .

التطور والجمود :

روى سلمة بن الأكوع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى عام من الأعوام عن الأضحية : من ضحى منكم فلا يصبحن بعد ثالثة وفى بيته من الأضحية شىء . قال سلمة : فأكلنا وتصدقنا حتى ننفذ أمر الرسول .

فلما كان العام الثانى سألنا الرسول : أنفعل بالأضاحى كما فعلنا فى العام الماضى فأجاب : لا ، كلوا وتصدقوا وادخروا ، فان العام الفائت كان بالناس جهد فأردت أن تعينوا على الجهد .

ذلك تطور محمود واستجابة لحاجات العصر وظروف الناس ، وقد سار الخلفاء الراشدون والسلف الصالح على هذا النهج .

وجاء عصر توقف أكثر العلماء عن التفكير فى مصالح الناس ، لا عن عجز فقط ولكن عن ملق أحيانا ليتظاهروا بالورع ، أو عن محاولة لنيل وظيفة أو مركز يخشى ألا يتحقق لمن يجدد ويجتهد ، ومن أمثلة ما جد فى العصر الحديث عن معاملات البنوك والايداع بها وما يسمى شهادات الاستثمار ، فقد توقف أكثر العلماء عن التفكير ، واستسهلوا القول بأنها ربا محرمة ، مع أن مجموعة من علماء المسلمين قالوا بحلها .

للاجتهاد حرمة :

فى الحديث الشريف : إذا اجتهد القاضى وأصاب فله أجران وان اجتهد وأخطأ فله أجر واحد . وعلى هذا فالمجتهد على أسس سليمة يضمن دائما الثواب من الله كفاء جهده ومحاولته للوصول الى الحقيقة .

ويذكر التاريخ مثالا ذكرناه من قبل هو أن رجلا جاء يشكو الى عمر من امر خلال خلافة عمر ، فأحاله عمر الى على بن أبى طالب ، وقضى على فى المسألة برأيه إذ لم يكن هناك نص من قرآن أو حديث يعتمد عليه ، وبعد

فترة التقى الرجل بعمر ، فسأله عمر : بماذا قضى على ؟ فأجابه الرجل ، فقال عمر : لو كنت أنا الذى قضيت ، لقضيت بكـذا .

وكان رأى عمر فى صالح الرجل ، فصاح الرجل به : وما يمنعك والأمر لك ؟ فقال عمر : وكيف أعرف أن رأيى أفضل من رأى على ، لو كنت أردك الى كتاب الله أو سنة رسوله لفعلت ، ولكنى أردك للرأى والرأى مشترك .

ولم يغير عمر من الحكم الذى قضى به على وقد ذكرنا هذه القصة من قبل .

وفى ضوء هذا وجدت المذاهب الفقهية لاختلاف الاجتهاد ، ولكن فى العصور المتأخرة كان كل شخص تقريبا يرى أن رأيه هو الصواب وما سواه خطأ ، وربما هاجم سواه كأنما كان العلم عنده وحده .

وسنعطى مزيدا من التفصيل لما أوجزناه آنفا فى الدراسات التالية :

الاسلام دين كل زمان ومكان :

من القواعد المقررة أن الاسلام دين كل زمان ومكان ، ولكن من القواعد المقررة عقلا أن الاسلام لا يمكن أن يكون كذلك إلا اذا تطور ليعالج مشكلات الناس لتناسب حياتهم فى كل زمان ومكان فى حدود تعاليمه التى وضعها القرآن الكريم ، وفى حدود الإطار الذى يصور خلق المسلم ومبادىء الاسلام ، وليس هذا الاطار مجهولا ولا هذه الحدود مبهمة ، وقد بينها العلماء بيانا شافيا كافيا ، انها التوحيد المطلق وحسن الخلق ، والاستجابة لنصوص الشرع وللعقل السليم ، ثم تحقيق مصالح العبـاد .

والدين الاسلامى يحترم العقل ويدعو للانتفاع به وقد صور القرآن الكـريم ذلك أجمل تصوير ، قال تعـالى :

— أفلا يعقلون (١) .

— كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون (٢) .

— إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون (٣) .

— إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٤) .

— لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل (٥) .

والدين الاسلامى بين الدنيا والآخرة كما سبق القول ، إنه رسالة روحانية ، ورسالة مدنية دنيوية ، شمل الحديث عن الإله ، والجنة والنار ، والبعث والصراط والميزان . كما شمل البيوع والإجازة والرهن والزواج والطلاق والميراث وغيرها ، فاذا ضعف العقل عن إدراك بعض السمعيات لقصور فيه ، أو لبعد هذه الأشياء عن دائرته ، فانه لن يضعف عن إدراك حاجاته الحيوية الدنيوية ، ومعرفة ما ينفع منها وما يضر .

ومن المقرر أن حاجات الناس تختلف باختلاف ظروف الزمان والمكان فوجب أن تتلون المعاملات والنظم لتناسب هذه الظروف المختلفة ، فان لم تتناسب النظم مع حاجات الناس هجرها الناس وهرعوا إلى سواها . وقد سأل أبو حيان التوحيدى مسكويه قائلا : هل الأحكام الشرعية متفقة مع مصالح العباد لا تخرج عنها ؟ فأجاب مسكويه : « نعم وبخاصة فى المعاملات ، فاذا تبين أن نوعا من المعاملات لا يحقق مصلحة العباد فى وقت من الأوقات أجاز الاجتهاد تغيير الحكم » ومصالح العباد عامة تشمل المحافظة على النفس والدين والمال كما نص على ذلك الشاطبى

---

(١) سورة يس الآية ٦٨ .
(٢) سورة الروم الآية ٢٨ .
(٣) سورة النحل الآية ١٢ .
(٤) سورة الرعد الآية الثالثة .
(٥) سورة الأعراف الآية ١٢٩ .

فى الموافقات ، وهذا واضح كل الوضوح فى المعاملات المدنية ، أما فى العبادات فوجب أن نفعل ما أمر الله به إذا لم نفهم علته • أما إذا نص على العلة فيها فإن الحكم يدور معها وجوداً وعدماً (١) •

ذلك هو الإطار الذى رسمه الإسلام لتعاليمه ومبادئه انه — مرة أخرى — التوحيد المطلق ، وحسن الخلق ، والاستجابة لنصوص الشرع وللعقل السليم ، ثم تحقيق مصالح العباد •

وسنورد فيما بعد عرضا تاريخيا نبين فيه كيف استجاب الاسلام لمطالب الناس ، حتى قفل العلماء على أنفسهم وعلى الناس الباب الذى فتحه لهم الاسلام ليحصلوا خلاله على السعة وحل المشكلات • ولكنى هنا أحب أن أبدى رأيا لى يتعلق بالعقل والنقل قبل أن نستمر فى حديثنا عن استجابة الاسلام لحاجات النـــاس •

اختلاف العقل والنقل :

سألنى بعض علماء إندونيسيا المحافظين مرة سؤالا هاما ، قال : ماذا لو اختلف العقل والنقل ؟ فأيهما نتبع ، وبعد برهة وجيزة أجبت : أى عقل وأى نقل يا سيدى ؟ وخضت فى شرح هذا الجواب فوضحت تفاوت العقول ، هناك عقول قاصرة وعقول موهوبة ، وما لا يفهمه هـذا العقل كثيرا ما يفهمه عقل آخر ، ثم هناك أشيا لا تعتبر مخالفة للعقل ، ولكنها وراء حدود العقل الانسانى ، فيبدو للناس أنها تخالف العقل ولكنها فى الحقيقة لا تخالفه وإنما تفوق حدوده ، أرأيت لو حاولنا أن نشرح لطفل جهاز المذياع الذى يعيش معه فى البيت ويأنس به ، لا شك أن الطفل لن يستطيع فهم الشرح ، لا لأن عمل المذياع بعيد عن العقل بل لأن أسراره أعمق من أن يصل لها عقل صـغير • ويحصل مثل ذلك مع عقل الرجل الرشيد بالنسبة الى شىء معقد ، فيه كثير أو قليل من الغموض كالطائرة

---

(١) انظر يوم الاسلام للاستاذ احمد امين ص ٢٠٥ — ٢٠٦ •

والرادار ، بل حصل مثل هذا الى موسى عليه السلام عند ما خفيت عنه أسباب الأعمال التى قام بهـا الخضر ، إذ كـان الخضر قد منحـه الله علما ورشدا لم يمنحهما موسى ، قال تعالى « فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علمـا ، قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمنى ممـا علمت رشدا ؟ قال : إنك لن تستطيع معى صبرا ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ؟ قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ، قال : فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا ، فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها ، قال : أخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئا إمرا ، قال : ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا . قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا . فانطلقا ، حتى إذا لقيا غلاما فقتله ، قال : أقتلت نفسا زكية بغير نفس ؟ لقد جئت شيئا نكرا ، قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا . قال : إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى ، قد بلغت من لدنى عذرا . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ، قال : لو شئت لا تخذت عليه أجرا . قال : هذا فراق بينى وبينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ، أما السفينة ..... » (١) .

فموسى عليه السلام يتكلم بعقله العادى ، والخضر انكشفت عن عقله حجب لم تتكشف عن موسى ، وهو يتصرف فى مجـال هـذا الضوء الذى تخطى الحدود العادية .

ونحن فى حياتنا الخاصة تحدث لنـا أشياء لا ندرك كنهها وربمـا نسخط عليهـا ، ثم بعد فترة طويلة أو قصـيرة ندرك أنهـا كانت الخير لنـا كل الخير .

وتوضع قضية بظروفهـا أمام قاض فيحكم فيهـا بحكم ، وترفع

---

(١) سورة الكهف الآيات ٦٥ — ٧٩ .

نفس القضية بنفس الظروف الى قاض آخر يتبع نفس القوانين فيحكم فيها بحكم مخـالف .

هـذه جوانب من قصور العقول أو من اختلاف العقول فيما يحيط بنـا من أحداث ، فاذا ذهبنا نستوحى هدى العقل وإرشاده فى أمور أعمق ، فى وجود الله مثلا ، وفى الحكمة فى بعض العبادات وصورهـا ، وجدنا العقول أكثر اختلافا وأشد تباينا ، فهناك عقول اتجـه تفكيرها اتجاها ماديا واستطاعت أن تحقق فى هـذا الاتجـاه تقدما كبيرا ، ولكنها تخلفت فى الجانب التفكير الروحى ، إذ أن الناحية الروحية عندها ذبلت أو فنيت ، وفى أوربا رأينا نماذج من هؤلاء يدينون بالآلاف أو الملايين ، طغت عليهم المادة ، فاذا سألتهم عن الله جحدوه وإذا دعوتهم الى الله والى المثل العليا التى شرعها كالعدالة مع العدو والصديق والمساواة مع اختلاف العنصر واللون لم تنل منهم إلا السخرية والاستهزاء .

وهنـاك صنف آخر من العقول قوى الجانب المـادى فى تفكيره ، ولكن ظلت به بقية من الجانب الروحى . وهـذه البقية الروحية مغلوبة على أمرهـا إلا إذا كثرت العوامل التى تسبب رجحانهـا وتفوقهـا ، ولعل من هؤلاء أبا سفيان بن حرب بن أمية : [illegible] روى أنه جىء به الى الرسول وجيش المسلمين الزاحف من المدينة يدق أبواب مكة فقال لـه الرسول : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

فقال أبو سفيان : بأبى أنت وأمى ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئا (١) ..

وهكـذا عبد أبو سـفيان الأصنـام ، وحرسها ، وحارب مـن أجلها ، ولكنها لم تحم نفسهـا ، وانتصر إله محمد ، وانهزمت آلهـة قريش ، فأدرك أبو سفيان من هذا الدرس أن ليس مع الله إله آخر .

---

(١) ابن القيم : زاد الميعاد جـ٢ ص ١٦٣ .

وهناك صنف ثالث من العقول تغلب الجانب الروحى فيهـا على الجانب المادى ، وأصحاب هذه العقول يفيضون صفاء ونقاء ، يتحدث الواحد منهم عن الله كأنه يراه ، ويقول لك بقوة وإصرار : اعتقد فى الله أو اجحده ، أو ابحث عن براهين تدلك عليه أو تنكره ، أما أنا فلست فى حاجة الى براهين ، إنى أخافه كأنى أراه ، وإنى أومن به • لا بالوراثة ، ولا بدليل منطقى كالذى كان يقوله العربى : البعرة تدل على البعير ... أفلا تدل هـذه الدنيا على العلى القدير ؟ لا ، إنى أومن به لأنى أراه وأسـمعه وأحس به ، ومع هـذا فان الجانب المادى فى هـذه العقول يتغلب أحيانا على القوة الروحية فيها ، فيعجز أصحابها عن إدراك أسرار بعض المشكلات الروحية •

وربمـا كان من ذلك الصنف صديق لى ، عاشرته وخالطته ، نفسه فيهـا صفاء ، وقلبه مملوء بالخير ، يخاف الله كأنه يراه ، ويناجيه مناجاة المؤمن عميق الإيمـان ولا يفتأ يذكره فى السراء والضراء ، يؤدى عمله على خير وجه ، ولا يعرف المال الحرام طريقه إليه ، يحب الناس ولا ينى عن مساعدتهم ، وماله ملك ان احتاجه لا فرق بين عدو وصديق ، ندرك نحن مجموعة رفاقه أنه يجد لذة فى عمل الخير ومسـاعدة المحتاجين ، يقسـم صادقا — فيمـا أعتقد — أنه لا يكره أحدا ولا أولئك الذين يكرهونه ، ثم هو مثقف واسع الثقـافة ، ذكى مرهف الذكاء ، يلمس أصدقاؤه فيه قوة الجانب الروحى فى صلته بالله وصلاته بالناس •

تلك جوانب مشرقة من جوانب ذلك الصديق ، ولكن هناك جانب آخر • هو — فى اعتقادى — قاتم ، أنه يريد أن يستعمل عقـله فى كل شىء : ويريد مثلا أن يفهم كل شىء فيما يتعلق بالعبادات ، وقد سـبق أن قلنـا إن الرأى فى العبادات أن نعملها كمـا أمرنا بها مـا خفيت علينا عللهـا •

حل رمضان وصام أناس وأفطر آخرون ، وكان صـديقى من المفطرين •

سألته : كيف جاز لك أن تفطر ولك هـذا الإيمـان العميق بالله وقرآنه ورسـوله ؟

أجاب : لأنى لا أفهم ضرورة الصوم .

قلت : هل تريدنى أن أعلمك الرياضة الروحية ، وترجيح النفس فى صراعهـا مع الجسم ، والإخاء الإنسـانى وغير ذلك من فوائد الصوم وأنت به عليم ؟

قال : فكرت فى هـذا كله ، وفى أكثر منه ، ولكنى لم أقتنع بهـذه الأسباب ، إن كان الصوم شرع ليعلمنى الاحساس بجوع الفقير ، فأنا مستعد أن أعطى الفقير كل مالى ، وإن كان للرياضة الروحية ومناصرة النفس فى صراعها مع الجسم فأعتقد أن عندى من ذلك حظا لا بأس به .

قلت : الدين دين الناس جميعا ، فعلى فرض أنك تخلصت من كل مـا يدعو له الصـوم ، فانى أذكرك بأن التشريع الإسلامى جـاء للمسلمين جميعا وأنت واحد من المسلمين ، بل انك من خيارهم فليجر عليك ما يجرى عليهم ، إذ لا يمكن أن يكون هنـاك تشريع لكل فرد على حدة . أتريد أن يعفى من الصـوم من اجتمعت له أهداف الصوم ؟ ويعفى من الصـلاة من اجتمعت له أهداف الصلاة ؟ لا يا صديقى فهناك الجانب العام فى التكاليف ، وهو خلق وحدة بين المسلمين ، فصومهم معـا وصلاتهم معـا ... لها مغزى سام ، وليس ذلك وحده بخاف عليك : ثم إنك يا صديقى تريد أن تستعمل عقلك فى كل شىء ، ألا يمكن أن يكون للصـوم سر يصعب على عقلك الوصول إليه .... ؟

فأجاب : أنت تعرف أكثر من سواك خضوعى لله وإجلالى له وخوفى منـه ، ولكنى لا أستطيع أن أصوم ثلاثين يوما يقل فيها مـا أنتجه ، وتتعـرض أعمـالى للاضـطراب دون أن أفهم سـببا معقـولا لذلك . وأوشك الغضب أن يظهر عليه ، وكأنمـا ظن أننى أنظر له نظرة

عدم تقدير ، فثار وأقسم أنه لو آمن واعتقد أن هذه رغبة الله ولا محيص عنهــا لكان مستعدا أن يصوم العام كله .

قلت : دعنا من هذا الحديث فليس مثلك دينا وعقلا من يحتاج الى مرشــد ومعلم . ودارت الأيام واستقر صديقى على فطره ، ولكنه — والحق يقال — كان مهذبا فى فطره ، لا يجاهر به ولا يعرفه عنه إلا عدد محدود جدا من الأهل والأصدقاء ، وطالما بقى اليوم كله لا يأكل لأنه يدعى الصيام ، وإنما أكل أكل فى خلوة ، بل أكثر من ذلك كان له أصدقاء مفطرون وكانوا يأكلون أمامه وهو لتظاهره بالصوم لا يشاركهم الطعام . أشهد أنه كان مهذبا فى طاعته وعصيانه إذا جاز لنــا أن نصف العاصى بالخلق المهــذب .

ومر عام وعام وصديقى فى هــذا الموضوع ضــال لا يجد الهداية ، ثم بدأت العقدة تحل . هبت على صديقى عواصف وأعاصير ، وتزاحمت عليه أحداث جسام ، وخطوب شتى ، والأحداث والخطوب تضعف المقاومة وترقق النفس ، وتهذب الوجدان ، كيف السبيل الى النجاة ؟ لا سبيل إلا عون الله ، وبدأ هلال رمضان وصديقى غارق فى آلامه ، مثقل بالأشجان والمصائب ، أراد أن يتجه الى الله يدعوه أن يكشف عنــه الضر ، فخجل أن يتجــه الى الله مفطرا والناس صائمون، وصــام صديقى أول يوم من رمضان ونظر لله يستلهم عونه فأمده الله بالعون ، ونجى زورقه من غرق أوشك أن يكون محققا ، واستمر صديقى فى الصوم ، بل فى صوم الأطهار الورعين .

قلت لصديقى : أتحب أن ينتفع الناس بتجربتك .

قال بقوة وإيمان : نعم ، يجب أن ينتفعوا بهــا .

قلت : ولماذا لم تنتفع أنت بتجارب الآخرين ؟ وهــل يطول العمر لإجراء تجارب للصوم عدة سنين ، وعدة سنين أخرى للصلاة وهكذا ؟

وطوينا هـذا الموضوع بعد أن آمن صديقى بأن العقل مهما كانت حدته وذكاؤه فهو يجهل كنه كثير من الأشياء •

ويقول الأستاذ محمد أسد المستشرق الذى أسلم : إننا اليوم لا نحتاج الى فيلسوف مثل « كَنْت » ليبرهن لنا على أن الفهم الإنسانى محدود تماما بما ينطوى عليه من وجوه الإمكان ، إن عقلنا لا يستطيع ، بما ركب فى طبيعته • أن يحيط بفكرة الكلية ، إننا نستطيع أن نفهم من كل شىء تفاصيله فقط • إننا لا ندرى ما اللانهاية ، ولا ما الأزل ، حتى إننا لا نعلم ما الحياة (١) •

ذلك هو العقل ، فى مدى إشعاعاته وفى محيط تفكيره ، فما هو النقل ؟

المعروف أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع الإسلامى ، وهو الذى حرسه الله وحفظه ، ولكن المعروف أيضا كما أوضحنا فيما سبق أن القرآن فى الغالب يدل على الأحكام التشريعية الفقهية بشكل كلى لا جزئى ، فالقرآن يأمر بالصلاة بالآية الكريمة « وأقيموا الصلاة » (٢) • دون أن يبين كمها أو كيفها ، فوضح الرسول ذلك ، غير أن الرسول لم يفسر إلا ما دعت إ[ليه ال]حاجة ، وترك ما لم تدع الحاجة الى تفسيره ليفسره العلماء فى العصور والبلدان المختلفة عند ما توجد الحاجة الى تفسيره ، كما سبق القول ثم إن دلالة النصوص القرآنية على الأحكام ليست قطعية دائما فبعض النصوص دلالتها ظنية لاحتمال النص القرآنى أكثر من تفسير واحد كقوله تعالى « حرمت عليكم الميتة » (٣) •

(١) الاسلام على مفترق الطرق ص ٩٩ — ١٠٠ •
(٢) سورة المزمل الآية ٣٠ •
(٣) سورة المائدة الآية الثالثة •

فى ضوء ذلك نستطيع أن نقول : إن العقل لا يختلف مع النقل ، ويقرر ابن القيم أن المعقول الصحيح دائر مع أخبار الشريعة وجودا وعدما فلم يخبر الله بما يناقض صحيح العقل ، ولم يشرع ما يناقض الميزان والعدل (١) فاذا بدا خلاف بينهما فمرجعه قصور العقل أو سوء تفسير النقل ، على أنه اذا كان هناك نقل قطعى الدلالة كحق الزوج فى ميراث زوجته أو الزوجة فى ميراث زوجها ، ووجد هناك عقل يتجه غير هذا الاتجاه ، فالنقل هو الذى يتبع ، مرة أخرى لقصور العقل وعدم استطاعته إدراك الحكمة التى وجهت التشريع الاسلامى •

وقد أوردنا من قبل صورا بينت لنا تأويل بعض النصوص لتلائم ما جد من أحداث ، وقد كان ذلك دستور عمر بن الخطاب على ما سبق إيضاحه ، وما سيأتى له مزيد إيضاح •

ليس هناك مجال فيما أعتقد للكلام عن اختلاف العقل والنقل فى الاسلام ، وبخاصة إذا دخل عنصر الإيمان قلوبنا فأدركنا أن خالق العقل وموجهه هو الذى شرع وأوحى بالنقل • فالمصدر واحد وهو العزيز الحكيم ، واهب الحكمة الذى « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » (٢) •

الاسلام وحاجات الناس :

ولنعد بعد هذا لنعرض كيف استجاب الاسلام فى عصوره الأولى لظروف كل زمان ومكان ، ثم كيف اتجه بعض الفقهاء بالاسلام اتجاها جعل الدين كما فهموه سببا من أسباب التدهور الذى أصاب العالم الاسلامى •

اجتهاد الرسول :

وأبرز مثال لذلك هو عمله صلى الله عليه وسلم ، فقد ورد أن

---

(١) اعلام الموقعين ج١ ص ٥٢ •
(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٩ •

معاملته لسكان البدو كانت غير معاملته لسكان الحضر ، ومعاهداته بدويين كانت غير معاهداته للحضريين لاختلاف الثقافة واختلاف المكان .

وكان العرب فى أول الاسلام قريبى عهد بالوثنية فنهاهم الرسول عن زيارة القبور خوف أن يتخذوا من بعضها آلهة يلجئون إليها ويناجونها ، كما فعل المسلمين مع بعض الأضرحة فى عصور الانحطاط ، فلما أحس الرسول بابتعاد المسلمين عن الوثنية أباح لهم زيارة القبور ، وقد جاء فى الحديث « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فالآن فزوروها » .

اجتهاد أبى بكر :

وأدرك الخلفاء الأول هذه الحقيقة فاجتهدوا فى المشكلات التى عرضت لهم واقترحوا لها الحلول ، ووائموا دائما بين الدين وبين حاجات الناس والصالح العام ، أمر أبو بكر بجمع القرآن مع أن الرسول لم يأمر بجمعه ، وعندما أدرك أن الصالح العام يقضى بمحاربة الفرس والروم لما بدا منهم من تجمع وتحرش بالمسلمين عندما أدرك ذلك شن عليهم الحرب ، واجتهد أبو بكر فى مسألة ما نعى الزكاة والمرتدين ومدعى النبوة فقاده اجتهاده الى ضرورة محاربتهم جميعا ففعل .

وتلك كما يبدو صور ضخمة واجتهاد فى أمور خطيرة ، فما بالك بالأمور الاخرى الاقل شأنا ، والتى كانت تقابل الناس فى حياتهم وشئونهم .

اجتهاد عمر :

على أن عمر صادف ما لم يصادفه أبو بكر إذ كانت الجزيرة العربية فى عهد أبى بكر تسير على النمط الذى سارت عليه فى عهد الرسول ، ولم تكن الفتوح قد استقرت بعد ، ولكن عمر رأى الفتوح وقد استقرت ، وشاهد حاجة الناس الى نظم جديدة تناسب هذه الدولة التى اتسعت

أطرافها وجدت بها ظروف وأحوال لم يكن للمسلمين بهـا عهد فى زمن الرسول وزمن أبى بكر ، واجتهد عمر ، ووضع لاجتهـاده دستورا سبق أن أوردناه اقتباسا من الدكتور هيكل ، وإليك موجز هذا الدستور .

كان عمر يفرق بين الثابت على الزمان من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وبين مـا قضت به أحداث الوقت ، فهذا كان من المستطاع مراجعته وإعادة النظر فيه لو تغيرت الظروف ، اقتناعا بأن رسول الله لو امتد به الأجل لراجعه وأعاد النظر فيه ، كمـا أعاد النظر فى مسألة زيارة القبـور .

وكان عمر لعظيم إيمانه وشدة امتثاله تعاليم رسول الله جريئا فى الاجتهاد ، وإن خالف ظاهر النص ، فاذا ورد نص لم يبق فى أحـوال الجماعة مـا يقتضى تطبيقه لم يطبقه . وإذا اقتضت أحوال الجمـاعة تأويل النص أوله حريصا فى هـذا وفى ذاك على ملاءمة الحكم لأحوال المجتمع مع اتسـاقه فى الوقت نفسـه مع روح التعـاليم المحمـدية السـليمة (١) .

وقد أوردنا نماذج من اجتهـاد عمر ، عند الكـلام على المجتمع الاسلامى فى عهـده .

وسـار موكب الاجتهاد على هـذا النحو يتولاه الخلفاء العلمـاء المعاصرون ، فلما تولى الخلافة أفراد قل حظهم من العلم تركوا الاجتهاد الى العلمـاء ، وبرهنت العصـور الأولى للاسلام على ملاءمة الاسلام للحياة ، واستجابته لكل شئونهـا ، وقد مر بنا كيف أوقف عمر بعض الحدود لأسباب رآها ، وكيف اقترح نظام الخراج ومنع تقسيم الأرض على الفاتحين .

---

(١) انظر الفاروق عمر جـ٢ : ص ٢٠٤ ، ٢٨٢ .

ولكن العصر الاسلامى الأول كان فى الاجتهاد يمتــاز بشىء هام هو محــاولة إيجاد حل لمشكلات ظهرت فعلا ، دون أن يلجأ علماء هــذا العصر الى الفروض أو اقتراح الأسئلة ليضعوا لها أجوبة ، وقد اشتهر عنهم هذا الأثر : لعن الله من سأل عما لم يكن •

الاجتهاد فى عصر الأئمة يصل للافتراضات :

فلمــا جاء عصر الأئمة فى القرن الثانى الهجرى ، سار الأئمــة وتلاميذهم الأقربون على سياسة جديدة ، فقد أطلقوا لخيالهم العنان ، وبدأوا يقترحون الأسئلة ويفترضون الفروض ويضعون لهــا الأجوبة ، حتى افترضوا آلاف المسائل ، منها مــا يمكن عقلا حدوثه • وكثير منهــا لا يحتمل العقل تصوره ، واتسعت هــذه الفروض والاحتمالات حتى شملت أبواب الفقــه جميعا ، وعلى هــذا فقد ترك علمــاء هذا الجيل ذخيرة واسعة كأنما كانوا يقصدون أن يعفوا من سيجىء بعدهم من كد الذهن فيمــا قد يعرض لهم من مشكلات •

وعلى هــذا كان اجتهاد هــذا الجيل بالغا الغاية فى النشـــاط فهو لم يقف عند إيجاد حل لمشكلة وقعت ، ولكنه تجاوز ذلك الى افتراض مشكلات وإيجاد حلول لهــا •

جيل لم يجتهد اذ لم توجد حاجة للاجتهاد :

وجاء أبنـــاء الجيل التــالى فوجدوا كل شىء مدونا ، ووجــدوا السابقين قد ذللوا لهم الطريق ، فقنعوا بما وجدوا ، ولم يجتهــدوا ، لا كرهاً للاجتهاد بل لعدم الحاجة إليه •

الادعاء بقفل باب الاجتهاد :

وجاء جيل بعد ذلك قلد سابقه فى عدم الاجتهــاد ، غير أن هــذا الجيل نظر الى الاجتهاد نظرة مخالفة لنظرة الجيل الذى سبقه ، فالجيل الذى سبقه لم يجتهد لعدم الحاجة الى الاجتهاد ، أمــا هــذا الجيل

فقد أساء فهم موقف السابقين ، وظن أنهم لم يجتهدوا لأن باب الاجتهاد قد قـُفِل ، ولم يَعُد جائزا للفقهاء أن يسلكوا غير سبيل التقليد .

وقـُفِل بـاب الاجتهاد منـذ ذلك الحين ، وقنع الفقهـاء بتقليد الأئمة ، واشتهرت المذاهب الأربعة (مذهب أبى حنيفة ومالك والشـافعى وابن حنبل) وتبعهـا الفقهـاء وتعصبوا لهـا ، ونسوا صور الاجتهاد التى قام بها الصحابة ، ونسوا ما قاله أصحاب المذاهب أنفسهم يحثون النـاس على الاجتهاد والتفكير نسـوا قول أبى حنيفة : إنى آخـذ بكتاب الله ، فسنة رسوله ، فاذا لم أجدهمـا نظرت فى قول الصـحابة فأخذت قول من شئت وتركت قول من شـئت ، فاذا انتهى الأمر الى ابراهيم الشعبى والحسن وابن سيرين فلى أن أجتهد كمـا اجتهدوا .

ونسوا قول مالك : ليس من أحد إلا يؤخذ من قوله ويـُتـْرَك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونسوا أن الشافعى بعد أن أملى مذهبه ببغداد ، وسار الى مصر وجد أن المكان الجديد وظروفه تستدعى تغييراً فيمـا دوّنه ببغداد ، فأملى مذهبه الجديد بمصر مع أن المـدة بين المذهبين كانت حوالى خمس سـنوات .

ونسوا ما قاله أحمد بن حنبل وقد سئل عن رأيه ورأى الأوزاعى فى مسألة ما : لا تأخذوا بقولى ولا قول الأوزاعى ، ولكن خذوا مـن المعين الذى أخذنا منه ، واجتهدوا كما اجتهدنا .

ويصور أستاذنا الخضرى سريان روح التقليد بين الناس بقوله : لا شك أنه كان فى كل دور من الأدوار السـابقة مجتهدون ومقلدون ، فالمجتهدون هم الفقهاء الذين يدرسون الكتاب والسنة ، ويكون عندهم من المقدرة ما يستنبطون به الأحكام من ظواهر النصوص أو من معقولها ، والمقلدون هم العامة الذين لم يشتغلوا بدراسة الكتاب والسنة دراسة

تؤهلهم الى الاستنباط فهؤلاء كانوا اذا نزلت بهم نازلة يفزعـون الى فقيه من فقهاء بلدهم يستفتونه فيما نزل بهم فيفتيهم . أما فى هـذا الدور فان روح التقليد سرت سريانا عاما واشترك فيها العلماء وغيرهم من الجمهور ، فبعد أن كان مريـد الفقه يشتغل أولا بدراسة الكتـاب والسنة اللذين هما أساس الاستنباط ، صار فى هـذا الدور يتلقى كتب إمام معين ، ويدرس طريقته التى استنبط بها ما دوّنه من الأحكام ، فاذا تم ذلك صار من العلماء الفقهاء ، ومنهم من تعلو به همته فيؤلف كتابا فى أحكام إمامه ، إما اختصارا لمؤلف سابق ، أو شرحا له ، أو جمعا لما تفرق فى كتب شتى ، ولا يستجيز الواحد منهم لنفسه أن يقول فى مسألة من المسائل قولا يخالف ما أفتى به امامه كأن الحق كله نزل على لسان امامه وقلبه (١) .

أصبح الأصل فرعا والفرع أصلا :

بل بلغ بهم الأمـر الى أن يجعلوا الأصل فرعا والفرع أصـلا ، فأصبحوا يتخذون رأى الامام أصلا ، فاذا خالفته آية أو حديث فهما مؤولان أو منسوخان ، وفى ذلك يقول أبو الحسن عبد الله الكرخى : كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهى مؤولة أو منسوخة ، وكل حديث كذلك فهو مؤول أو منسوخ ، وقول الكرخى ... يختلف تماما مع ما كان عليه الفقهاء الأول ؛ فقد كان الواحد منهم يبدى رأيا ثم يظهر له حديث يقضى بغير ما قضى به فيعود الى الحديث ويلغى رأيه ، وفى ذلك يقول غير واحد من الأئمة : اذا صح الحديث .. مذهبى ، واضربوا بقولى عرض الحـائط .

ولعل الضعف السياسى الذى منيت به الأمة الاسلامية : وتسلط الأتراك والبويهيين وغيرهم من الجهلاء على هذه الأمة ، كان من الأسباب التى هيأت لضعف فكرى ، وقللت ثقة العلماء بأنفسهم ، فلم يستطيعوا أن يكونوا أحرار الفكر ، فى جو من العبودية والكبت .

---

(١) تاريخ التشريع الاسلامى ص ٣٣٢ .

مشكلات بلا حلول :

ومر الزمن وزادت الحال سوءا عندما ظهرت مشكلات تتطلب الحل ، وليس لها حل فيما افترضه السابقون من فروض ، وما خطر ببالهم من احتمالات ، ووقفت هذه المشكلات الجديدة تتطلب حلا ولا من مجيب ، فقد كان جمهور الفقهاء قد وقف يهاجم الاجتهاد ويدافع عن التقليد ، وحظى التقليد بكبار الشيوخ يدينون بــه ويتبعونــه ويتحمسون لــه ، ويرمون من حاول الاجتهاد أو من أقدم عليه بالكفر والزندقة على ما سيأتى .

صراع فى المجتمع باسم الاسلام :

وتخطى هــؤلاء الفقهاء حدودهم ، وأسرفــوا فى تقديرهم للتقليد واعجابهم به ودفاعهم عنه فتراهم فى عهد مــن العهود يعدون تعليم الجغرافية والحساب بدعة ، ولبس الزى الأوربى تشبها بالنصارى ومن تشبه بالنصارى فهو منهم ، وغير ذلك مما سيأتى بيانه فى حينه ، والمهم هنا أن نذكر أن هؤلاء الفقهاء لم يستطيعوا أن يوجهوا الفقه الاسلامى وجهة حية ، ثم لم يستطيعوا أن يسيطروا على الناس حتى يبقى هؤلاء يقفون عند الحدود التى يريدها الفقهاء ولا يتعدونها ، بل تمرد الناس عــلى آراء الفقهاء وساروا فى الطريق الذى دفعتهم له الحياة تاركين الفقهــاء يعيشون فى عالمهم الضيق المحدود .

وهكذا بَعُد الفقه الاسلامى عن الحياة ، وبعُد الفقهاء عن الناس ، وأصبحنا نرى الفقهاء وأفكارهم فى جانب ، وغالبية المسلمين فى جــانب آخر ، واتسعت هوة الخلاف بين الجانبين اتساعا كبيرا ، هؤلاء يستعملون زيا وأولئك يستعملون زيا آخــر ، ولهؤلاء ثقافة ولأولئك ثقافة غيرها ؛ لهؤلاء معاهدهم ولأولئك مدارسهم ، ولهؤلاء خطتهم فى الحياة ولأولئك خطة أخــرى .

وجاء جيل جديد أصبح ينظر للفقهاء ولآرائهم واتجاهاتهم باشمئزاز قليل أو كثير ، وكأنما أحس هؤلاء الفقهاء بشذوذهم وسط المجتمع ، فلم

يريدوا لأولادهم أن يسيروا سيرتهم ، بل اتجهوا بأولادهم اتجاهات أخرى ، ولم يوجد فيهم أحد تقريبا سلك بأولاده طريق ثقافته وتعليمه .

وجاءت النتيجة سيئة لهذه الخطوات ، فإن أبناء الجيل الجديد ظنوا أن جمود الفقهاء ناشىء عن جمود فى الدين ، وحسبوا أن الدين عاجز عن مسايرة الظروف المتطورة والأحوال المتجددة ، ففقدوا ثقتهم فى الدين ، وقل احترامهم للمتدينين .

نهضة إسلامية شاملة :

أريد هنا أن أقطع هذا الحديث الذى يعطى الانطباع [illegible] الأمر ، فمن الحق أن نذكر أن جيلنا اقتحم المجالات التى تجاهلها [illegible] الجيل الماضى وأعمل الفكر فيها ، وأزلنا الكثير من الضباب والغبار الذى كان يكسو الفكر الاسلامى ، ولم نترك قضية أو موضوعا الا درسناه ، وعاد المفكرون المسلمون فكتبوا الدراسات الاسلامية من جديد ، كتب الشيخ محمد الغزالى والشيخ سيد سابق الفقه الاسلامى بكثير من التوسع ، وكتب الاستاذ سيد قطب ومجمع البحوث الاسلامية تفسيرا جديدا للقرآن الكريم ، ويشرفنى أننى أسهمت فى هذه الحركة بكتابة التاريخ الاسلامى من مطلع الاسلام حتى الآن [illegible] الاسلامى فى عشرة مجلدات كما كتبت الحضارة الاسلامية [illegible] ، وكتبت مقارنة الأديان فى أربعة مجلدات ، وكتبت [illegible] .

وهناك ألوان من الدراسات الاسلامية [illegible] الزاهية أو النجوم اللامعة كتبها الدكتور [illegible] والدكتور عبد الحليم محمود ، وغيرهم [illegible] ، وفى هذه البحوث اجابات عن كل ما يحتاجه العصر من أمور وما يواجهه من مشكلات .

ولنعد الى الحديث عن الماضى لنرى صورة التخلف التى كانت من أسباب ضعف المجتمع الاسلامى ، والتى تنسب ظلما للاسلام الحنيف .

دراسة المادة لا الروح :

تحدثنا من قبل عن روح الاسلام ، وصورناها ، وبينا كيف نعم فى ظلها المجتمع الاسلامى الأول ، وكيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبيه أبرزوا روح الاسلام فى سموها ، وفيما تفيضه من حب ويسر ، وما تخلقه من تعاطف وتعاون ومشاركة وجدانية عميقة نافعة ، ولم يخل من روح الاسلام عمل قاموا به ، أو قول قالوه ، أو فتوى أصدروها .

ويجب هنا أن نبين أن العصور المتأخرة بعدت بعدا كبيرا عن روح الاسلام واهتمت بالجسم والمادة ، حتى أصبحت الدراسات الاسلامية دراسة لا حياة فيها و لا روح ، وجرت عدوى هذه الدراسات الى جميع أبواب الفقه حتى الأبواب التى كان يجب أن تكون دراسة الروح أهم عنصر فيها ، تعال بنا نجل جولة قصيرة فيما كتبه هؤلاء الفقهاء وما تدارسوه .

الزكاة وتصويرها :

ولنبدأ بباب الزكاة ، أهم أبواب الفقه صلة بالناحية الاجتماعية ، كيف يدرس الفقهاء هذا الباب ؟

إن الباحث يتوقع من الفقهاء حين يعرضون الى الحديث عن الزكاة أن يتحدثوا ولو قليلا عن هذه الفريضة الاجتماعية ، ويشرحوا بايجاز أو بافاضة نظرية الاسلام الاقتصادية ، ووجوب التعاون بين المسلمين حتى لا يكون فيهم متخم التخمة وشاك من الجوع ، ويبينوا ما بينه الباحثون المحدثون من أن المال ، والحرص عليه ، والاستكثار منه ، واتخاذه وسيلة لاستعلاء الانسان على الانسان ، كانت ولا تزال سببا لشقاء العالم ، ومصدرا للثورات والحروب ، وأن عبادة المال كانت ولا تزال سبب التدهور الخلقى الذى أصاب العالم ، والذى لا يزال العالم يرزح تحت أعبائه ، وأن الاستكثار من المال والحرص عليه هو الذى قضى على الإخاء الإنسانى وجعل الناس بعضهم لبعض عدوا ، ولو أنهم كانوا أصح نظرا وأسمى

تفكيرا لرأوا الإخاء أدعى السعادة من المال ؛ ولرأوا بذل المال للمحتاج أكبر جاها من إذلال الناس لهذا المال (١) .

ولكن مئات الفقهاء لم يفكروا فى ذلك ، بل راحوا يتكلمون عن المادة والجسم دون أية عناية تتجه للروح ، إنهم يبدءون كلامهم بقولهم تجب الزكاة فى خمسة أشـــياء : المواشى والأثمان والزروع والثمــار وعروض التجارة ، ثم يتحدثون عن شروط وجوبها والمقادير الواجبة فيها ، والعجيب أنهم حتى المحدثون منهم يكثرون الكلام عن الإبل والبقر والغنم ، تلك التى كانت أهم مصادر الثروة والغنى فى الجزيرة العربية ، وينسون أنها الآن لا تكاد توجد فى أكثر العالم الاسلامى ، ولم يهتم إلا أفراد قلائل بمصادر الثروة التى جدت فى العصور الحديثة ، وبضرورة الزكاة فيها ، وذلك كالعمارات والحوانيت المؤجرة والمصانع والمهن الحرة ، مع ما تقدمه لأصحابها من ثراء .

وقد قلنا ان أغلب الفقهاء أهملوا روح الاسلام ، ونريد أن نقرر هنا شيئا يبلغ الغاية فى الغرابة والدهشة ، هو أن من الفقهاء من حارب روح الاسلام ، فرسم لقرائه الحيل والسبل التى يتخلصون بها من الزكاة ، كأن يرسم للمالك أن يهب ماله لابنـــه أو لزوجته قبيل أن يحول الحول ثـــم يستوهبه إياه وبذلك يبدأ حول جديد ، ولا تجب الزكاة عن الحول الماضى لأنه لم يكمل . وهكذا يكرر ذلك قبيل انتهاء كل حول ، فلا تجب عليه زكاة قط (٢) .

الصوم فى كتب الفقه :

فإذا تركنا الزكاة إلى الصوم نجد أن الفقهاء اتبعوا نفس الطريق فليس فيهم من أورد الأفكار التى سبق أن سقناها عن الصوم عند الحديث عن اختلاف العقل والنقل ، ليس فيهم من تكلم عن الصوم على أنه رياضة روحية سامية ، وأنه ترجيح لجانب الروح فى صراعها مع الجسم ، وأنه

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٥٣٢ .
(٢) الجزيرى : الفقه على المذاهب الاربعة .

عن طريق الصوم يتحرر الانسان من العادات التى خضع لها كتناول الطعام فى وقت معين ، وكالتدخين والمرح ، تلك العادات التى يمكن أن يقال إن الشخص أصبح عبدا لها لا يستطيع أن يتخلف عنها .

كم استاء زوج لأن زوجته تأخرت فى إعداد الطعام عن موعده ، وكم اضطرب رجل لأن لفافات الدخان نفدت منه فى وقت لا يستطيع أن يشترى بدلها ، كأن يكون فى الليل أو فى رحلة ، وفى كثير من الأوقات يصبح الغنى معدما ، على أن الغنى وهو فى أوج غناه تأتى عليه ظروف لا يجد كوب الماء أو كسرة الخبز ، فكم من الأغنياء يحتاجون الى كوب ماء وهم فى جلسة عامة ليس له الى الماء من سبيل ، وكم اضطرت الأعمال ذوى الأعمال أن يتأخروا عن مواعيد طعامهم وقتا طويلا أو قصيرا ، وليس الصوم إلا مدربا يُعِدُّ الشخص للتغلب على العادة التى اعتادها ، ويساعده على عودة السيطرة على جسمه ويهيئه لما قد يُلِمُّ به من مشكلات وأزمات .

ماذا كتب الفقهاء عن الصوم ؟ إن الجمهرة العظمى لهؤلاء الفقهاء تُصَوِّر الصوم جوعا وحرمانا ، تضع له الشروط . وتسرف فى بحث ما يفطر به الصائم ، وتعالج ما شابه ذلك من المسائل المادية ، دون أن تعطى أى اهتمام للجانب الروحى فى هذه الفريضة السامية ، وأسوق لك مسألة أوردها النووى وقال عنها : انها مسألة نفسية ، وقد طلبتها سنين حتى وجدتها ولله الحمد ، ما هى هذه المسـألة ؟

أصبح شخص ولم ينو صوما ، فتمضمض ولم يبالغ ، فسبق الماء الى جوفه ثم نوى صوم تطوع ، صح على الأصح .

تلك هى المسألة النفسية التى تطلبها النووى رحمه الله حتى وجدها ، وهناك فى الكتب الفقهية مسائل من هذا النحو تعد بالمئات ، ليس لها من دلالة الا جفاف الدراسات وبعدها عن الحياة ، واليك بعضها :

لو غرز الصائم سكينا فى لحم ساقه لم يفطر !! بخلاف لو غرزها فى جوفه فانه يفطر !!

لو أدخل بعض خيط فى جوفه قبل الامســاك وبقى البعض الآخر خارج الجوف ، فانه يفطر اذا شد الخيط وأخرجه من جوفه ، ويفطر كذلك اذا ابتلع الباقى .

لو بل خيطا بريقه ثم أخرجه ثم أدخله فى فمه وهو رطب واختلط بلل الخيط بريقه وابتلعه أفطر .

هذا وأمثاله ما اهتم به كثير من الفقهاء فى موضوع الصوم ، أما هجر القول وفحشه ، أما الحكمة الحقيقية للصوم والانتفاع به ، أما اهمال الأعمال بسبب الصوم ، أما جشع الصائمين عند الفطر ، أما بخل الصائم وشحه ، أما ضيق صدره وثورته لسبب أو لغير سبب ، فهذا مالم يعن به الفقهاء أو ما منحوه عناية ضئيلة .

وقد سبق عند الكلام عن الزكاة أن تحدثنا عن أولئك الذين حاربوا روح الاسلام بذكرهم الحيل التى يتخلص بها المسلم من دفع الزكاة ، وقد حدث فى الصوم مثل ما حدث فى الزكاة ، فالفقهاء تحدثوا عن السفر الذى يبيح الفطر من حيث طوله دون أن يتكلموا كلمة واحدة عن أهدافه وضرورته للصائم ، ولذلك نجد أعرابيا يعتمد على أقوال الفقهاء ويهتف عندما استقبل رمضان فى فصل الصيف قائلا : والله لأشتتنه بالسفر .

الصلاة فى كتب الفقه القديمة :

وفى باب الصلاة وما تستلزمه من طهارة يجد الباحث أشتاتا مــن الاحتمالات قدرها الفقهاء وتكلموا فيها ، ولكنهم كالعهد بهم لم يذكروا كلمة واحدة تبين أن الصلاة انفلات من ضجيج الحياة ليفرغ المسلم إلى الله بضع لحظات من اليوم ، وكثير من الفقهاء كانوا على صلة بالخلفاء ، وهم يعرفون آداب الدخول على الخليفة ، والمثول بين يديه ، والحديث فى

حضرته ، وقد صور بعضهم هــذه الآداب أروع تصوير ، وســار عليها الفقهاء والعلماء الذين عرفوا طريقهم الى مجالس الخلفاء ، وقد أوضحت ذلك فى كتابى « تاريخ التربية الاسلامية » ومما جاء فى ذلك مــا يلى : فالداخل إلى حضرة الخليفة أو الى مجلس سمره يجب أن يكون نظيفا فى بزته وهيئته ، وقورا فى خطوه ومشيته متبخرا بالبخور الــذى تفوح رائحته ، وأن يتجنب منه ما يعلم أن السلطان يكرهه (١) ، وعلى الجالس أن يقلل الالتفات الى جانبيه وورائه ، والتحريك ليده أو شيء من أعضائه ، وأن يغض طرفه عن كل مرئى إلا شخص الخليفة وحده • • • وأن يمتنع من الضحك وإن جرى ما يوجبه • • • وليعلم أن أجل ما يكون الانسان فى عين صاحبه اذا كان شخصا صمتا وجســما صلدا ، لا يخرج منــه شيء كالبصاق والمخاط ولا يدخل اليه شيء كالطعام والشراب (٢)

ويوصى كشاجم (٣) جليس الخليفة أن يقبل عليه بالوجه والنظــر والوعى ، فلا يشغل الجليس طرفه عن الخليفة بنظر ، ولا أطرافه بعمل ، ولا قلبه بفكر •

وهكذا عرف العلماء والفقهاء هذا الأدب واتبعوه وأوصوا به ليكون سلوك من يجلس فى حضرة الخليفة ، انه أدب شمل نظافة البدن ، وجمال الملبس ، وعطر البخور ، ثم تعدى ذلك الى ضبط الحركة ، وضبط الشعور ، وشدة الاهتمام ، ثم تجاوز ذلك الى الاتجاه للخليفة بالفكــر والوعى ، عرف الفقهاء والعلماء هــذا ودونوه ، فماذا دونوا لمن يكــون فى حضرة الإله ؟

الحقيقة المؤلمة أنهم لم يدونوا شيئا من هذا القبيل ، وكان كل اهتمامهم أو جله متجها اتجاها ماديا جافا ، جعل من الصلاة عملية أوتوماتيكية كأنما تقوم بها ماكينة لا قلب لها ولا إحساس ، وجعل من الوضوء أو التيمم

---

(١) الصابى : رسوم دار الخلافة ٤٦ — ٤٧ مخطوط •
(٢) رسوم دار الخلافة ص ٥٠ — ٥١ •
(٣) أدب النديم ص ٣٢ — ٣٣ •

وسيلة لدخول الصلاة ، أما ما فى الصلاة من تفرغ الى الله لحظات ، وما فيها من آداب اجتماعية رائعة ، وما فى الوضوء واللبس من إعداد الشخص للمثول فى حضرة العلى العظيم ، فلم ينل من عناية الفقهاء اهتماما ذا بال ، وحتى كلمة « الخشوع » التى قفزت الى اصطلاحات الفقهاء ، خرجوا بها عن معناها ، وفسروها على مقتضى اتجاههم بالتأنى فى السجود أو الركوع ، دون أن يوردوا أهم معانى هـذه الكلمة من الخضـوع والتفكير فى الله والاجلال لذاتــه .

وسنورد فيما يلى نماذج قليلة لمــا أورده الفقهاء فى بابى الوضوء والصلاة مستقاة من أهم كتبهم .

السـواك :

أنقل لك نصا بحروفه ورد فى أكثر من كتاب من كتب الفقه ، لترى مجموعة من فقهاء المسلمين يختلفون ويتفقون ويوردون الأدلة والردود والاعتراضات على قضية ظنوها خطيرة هى أن يستاك الشخص بإصبعه أو إصبع غيره ، وما إذا كان ذلك يجزى أو لا يجزى وهاك ذاك النص : ولو استاك بأصبع غيره !! وهى خشنة أجزأ [illegible] ، قاله فى شرح المهذب ، وفى أصبعه خلاف ، الراجح فى الروضة [illegible] يجزىء ، والراجح فى شرح المهذب الاجزاء ، وبه قطع القاضى حسين والحاملى والبغوى والشيخ أبو حامد واختاره الدريانى فى البحر . ! ! !

غسل الوجه فى الوضوء :

يجرى الفقهاء فى تحديد الوجه عملية هى أقرب الى علم الهندسـة والمساحة منها الى علم الفقه ، قالوا : وحده الوجه من مبدأ تسطيح الجبهة الى منتهى الذقن طولا ، ومن الأذن إلى الأذن عرضا ، وموضع التحذيف ليس من الوجه ، والصدغان ليسا من الوجه على الأصح فى الشرح والروضة ، ورجح فى المحرر أنهما من الوجه . . . قال فى الروضة يجب غسل جزء من

رأسه ورقبته وما تحت ذقنه مع الوجه ليتحقق استيعابه ، ولو تأخرت الأذنان أو تقدمتا عن محلهما المعتاد ، اعتبر الأصل •

المضمضة والاستنشاق :

يستحب التثليث فى المضمضة والاستنشاق ، ولها صور ، أن يتمضمض ثلاث مرات ثم يستنشق ثلاث مرات ، أو أن يتمضمض مرة ثم يستنشق مرة وهكذا ثلاث مرات ، وتغيير الماء تختلف الأقوال فيه ، فمنهم من يرى تغييره فى كل مرة فيستعمل ست غرفات أو أن يستعمل غرفة واحدة للمضمضة ثلاث مرات وغرفة أخرى للإستنشاق ثلاث مرات ، فاذا تمضمض ثم استنشق ، ثم تمضمض ثم استنشق ، ثم تمضمض ثم استنشق ، جاز أن يستعمل ثلاث غرفات ، والأفضل أن يستعمل غرفة واحدة للجميع فهذه أو سخها وأشرفها •

هكذا نص الفقهاء ، ولا يستسيغ عقل سليم أن يقبل أن يكون أو سخها أشرفهـا •

ترك استقبال القبلة للمصلى المحارب :

تصور الفقهاء رحمهم الله أن الاسلام وهو دين اليسر والسهولة ، الدين الذى يجيز للمسافر أن يفطر فى رمضان وكذلك يجيز الفطر للحامل والمرضع ، هذا الدين السمح تصوره الفقهاء يلزم المجاهد بالصلاة وهو فى وسط المعركة يحارب أعداء الاسلام حربا شرعية ، استمع اليهم يقولون بالحرف الواحد فى أكثر من كتاب : « إذا التحم القتال ولم يتمكن المسلمون من تركه بحال لقلتهم وكثرة العدو ، صلوا ركبانا أو مشاة ، مستقبلى القبلة وغير مستقبليها ، وليس لهم التأخير عن الوقت للآية الشريفة الدالة على اقامة الصلاة فى وقتها ، واعلم أنه إنما يعفى عن ترك الاستقبال إذا كان بسبب العدو ، فلو انحرف عن القبلة لجماح الدابة وطال الزمن بطلت صلاته ، ويلزمه الركوع والسجود أو الإيماء بهما إذا لم يستطع تمامهما

على أن يكون السجود أخفض من الركوع ، ويجب الاحتراز عن الصياح بكل حال لعدم الحاجة اليه ، ولو احتاج الى الفعلات الكثيرة كالطعنات والضربات المتوالية فعل ولا تبطل صلاته وقيل تبطل ونص عليه الشافعي .

سامح الله هؤلاء الفقهاء كيف الزموا المحارب بأن يصلي ، وهو يكافح عدوا أقوى منه واشترطوا عليه ضبط نفسه في هذه الحال فلا يصرخ ، وضبط دابته فلا تجمح ، بل إن منهم من أبطل صلاة المحارب إذا أكثر الضرب والطعن .

ليت الفقهاء تذكروا القصر والجمع في الصلاة عند السفر ، ولو قاسوا قيام المعركة بالسفر لوجدوا حلا للمسلم ليجمع بين الصلاة وواجب الدفاع عن الدين والوطن .

وقد أجاز الفقهاء المحدثون الفطر للطلاب أيام الامتحانات اذا كان الصوم يضر بهم وبمستقبلهم ، ولعلهم قاسوا الامتحانات على السفر .

ما أجمل الشريعة الاسلامية لو أعمل الفقهاء عقولهم للصالح العام .

وكثيرا ما يحس الفقهاء أن ما يذكرونه من الفروع بعيد عن الفهم والاحاطة وحينئذ يلجئون الى الشعر ويدونون به هذه التفريعات العجيبة . ومن ذلك مانظمه بعضهم عن أحوال موافقة المأموم للإمام في أفعاله وعدمها :

فعلا وتركا في سجود تلاوة وافق ، وتركا في تشهد أول
وبضده لسجود سهو ثم لا هذا ولا ذا في قنوت فاعقل

وقول الآخر في حضور المرأة الصلاة في المسجد مع الرجال :

قلت وتحضر العجوز بإذن زوجها يجوز
ما لم يكن لباسها مشهورا أو صحبت طيبا فلا حضورا

فقهاء العصر الحاضر وتأثرهم بالماضى :

قد يظن القارىء أن هذه الاتجاهات المادية والفروض العجيبة ترتبط بالماضى وليس لها وجود أو بقايا فى الحاضر ، وهذا الظن خاطىء ، فقد تأصلت هذه الاتجاهات الغريبة فى نفوس بعض الفقهاء المعاصرين ، وعانينا منها ونحن ندرس فى الأزهر ، بل انها تقفز أحيانا الى الصحافة اليومية . وعلى لسان كبير مسئول فى أمور الشرع هو المفتى . وأرجو أن يستجمع القارىء نفسه حتى لا تشمئز مما سنقتبسه من فقرات حديثه التى تجرح الحياء ، وأن يسيطر على معدته حتى لا يتقايأ مما ورد فى بعض العبارات .

يقول الأستاذ محمود عبد المنعم مراد (الأخبار فى ١٤ رمضان سنة ١٤٠٥ هـ — ٢/ ٦ / ١٩٨٠ م) .

« وافانى أحد القراء بقصاصة من جريدة تتضمن حديثا قصيراً لفضيلة الشيخ عبد اللطيف حمزة ، مفتى جمهورية مصر العربية بعنوان مفسدات الصوم . وقد بدأ فضيلة الشيخ حديثه أو مقاله بقوله ويفسد الصوم بالجماع فى أحد السبيلين على الفاعل والمفعول به ؟! (ياالله من هذا التعبير العجيب) ، ثم انتقل فضيلته الى مفسدات الصوم بالاكل والشرب . فقال والأكل والشرب سواء فيه ما يتغذى به أو يتداوى به . وابتلاع مطر دخل فمه ، .. ثم قال وأكل الطين الأرمنى مطلقا والطين غير الأرمنى وأن أعتاد أكله ..

« وأسأل فضيلة المفتى جادا لا هازلا ما هو هذا الطين الأرمنى وما الطين غير الأرمنى ، وبخاصة أن فضيلته فى ختام حديثه عاد فقال ومن مفسدات الصوم أيضا اذا أكل الصائم ارزا نيئا أو عجينا أو دقيقا بدون سكر ، أو طينا غير أرمنى لم يعتد أكله .. ولتكرار الحديث عن الطين

الأرمنى وغير الأرمنى ، سواء اعتاد المرء أكله أم لم يعتد ذلك ، أتساءل عن هذا الطين وذاك الطين ، أما الأرز النيىء ، والعجين فأمرهما مفهوم .

« ثم ختم فضيلته حديثه عن مفسدات الصوم بقوله « أو ابتلع حصاة أو حديدا أو ترابا » مرة أخرى ، فما رأى فضيلته فيمن ابتلع قطعة من النحاس أو القصدير أو الألومنيوم ، هل يكون الأمر فيها كالأمر فى الحديد أو يخالفه ؟

« وفى وسط الحديث يقول فضيلته انه مما يفسد صوم الصائم « ابتلاع بزاق زوجته أو صديقه لا غيرهما » وهنا أيضا أتساءل لماذا يفسد الصوم ابتلاع بزاق الزوجة أو الصديق ، بينما لا يفسده ابتلاع بزاق شخص آخر ؟ مع الاعتذار للقراء عما فى هذه العبارة من أثر .

« يا فضيلة المفتى ، عندى لك ألف سؤال مماثل ، ولكن السؤال الملح بعد قراءة حديثك هو : هل تعيش فضيلتك فعلا فى السنة الخامسة بعد الأربعمائة والألف من الهجرة » ؟

محمود عبد المنعم مراد

وفى نفس اليوم علق الأستاذ أحمد بهاء الدين بجريدة الأهرام على هذا المقال العجيب الذى نشره المفتى بقوله :

« لم اصدق عينى وأنا أقرأ فى جريدة « الوفد » المقال الذى كتبه الزميل جمال بدوى ، مدير التحرير .. معلقا على كلام نشره الشيخ عبد اللطيف حمزة مفتى مصر عن « دليل الصائم ومفسدات الصوم » ورجعت الى أصل كلام مفتى الديار غير مصدق فوجدت العجب !

« ولن أهين القراء بما ذكره المفتى بين « مفسدات الصوم » من صور غريبة للعلاقات الجنسية الشاذة ، التى لم ترد فى « ألف ليلة وليلة »

المصادرة بحكم قضائى ، والتى ذكر أنها تفسد الصوم ٠٠ وكأنَّ فضيلته يرى أنها — فى غير أيام الصوم — أمور مقبولة !!

« ولكننى أضرب مثلا من عجائب أخرى ، فأكل اللحم النيىء يفسد الصوم ، الا اذا ضرب فيه الدود و « أكل الطين الأرمنى مطلقا أو أكل الطين « غير الأرمنى » للمعتاد أكله ٠

« ومن مبطلات الصوم « ابتلاع بزاق » أى — بصاق أو لعاب — الزوجة ٠٠ أو الصديق !! وقد فهمت حالة ابتلاع « بزاق » الزوجة ولم افهم حالة ابتلاع « بزاق » الصديق ٠

« ومما يفطر الصوم أكل الارز نيئا أو عجينا أو دقيقا بدون سكر أو نواة أو قطنا أو سفرجلا ! أو ابتلع حصاة أو حديدا أو ترابا ! أو إن دَهَنَ شاربه ثم أكل منه متعمدا !

« وأى مجتمع مسلم اليوم يأكل اللحم النيىء وقد ضرب فيه الدود ؟ ٠ ويأكل الطين الأرمنى أو غير الأرمنى ومعتاد على ذلك ؟

« هل بلغ الجمود فى النقل ، وتعطيل العقل ، حدَّ عدم تمييز الزمن الذى نعيش فيه وحدَّ عدم الانتقاء حتى فى النقل ٠

« وقد صح تعليق الزميل جمال بدوى حين قال « إن المسلم المعاصر يعرف من أمور دينه أضعاف ما تقدَّم تلك المعلومات التى تذكرنا بما كان يتناقله أدعياء الفقه فى عصور الانحطاط ، عندما كانوا يفترضون المستحيلات لاظهار براعتهم فى الافتاء ، فكان شأنهم شأن الهواة والمحتالين ، وليس شأن العلماء الذين يحترمون أنفسهم ويزنون كلامهم بميزان الذهب » ٠

« أبهذا النمط من التفكير ، يعيش بعض علماء الاسلام ، وفى أعلى المناصب فى القرن الخامس عشر للهجرة ؟! هل هذا هو النمط الذى يراد منه أن يُقْنِّنَ لنا فى تقنين الشريعة الاسلامية ؟ »

أحمد بهاء الدين

وعلق الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده فى صحيفة « الوفد » الصادرة يوم ٦ يونيو سنة ١٩٨٥ على ما جاء فى كلمة الشيخ المفتى بأن أكل اللحم النيىء اذا ضرب فيه الدود لا يفسد الصوم ، فتساءل الدكتور عن أكل الجوافة أو المشمش بدوده وعما اذا كان لا يفطر الصائم كاللحم بدوده ؟ وما الفرق بين الاثنين ؟

وهكذا أثارت هذه الأفكار سخرية المفكرين والصحفيين وهى فى الحق امتداد لحشد من الأفكار الهزيلة البعيدة عن روح الاسلام ، والتى تحتشد فى كتب الأوائل ، فلما أعلن الشيخ المفتى بعضها واجه هذا الاستنكار لأنه أراد أن يبعث الحياة فى ماض لا يستحق الحياة .

الفقهاء والمعاملات

ولندع العبادات لنذهب الى المعاملات التى يجب أن تكون متطورة شديدة الملاءمة لشئون الخلق ، لنرى الى أى مدى استطاع الفقهاء المسلمون أن ينتفعوا وينفعوا الناس بهذه الشريعة السمحة ، بل لنرى كيف أهمل الفقهاء روح الاسلام وروح التشريع ، ووجهوا كل العناية الى الجانب المادى الجاف فى دراستهم للفقه الاسلامى ، ولنكتف بأخذ باب الطلاق نموذجاً لدراستنا .

الطلاق :

عن الطلاق يقول صلى الله عليه وسلم : (أبغض الحلال إلى الله الطلاق) ، ومن الواضح أن هذا الحديث الموجز يصور العلاقة الزوجية مقدسة سامية يثير قطعها غضب الله ، ويخيل إلىَّ أن الفقهاء لو عنوا بايضاح روح التشريع فى هذا الموضوع ، وبينوا أن الطلاق لا يلتجأ إليه إلا إذا ضاقت السبل باصلاح ذات البين ، لو فعل الفقهاء ذلك لقل تهاون العامة بذلك الموضوع ، ذلك التهاون الذى جعل من المرأة سلعة يحتفظ بها صاحبها أو يبعدها عنه بالطلاق وقتما يشاء ، مما هدد الحياة

الاجتماعية ، وجعل سعادة الأسرة فى مهب الريح ، ولكن الفقهاء أهملوا روح التشريع اهمالا تاما ، وبدأوا كلامهم فى هذا الباب فبينوا الطـلاق لغة وشرعا ، ثم بينوا أنه صريح وكناية ، وأوردوا ألفاظ الصريح ونماذج من الكناية . ودللوا عـلى جواز الطلاق بالقرآن والسنة والاجمـاع ، وشرحوا عدد الطلقات المباحة للحرّ والعبد ، ثم أوردوا من مسائل الطلاق نماذج حار الباحثون فى تعليل إيرادها . إن مئات منها خيال لا يمكن أن يقع ولا من هاذٍ أو معتوه ، ولكنهم أضاعوا جهدهم ووقتهم فى تصورها والاجابة عليها ، وطالما اتفقوا واختلفوا فى ذلك حتى رمى بعضهم البعض الآخر بالجهل وقلة الفقه ، وسـنورد فيما يلى نماذج قليلة مما حشـده الفقهاء من مسائل فى هذا الباب :

لو قال لزوجته : إن كلمت زيدا فأنت طالق . فكلمته ولو سكران أو مجنونا طلقت . قال ابن الصباغ يشترط أن يكون السكران بحيث يسمع ويتكلم ، ولو كلمته وهو مغمى عليه أو وهو نائم لم تطلق ، وإن كلمته وهى مجنونة قال ابن الصباغ : لا تطلق ، وعن القاضى حسين إنها تطلق . قال الرافعى والظاهر تخريجه عـلى حنث الناسى ، وإن كلمته وهى سكرانة طلقت على الأصح ، ولو خفضت صوتها بحيث لا يسمع لم تطلق وإن وقع فى سمعه شىء ، فذلك هو المقصود اتفاقا لأنه لا يقال كلمته ، ولو نادته من مسافة بعيدة لا يسمع منها الصوت لـم تطلق ، فلو حملت الريح كلامها ووقع فى سمعه فالمذهب أنها لا تطلق ، وإن كانت المسـافة بحيث يسمع فيها الصوت فلم يسـمع لذهول أو شغل طلقت ، فان لم يسـمع لعارض ريح أو لصمم فيه وجهان لم يصحح الرافعى ولا النووى هنا شيئا ، وصحح الرافعى فى الشرح الصغير الوقوع وجزم به فى الشرح الكبير فى صلاة الجمعة عند إسماع أربعين الا أنه فرض المسألة فى الصمم فقط ، ونقله فى التتمة عن نص الشافعى ، وأمـا النووى فاختلف تصحيحه ، فصحح فى تصحيح التنبيه أنه لا يقع وجزم فى صلاة الجمعة بالوقوع .

وعن محمد بن الحسن أن الرجل اذا كان له ثلاث نسوة لم يدخل

بواحدة منهن ، اسم واحدة منهن زينب والأخرى عمرة ، والثالثة حمادة ، فقال لزينب : إن طلقتك فعمرة طالق ، ثم قال لعمرة : إن طلقتك فحمادة طالق ، ثم قال لحمادة : إن طلقتك فزينب طالق . فطلق زينب واحدة فان زينب تطلق التطليقة التى طلقها ، وتطلق عمرة تطليقة بالحنث ، ولا يقع الطلاق على غيرهما . فان لم يطلق زينب ولكن طلق عمرة طلقت عمرة التطليقة التى صدرت ، وطلقت حمادة بالحنث ، ولم تطلق زينب شيئا ، فان لم يطلق عمرة ولكن طلق حمادة تطليقة طلقت حمادة التطليقة التى صدرت وطلقت زينب تطليقة بالحنث ، وطلقت عمرة تطليقة أخرى بالحنث ، لأنه حنث فى زينب فتطلق عمرة لحنثه فى زينب ، فان لم يكن طلق امرأة منهن شيئا ولكن قال : احداكن طالق ثم مات قبل أن يبين أيتهن طلق فان لعمرة نصف الصداق ولا ميراث لها ، ولزينب ولحمادة صداق وربع وصداق بينهما نصفين ، ولهما نصف الميراث بينهما نصفين . ونصف الميراث يرد على كل حال وزينب وحمادة فى حال تطلقان جميعا ، وفى حال تطلق إحداهما فلهما فى حال صداق ، وفى حال صداق وربع صداق ، وأما الميراث ففى حالة ترث إحداهما . وفى حالة لا ترثان فلهما نصف الميراث بينهما نصفين .

ثم فرض محمد بن الحسن هذه الزوجات اللاتى لم يدخل بواحدة منهن أربعا فكثر الحساب والكسور .

ومنها لو قال : إن سرقت منى شيئا فانت طالق . فدفع إليها كيسا فأخذت منه شيئا لم تطلق لأنه خيانة لا سرقة قلت هكذا جزم به الرافعى والنووى وفيه نظر من جهة أن العامى لا يفرق بين السرقة والخيانة فاذا فسرت السرقة بالخيانة وأخذنا بذلك أوقعنا عليه الطلاق عملا بعرفهما واعتقادهما .

ومنها اذا قال : إن كلمتك فأنت طالق ، ثم أعاد الجملة طلقت لأنه كلمها ، وكذا لو قال . اعرفى ذلك ، طلقت لأنه كلمها .

ولو قال : إن قرأت سورة البقرة فى صلاة الصبح فأنت طالق فقرأتها وشرعت بالأخرى فى الركعة الثانية لم تطلق على الصحيح ، لأن الصلاة عبادة واحدة يفسد أولها بفساد آخرها .

وهكذا لا يستطيع الانسان أن يدرك أهو فراق حدث بين زوج وزوجته لعدم استطاعة التوافق والانسجام بينهما ؟ أو هى عملية حساب ولغة ومنطق ؟ وأين هذا الذى سيعقد قرانه على ثلاث أو أربع ولا يدخل بهن ثم يبدأ فى عملية منطقية بين زينب وعمرة وحمادة ؟ انه الجانب المادى الجاف الذى ازدحمت به كتب الفقه ، وشغل به الفقهاء ، وهو بلا شك دليل على نشاط عقلى ولكنه من الناحية الواقعية لا مكان له .

وليس الفقهاء فحسب هم الذين اتجهوا هذا الاتجاه ، وليس علم الفقه وحده هو الذى بلى بهذه الدراسات الجافة . بل إنها العلوم كلها التى عالجها من نسميهم العلماء ، انها المنطق والحديث والتفسير والتاريخ الاسلامى وعلم الكلام والنحو والصرف والبلاغة ، فقد تشبعت هذه العلوم جميعا بالعجمة وانعدمت الروح فى دراستها ، وسنعرض لبعضها عند الحديث عن « دراستى فى الأزهر » ولكنى هنا أحس بأنه من الضرورى أن أورد صورا تبين الدراسات التى اتصلت بالقرآن الكريم ، هذا الكتاب المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هذا الكتاب المعجز فى أسلوبه ومعانيه ، هذا الكتاب العربى المبين ، ماذا فعل به هؤلاء العلماء عندما كتبوا عنه ما أسموه تفسيرا ؟

الجواب أنهم كتبوا كل شىء لا يلزم ، وأهملوا جل ما يجب أن يكتب ، اهملوا ابراز جمال القرآن فى أسلوبه ومعانيه ، وما يدعو له من خلق وبر وعمل صالح ، وأحالوا الروح المتدفقة والمعنى الخلاب والأسلوب المعجز ، الى قواعد نحوية ودراسات بلاغية وفقهية . إن الرجل العربى ليقرأ القرآن فيحس بلذة ما تعدلها لذة ، فاذا ذهب يقرأ تفسير القرآن استعجم عليه القرآن واستغلق .

ومن القصص التى تروى عن إحساس العرب بجمال القرآن ان رجلا مرّ بفتاة تنشد من شعرها هذه المقطوعة :

أستغفر الله لذنبى كله قتلت إنساناً بغير حله
مثل غزال ناعم فى دلّه وانتصف الليل ولم أصلّه

فقال الرجل : أعيدى يا فتاة ، فشعرك من أعذب ما سمعت وأجمله

فأجابت الفتاة : هل ترك القرآن يا أبتاه لنا عذوبة أو جمالا ؟ لقد استأثر كلام الله جلّ وعلا بالبيان المبين ، والقول الفصل ، والحكمة الرائعة . وأوشك كلامنا إذا قيس به أن يصبح غثاً لاجمال فيه .

قال الرجل : كيف ذلك يافتاة ؟

قالت : انظر الى الآية الكريمة « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » (١) كيف اشتملت آية واحدة على أمرين ونهيين وبشارتين (٢) مع جمال أسلوب وحسن وقع .

ذلك لون من تفسير القرآن الكريم بابراز محاسنه ، وما فيه من سحر وجمال . فماذا فعل المفسرون عندما عمدوا الى كلام الله يدوّنون تفسيره ؟

نسوق فيما يلى بعض آيات من القرآن الكريم ، ثم نردفها بما ذكره المفسرون عنها ، وتلك الآيات تفيض جمالا .. ...ية عند المسلم الذى ينظر الى القرآن نظرة تقديس واجلال ، وكذلك عند الكافر أو المشرك الذى يقرأ القرآن على أنه صفحات من الأدب العربى فحسب ، وهذه هى الآيات :

---

(١) سورة القصص الآية السابعة .
(٢) الأمران : أرضعيه ، القيه . والنهيان : لا تخافى ، ولا تحزنى . والبشارتان : انا رادوه اليك . وجاعلوه . . .

« وعبـــاد الرحمن الذين يمشون عـــلى الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا ســـلاماً ، والذين يبيتون لربهم ســـجداً وقياماً ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ســـاءت مستقراً ومقاما ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ، والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا ، فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما ، ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب الى الله متابا ، والذين لا يشـــهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ، والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ، والذين يقولون : ربنا هب لنا هـــن أزواجنا وذرياتنا قرة أعـــين واجعلنا للمتقين إماما ، أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما ، خالدين فيها حسنت مـــستقرا ومقامـــا » (١) .

ذلك نموذج من كلام الله وأستطيع أن أقول إنه لا يحتاج الى تفسير ، إنه إبراز جميل للخلق الذى يتحلى بـــه عباد الرحمن ، وتصوير مخيف للشرور التى يرتكبها العصاة ، وفى هذا الأسلوب حلاوة وطلاوة وفن وأدب ، فماذا قال المفسرون عن هذه الآيات ؟ سنورد النص الحرفى لعبارة البيضاوى وهى غير بعيدة عما ذكره غيره من المفسرين ، قال :

(وعبـــاد الرحمن) مبتدأ ، خبره أولئك يـُجزَوْنَ الغرفة أو (الذين يمشون على الأرض) واضافتهم الى الرحمن للتخصيص والتفضيل أو لأنهم الراسخون فى عبادته على أن يكون عِبَاد جمع عابد كتاجر وتجّار (هونا) هينين أو مشيا هينا مصدر وصف به والمعنى أنهم يمشون بسكينة وتواضع . (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) تسلما منكم وتركا لكم لا خير بيننا ولا شر ، أو سدادا من القول يسلمون فيه من الايذاء والاثم ، ولا ينافيه

---

(١) سورة الفرقان : الآيات ٦٣ — ٧٦ .

آية القتال لتنسخه فان المراد به الاغضاء عن السفهاء ، وترك مقابلتهم فى الكلام (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) فى الصلاة وتخصيص البيتوتة لأن العبادة بالليل أحمد وأبعد عن الرياء ، وتأخير القيام للروى ، وهو جمع قائم أو مصدر أجرى مجراه (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما) لازما ومنه الغريم لملازمته ، وهو إيذان بأنهم مع حسن مخالطتهم مع الخلق واجتهادهم فى عبادة الحق وجلون من العذاب مبتهلون الى الله تعالى فى صرفه عنهم لعدم اعتدادهم بأعمالهم وعدم وثوقهم على استمرار أحوالهم (إنها ساءت مستقرا ومقاما) أى بئست مستقرا وفيها ضمير مبهم يفسره المميز ، والمخصوص بالذم ضمير محذوف ، به ترتبط الجملة باسم إن ، أو أحزنت وفيها ضمير اسم إن ، ومستقرا حال أو تمييز ، والجملة للعلة الأولى أو تعليل ثان وكلاهما يحتملان الحكاية والابتداء من الله . (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا) لم يجاوزوا حد الكرم (ولم يقتروا) ولم يضيقوا تضييق الشحيح ، وقيل الاسراف هو الانفاق فى المحارم ، والتقتير منع الواجب . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وكسر التاء ، ونافع وابن عامر والكوفيون بضم الياء وكسر التاء من أقتر وقرىء بالتشديد ، والكل واحد (وكان بين ذلك قواما) وسطا عدلا ، سمى بـه لاستقامة الطرفين كما سمى سواء لاستوائه ، وقرىء بالكسر ، وهو ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص . وهو خبر ثان أو حال مؤكدة ، ويجوز أن يكون الخبر بين ذلك لغوا ، وقيل إنه اسم كان لكنه مبنى لاضافته الى غير متمكن وهو ضعيف لأنه بمعنى القوام فيكون كالاخبار بالشىء عن نفسه .

وهكذا يسير البيضاوى فى تفسيره ، وأستطيع أن أقول دون تحرج أنه عمّى علىّ القرآن بعد أن كان لى واضحا ظاهر المعنى رائع الأسلوب .

ومن صور التفاسير ما أورده الزركشى من أن الألف واللام فى الحمد لله مختلف فيهما . قيل للاستغراق وقيل لتعريف الجنس . واختاره الزمخشرى ومنع كونها للاستغراق ، قيل وهى نزعة اعتزالية . ويشبه أن

يقال فى تبيين مراد الزمخشرى أن المطلوب من العبد إنشاء الحمد لا الإخبار به ، وحينئذ يستحيل كونها للاستغراق ، إذ لا يمكن للعبد أن ينشىء جميع المحامد منه ومن غيره بخلاف كونها للجنس (١) .

وقد بلغ من عنايتهم بالناحية المادية فى القرآن الكريم ، بعد أن غفلوا عن روحه ، أن ذهبوا يعدون حروف القرآن وكلماته وعدد ما به من الألفات والباءات والتاءات وغيرها من الحروف الهجائية (٢) .

وهكذا اتجهت العناية الى الجسم والى الجانب المادى الجاف فى الدراسات الاسلامية ، وهكذا أهملت روح الاسلام وأخلاق الاسلام وفلسفة الاسلام عند كثير من الباحثين فى عصور الظلام التى طالت وامتد أثرها إلى النصف الأول من القرن العشرين .

مقاومة الاصلاحات العلمية والاجتماعية باسم الدين

وعن علاقة الدين الاسلامى بالعلم يقول المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد أمين : ان إصلاح حال المسلمين يكون بشيئين : أحدهما فصل العلم عن الدين ، والتوسع فى العلم الى أقصى حد مستطاع (١) . . . ولكنى لا أوافق على هذا الرأى ، فمن الخير أن ينمو العلم فى ظلال الدين ، فإن العلم عندما نما فى أوربا بعيدا عن الدين والخلق ، كان العلم مدمرا ، بعث الخراب فى المعمور ، وأثار الفزع فى القلوب ، وسبب الموت للشباب ، واليتم للأطفال ، ورمّل النساء ، وحطم قلوب الآباء .

والدين الاسلامى على وجه الخصوص يحث على العلم ويدعو إليه ، قال الله تعالى :

يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات (٣) .

(١) الكشكول للعاملى ص ٨ .
(٢) الكشكول للعاملى ص ١٧٥ .
(٣) سورة المجادلة الآية ١١ .
(٤) يوم الاسلام ص ١٨٩ .

ــ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (١) ؟

ــ وقل ربى زدنى علماً (٢) .

ــ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (٣) .

وقال عليه السلام : اطلبوا العلم ولو فى الصين .

ولكن بعض من يتحدثون باسم الدين أتجهوا بالعلم اتجاها خاصا عقيما ، وعدوا ما سواه ضلالا وزندقة ، وقد سبق أن قلنا إن العلماء توقفوا عن الاجتهاد وأنهم اتجهوا فى دراستهم اتجاها جافا ، وأهملوا الروح وعنوا بالمادة وبالفروض الوهمية ، ونزيد على ذلك هنا أنهم حاولوا أن يمنعوا غيرهم من السير فى الطريق العلمى القويم ، وأرادوا أن يلزموا الدول والأفراد باتجاهاتهم ، وكان لهم نفوذ وبخاصة على العامة ، إذ كانوا قادة الجماهير ، فأعلنوا أفكارهم ، ووقفوا منها موقف المدافع الحامى ، فقدر لهم النجاح الى حد كبير ، وقد سبب نجاحهم تخلفا قليلا أو كثيرا فى الحياة العلمية والاجتماعية بالدول الاسلامية .

وسنورد فيما يلى نماذج لما أصاب العالم الاسلامى من تخلف بسبب فهم العلماء للدين الحنيف .

مقاومة الاصلاح فى تركيا أيام الخلافة العثمانية :

عندما ظهرت تركيا فى أفق السياسة الدولية كانت دعامتها الأولى جيشها الباسل الذى استطاع أن يسحق كل القوى التى حاولت الوقوف فى سبيله وقد كسب هذا الجيش لتركيا نصرا مؤزرا فى آسيا وافريقية وأوربا ، فحكمت تركيا امبراطورية من أعظم الامبراطوريات التى عرفها التاريخ ، وتهاوت قوى أوربا أمام القوة التركية وهى ترحف كالسيل العارم .

ومرت الأيام ، وتوصلت الدول الأوروبية الى أسلحة جديدة ونظم جديدة فى ترتيب الجيوش وتدريبها ، وبدأت أوربا تحاول استعادة مكانتها

(١) سورة الزمر الآية التاسعة .
(٢) سورة طه الآية ١١٤ .
(٣) سورة النحل الآية ٤٢ .

واسترداد ما اغتصبته تركيا ، فالروس يتحفزون للوثوب على القسطنطينية ، وفرنسا تهاجم مصر ، والثورة بدأت تتحرك فى البلقان .

وأحس السلطان سليم الثالث بالخطر يوشك أن يحدق به ، فأراد أن يستعد له ليضمن السلامة للدولة . وليس الاستعداد إلا بأن يقتبس النظم والأسلحة الجديدة التى أوشكت أن تجعل كفة أعدائه راجحة على كفته ، وأن يعيد تنظيم « الإنكشارية » التى كانت قد أصبحت رمز الاضطراب والرجعية (١) .

مــاذا فى ذلك ؟ وكيف يتعارض هذا مع الدين الذى يقول بارئــه : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » (٢) ؟ ، لسنا نفهم ، ولكن علماء تركيا فى ذلك الوقت وعلى رأسهم شيخ الاسلام قاوموا هذه المحاولة مقاومــة شديدة ، وحرضوا العامة ضد السلطان بحجة أنه يريد التشبه بالافرنج . وكان للعلماء النصر ، فانهزم السلطان وخلع ثم قتل .

الاخوان فى السعودية :

ظهرت بجزيرة العرب فى عهد الملك العظيم عبد العزيز آل ســعود جماعة « الإخوان » وقد عرفت هذه الجماعة بالتعصب الدينى والرجعية ، وكان الملك مصلحا اجتماعيا فذا شديد الفهم لروح الاسلام ، وكان هؤلاء لا يستجيبون للتطور أيا كان مداه واتجاهه ، وأهدافه وبواعثه ، ولذلك حدثت بينهم وبين الملك صراعات وخلافات كثيرة ، ويصور لنا الشيخ حافظ وهبة بعض مواقف هؤلاء من الملك ، قال (٣) :

« شاهد الملك عبد العزيز التليفون لأول مرة فى مكة ، ورأى الفائدة العظيمة التى يسديها فى انجــاز الأعمال وسرعة المواصلات ، ولمــا نقل معسكره من الزاهر (بقرب مكة) الى حداء أراد أن يمد سلكا تليفونيا

---

(١) اقرأ ما كتبناه عن الانكشارية فى الجزء الخامس مــن موســوعة « التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » .

(٢) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

(٣) جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٣١٦ وما بعدها . واقرأ عن صراع الملك ضدهم فى الجزء السابع من موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف .

بين مكة وبين حداء ، وسلكا آخر بين الرغامة وبين حداء حتى يكون على اتصال تام فيما بين مكة ومقره فى حداء وميدان الحرب ، وكنا نقطع المسافة بين مكة وبين معسكره فى أربع ساعات ذهابا ومثلها ايابا على ظهور الإبل أو الخيل ، ولكنه عدل أخيرا عن هذه الفكرة لأن انشـاء التليفون يهيج ثائرة الإخوان فأرجأ هذه المسألة .

« ولما مدت أسلاك التليفون بعد ذلك كان الإخوان يقطعونها لأنهـا عندهم منكر يجب إزالته ، وكثيرا ما كانوا يتعمدون قطع الأسلاك الموصلة إلى قصر الملك أثناء وجوده فى مكة .

« وحدث مرة أن أحد الاخوان ضرب خادما للملك يركب دراجـة وتسمى بلغة نجد (عربة الشيطان) أو (حصان إبليس) بدعوى أنها بدعة ، وأنها تسير بقوة السحر وعمل الشيطان .

« ولما علم رجال الدين بعزم الملك عبـد العزيز على إنشاء محطـات لاسلكية فى الرياض وبعض المـدن الكبرى فى نجـد ، هرعوا له وقالوا : يا طويل العمر ، لقد غشك من أشـار عليك باستعمال التلغراف وإدخاله إلى بلادنـا .

قال الملك : لقـد أخطأتم فلم يغشنا أحد ، لست ولله الحمـد بضعيف العقل أو قصير النظر لأنخدع برأى المخادعين ، وأؤكد لكم أننى لا أسمع كلام أحد فيما تظهر فائدته لى ولبلادى ، ما دام ليس هناك دليل من كتاب أو سنة على تحريمه .

وعندما وضعت الآلة اللاسلكية فى الرياض واستعملت ، كان الناس يعزى بعضهم بعضا بأن انشاء هذه المحطة هو الحدث بين الخير والشر ، وكان العلماء يرسلون من يأتمنونهم لزيارة المحطة ورؤية الشياطين والذبائح التى تقدم لهؤلاء الشياطين ، فلم يجدوا شيئا .

وعندما ظهرت الساعة منذ حوالى ستين سنة فى نجد حطمها من يدعون

العلم والدين من الإخوان بدعوى أنها من عمل الشيطان ، أو أنها على أقل الأحوال بدعة ، وقد اضطر أحد المشايخ التقدميين أن يؤلف رسالة ويطبعها وينشرها ردا على دعوى هؤلاء بعدم جواز استعمال الساعة .

ويقول الشيخ حافظ وهبة إنه صحب مرة أحد العلماء الى محطة التلغراف اللاسلكى ليريه أنه ليست هناك ذبائح ولا شياطين ، ولكن هذا العالم ظن أن الشيخ حافظ دبَّر هذه الزيارة فأخفى الذبائح ، ولهذا تكررت زيارة العالِم للمحطة زيارات مفاجئة .

وقد حدث مثل هذا عند ظهور المذياع ، وقد خطرت فكرة فى ذهن الملك وضع بها حدا لهذه الشبهات التى طال أمدها ، وهى أنه أمر أن يُقرأ القرآن الكريم فى المذياع والتليفون ، وسأل العلماء : هل يقرأ الشيطان القرآن ، وبهذا من جهة ، وبالزمن من جهة أخرى خمدت هذه الفتنة الغاشمة (١) .

فى مصر :

وقد منيت مصر أيضا فى القرن الثامن عشر وما قبله بمثل هذه الحال ، حتى لقد أرادت الحكومة المصرية أن تدخل علوم الرياضة والطبيعة فى مدارسها ، ولكنها لم تستطع أن تُقدِم على ذلك دون أن تستفتى شيخ الأزهر خوفا من ثورة العلماء ، فكتبت له السؤال التالى :

هل يجوز تعليم المسلمين العلوم الرياضية كالهندسة والحساب والهيئة وعلوم الطبيعة ؟

ويجيب شيخ الأزهر فى حذر : إن ذلك يجوز مع بيان النفع من تعلمها .

وهكذا لم يعمل العلماء فى ميدان الثقافة والمعرفة ، ولم يَدعوا غيرهم

---

(١) انظر جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٣١٧ ، ٣١٨ ، واقرأ عن تطور هذه الفتنة والقضاء عليها بالقوة فى الجزء السابع من موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف .

يعملون ، فوقف العالم الاسلامى ، وقطعت أوربا فى طريق الحضارة شوطا بعيدا .

حرمان المرأة من العلم :

أما التخلف الاجتماعى الذى منى به العالم الاسلامى بسبب جمود الكثيرين من العلماء فيتمثل فى عدة أشياء لعل من أهمها « شل نصف المجتمع — المرأة — والحيلولة بين هذا النصف وبين الاشتراك فى نضال البشرية من أجل مستقبلها وأمنها وسلامها ، لكن الكهانة وتجار الدين يفرضون على المرأة المسلمة أن تولد وتلد ثم تموت ، أى جعلت منها الكهانة آلة مسيرة لا عقل لها ولا رأى ولا حق ، فكيف يمكن — إذا — أن تنبعث ثقافة الفرد المسلم ، وكيف يمكن خلق نهضة المسلمين ونصفهم — باسم الدين — كان يعيش مشلولا بلا عقل (١) ؟ » .

وعلماء الدين يعرفون بلا شك ما حققته المرأة المسلمة فى عصور الاسلام الأولى من تقدم ونجاح فى ميدان العلم والمعرفة وغيره من الميادين ، انهم بلا نزاع سمعوا عن عائشة ورووا الأحاديث عنها ، وأغلب الظن أنهم رأوا كتاب الطبقات الكبير لابن سعد وعرفوا أنه خصص أحد أجزائه لرواية الأحاديث عن النساء ، فروى فيه عن أكثر من سبعمائة امرأة ، وأغلب الظن كذلك أنهم قرءوا قليلا أو كثيرا مما كتبته الشواعر من قصائد رائعة ، ولعلهم بعد ذلك سمعوا عمن برعن فى الطب كزينب طبيبة بنى أود وأم الحسن بنت القاضى أبى جعفر الطنجالى وغيرهما (٢) .

فليت شعرى لماذا حوربت البنت ومنعت من التعلم باسم الدين أو باسم الاستقرار بالبيت الذى ظنوا أن الاسلام فرضه ؟ وقضى عليها بأن تولد وتلد ثم تموت ؟ ومن العجب أن تحرم البنت حتى من

(١) أنور السادات : نحو بعث جديد ص ٣٣ .

(٢) عقدنا فصلا خاصا عن ثقافة المرأة بكتابنا « تاريخ التربية الاسلامية » ص ٣٢٧ — ٣٥٢ من الطبعة التاسعة .

الثقافة الدينية ، وألا يفكر الأزهر أن يفتح أبوابه للبنت لتنال من ثقافة الاسلام زادا ينير لها دنياها التى أطبق عليها ظلام حالك ، ولم ينتبه الأزهر لهذا الموضوع الا سنة ١٩٥٦ بعد أن وجدت البنت طريقها الى المدارس والجامعات قبل ذلك بعشرات السنين ، مما يشعر أن مشروع الأزهر جاء متأخراً ، وعند كتابة هذه السطور للطبعة الأولى فى الشهور الأخيرة من عام ١٩٥٨ كان مشروع الأزهر لم يخرج بعد للنور •

البدع والخرافات :

وفى عهد الثقافة الضحلة الهزيلة التى عاشها المسلمون قرونا طويلة نبتت البدع والخرافات ، كما نبت ما يمكن أن نسميه عبادة الأولياء ، هنا مثلا شجرة مقدسة يلجأ لها الناس معتقدين أن المريض يجد عندها الصحة ، والعانس تجد الزوج ، والعاطل يجد العمل ، وهنا حجر يتلمس الناس عنده البركة ، ويترقبون منه فيضا من الخير والأمل •

عبادة الأولياء وثورة الإصلاح بنجد :

على أن كبرى هذه البدع هى ما أسميناه عبادة الأولياء ، وقد أولت الثورة التى قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية هذا الموضوع عناية كاملة ، فراح الشيخ يهدم القبور ، ويدفع النـاس الى العودة الى عبادة الله وحده •

واذا كان هناك ولى لله من بين الناس ، أى رجل أقبل على اللـه وقبل الله منه ، فان هذا الرجل لا يعرف نفسه ، ولا يستطيع الناس أن يميزوه ، لا يعرف الولى نفسه لأنه دائما يتهمها بالتقصير ، وهو دائما خائف وجل ، وقد تتحقق له كرامة ، أو يستجيب الله لدعائه أو نحو ذلك ، ولكنه لا يتخذ ذلك دليلا على مكانة وصل لها ، انه يفهمه على أنه منحة وعطف من الله العلى العظيم ، وأعتقد أن شخصا ما ، لو بدأ يحس أنه ولى

لكان ذلك بدء فساد ولايته ؛ لأن الإحساس بأداء الواجب كاملا تجاه الله نوع من التحدى لا يقع فيه الأولياء ، فأى عاقل يستطيع أن يدعى أنه أدى كامل الطاعة ؟ وقام بكل واجبه تجاه الله فتولاه الله بالكرامة ؟ وعلى هذا فالولى لا يعرف نفسه ، وإذا جهل الولى نفسه مع أنه يعرف بعده عن العصيان وقربه الى الطاعة ؟ فكيف يعرفه الناس ؟ وربما كان عصيا فى ستر أو مطيعا فى رياء ، إننا نقولها بكل قوة ، إن الولاية يصل لها أناس يعيشون فى غمار الناس ، لا يعرفون أنفسهم ولا يعرفهم الناس .

ولكن العامة لم تخطر لهم هذه الأفكار على بال ، بل جعلوا مقياس الولاية هلهلة الثياب ، أو شرود الذهن ، أو العته ، وأحاطوا مـن رأوه كذلك بأساطير تؤكد أنه شوهد مرة يطير فى الجو ، أو أنه تنبأ بشىء فحدث ، أو نحو ذلك ، وليس لهذه الأساطير من مرجع يعتد بـه ، الا الخيال أو الدعاية التى يطلقها هـذا المحتال أو يذيعها عنه أتبـاع أرادوا الثراء على حساب خبل هذا الرجل وضعف عقلية العامة ، ويصبح ذلك الرجل بهذا إلهاً صغيرا ، فاذا مات بنيت له القباب ، وبولغ فيما أذيع عنه من أساطير ، ولا تكاد تخلو قرية من إله صغير يقدم الناس له ولأتباعه الذبائح ، ويقسم به الأطفال ، وتقام له الموالد ، وهناك آلهـة أكبر يمكن أن تعتبر آلهـة مناطق ، ومقرها المدن ، وتلك يهرع لها اذا تعذر على الإله الصغير أن يحقق الآمـال .

ويمضى الزمن ولا يحقق هذا ولا ذاك أملا ، ولكن الناس فى غيهم سـادرون .

تكفير المخالفين فى الاتجاه الفكرى :

من الواضح أن الإيمان مقره القلب ، وأن مـن الصعب أن يخترق انسان خفقات قلب الآخر ، وبذلك وضع الاسلام المؤمن بمأمن من أن يرمى بالكفر ، فما على المسلم الا أن يعلن ايمانه ، أما حقيقة نواياه فلنترك لله المطلع على السرائر ، وقد وضح القرآن الكريم والحديث الشريف هذه النقطة

ايضاحا تسافيا ، قال تعالى « ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا » (١) ، فبمجرد قول الانسان : لا اله الا الله محمد رسول الله ـ يثبت ايمانه ، وليس لأحد أن يدعى أن هذا غير مسلم أو ينسب له الكفر .

ومن ذلك ما يرويه أسامة بن زيد أحد أبطال غزوة جهينة قال : لحقت أنا ورجل مـن الأنصار رجلا مـن جهينة ، فلمـا غشيناه قال : « لا إله إلا الله » فكف عنه الأنصارى وطعنته برمحى حتى قتلته ، فلما قدمنا المدينة بلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ قلت : يا رسول الله ، انما كان متعوذا . (معتصـما بها من القتل لا معتقدا لها) قال : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم حقيقة ما به (٢) ؟ .

ذلك هو الاتجاه الاسلامى القويم ، ولكن بعض الفقهاء نسوا هذه المبادىء ، وفهموا فى الدين فهما خاصا ، وراحوا يرمون بالكفر كل مـن عارضهم ، ويقول الأستاذ الدكتور أحمد أمين (٣) عن الشيخ عليش ما يلى : هو شيخ من أصل مغربى ، شهرته فى تدينه وعصبيته ورميه الناس بالكفر لأوهى الأسباب . وضيق أفقه ، وشدة غيرته على الدين بالمعنى الذى يفهمـه . .

وقد سبق أن قررنا أن الجمهرة الغالبة من الفقهاء جمدت عن مواصلة الاجتهاد وقنعت بتقليد السابقين من المجتهدين ، ولكن لم يخل عصر مـن العصور الاسلامية من مفكر مجتهد يهاجم التقليد ويسير فى الطريق القويم الذى يحقق أن الاسلام دين كـل زمان ومكان . وقد تعرض هـؤلاء المجتهدون للأسف الى حمـلات عنيفة شـنها عليهم الجامدون ، وبالغ

---

(١) سورة النساء الآية ٩٤ .
(٢) الحكومة والدولة فى الاسلام للمؤلف ص ٢٥ .
(٣) زعماء الاصلاح ص ٢٨٨ .

الجامدون أحيانا فى عنفهم حتى رموا المجتهدين بالكفر والزندقة ، لا لشىء الا لأن المجتهد خالفهم فى رأى ، أو اقترح حلا لمسألة وقف هؤلاء منها جامدين .

وأصبح الرمى بالكفر شيئا يسيرا ، وأصبح سلب المسلم ايمانه وهو أعز ما يملك أمرا هينا ، يمكن أن يحدث لأتفه الأسباب ، وقد عانى المجتهدون فى جميع العصور هجوما سافرا حادا وتسلط عليهم الجامدون تؤيدهم العامة ، وتؤيدهم السلطة التى كثيرا ما كانت الى الجمود أميل ، حذرا من الجانب المتطور أن يجرفهم بتياره الصاخب ، ومن هذه الأسباب التافهة ما روى أن الفقهاء فى القرن الماضى ومطلع القرن الحالى كانوا يرون أن « كل شىء خارج عن المألوف كفر أو حرام أو مكروه ، فتحويل الميضأة القذرة الى حنفيات حرام ، وذهاب للبركة . وقراءة كتب فى الجغرافية أو الطبيعة أو الفلسفة حرام ، ولبس الجزمة بدعة ، فان تحركت نفس صالحة للاصلاح ، خنقت دعوتها فى مهدها ورميت بالزندقة » (١) .

والشيخ محمد عبده يسأل عن حكم لبس المسلم القبعة ، فيفتى أن لبسها اذا لم يقصد به الخروج من الاسلام والدخول فى دين غيره لا يعد كفراً ، واذا كان لحاجة أو دفع مضرة كحجب حرارة الشمس لم يكره ذلك ، وقد تعرض الشيخ محمد عبده بهذ الفتوى الى حملات قاسية شنها عليه العلماء ، وهيجت الصحف عليه العامة والغوغاء .

وفى إندونيسيا — فى فترة من الفترات — كان استبدال الزى الأوربى (بالسارونج) يعرض الشخص الى أن يرمى بالتشبه بالكفر والتمرد على الاسلام .

ويؤلف الأستاذ عبد الوهاب النجار كتابه القيم « قصص الأنبياء »

---

(١) أحمد أمين : زعماء الاصلاح ص ٢٨٩ .

فيؤلف الأزهر لجنة لدراسة الكتاب وبيان مدى صلاحيته ، وتصدر اللجنة تقريرا يجيء فيه :

« ونحن والحق يقال فى حيرة شديدة من تصرف الأستاذ مؤلف الكتاب : اللهم إنا نبرأ إليك من مثل هذه الآراء .

« نستغفرك اللهم ونتوب إليك سبحانك هذا بهتان عظيم .

« ولقد لحقتنا الدهشة من ادعاء المؤلف أنه لم يقف على تلك الأحاديث ، وهذا الاحتمال لا يُتَصوَّر من مثل فضيلة الأستاذ ، بل لا يصح أن يصدر من مسلم » .

وقد ردَّ الأستاذ عبد الوهاب النجار على نقد اللجنة ردودا فيها قوة وحُجج بالغة ، ونُشِرَ الكتاب وأقبل عليه القراء بشغف وتقدير ، أما الذين هاجموه فكان مآلهم النسيان .

وحدَّث الشيخ محمد مصطفى المراغى وهو شيخ للأزهر أنه كانت تعرض له مسائل يرى ضرورة الاجتهاد فيها ، فيعمل الفكر حتى يصل الى حل ملائم لها ، ثم يخشى أن يعلن هذا الحل على الناس على أنه من اجتهاده وبحثه مخافة أن يسلب العلماءُ اسلامه منه ، ولذلك كان يلجأ الى بعض خواصه ، فيعطيهم الحكم ويسألهم أن يبحثوا فى آراء المتقدمين عمَّا يدعم هذا الرأى من قريب أو من بعيد ، حتى يَظْهَرَ الرأى منسوبا الى أحد هؤلاء المتقدمين بدل أن يُنْسبَ الى مجتهد حديث .

عجبا ! ! كيف لصغار الفقهاء المتقدمين وكبارهم أن يجتهدوا ، ويحرم الاجتهاد على المراغى وأمثاله مع مالهم من ايمان عميق واطلاع واسع ، وفكر ثاقب ، وغير ذلك من الصفات التى كثيرا ما ترجح صفات بعض المتقدمين ؟

والذى عمله الامام المراغى عمل نحوَه كثير من المجتهدين المعاصرين .

فمنهم من توقف عن الاجتهاد ومنهم من أخفى اجتهاده حرصا على عرضه أن يهان وعقيدته أن تهاجم ، وقد نجم عن ذلك خطر كبير اذ بقيت أسئلة كثيرة دون أن تجد لها جوابا شافيا ، هناك البنوك والمعاملات معها من ايداع أو اقتراض ، وهناك البورصة والأسهم ، وهناك حكم صيام العمال الذين يحملون الحجارة الثقيلة ويرتفعون بها عدة طوابق فى العمارات الشاهقة فى أيام رمضان ، وهناك — كما سبق القول — اباحة الطلاق دون قيد ، واباحة تعدد الزوجات دون شرط ، وغير ذلك من الأشياء التى تحتاج الى تفكير أو اعادة النظر تبعا لتجدد الظروف والأحوال ، ولكن العلماء صامتون ، انهم يرون العامل فى العمارات يأكل ويشرب علنا مقررا استحالة الصوم مع الجهد الذى يبذله ، ومقررا ضرورة العمل لكسب القوت ، ان العلماء يرون ذلك ، ويتركون الرجل يفطر عاصيا ، ولو اجتهدوا وقاسوا هذا العمل بالسفر فربما أباحوا له الفطر ، والقضاء فى الأيام التى لا يعمل فيها ، وهذا يجعله يفطر وهو طائع بدل فطر فيه روح العصيان والتمرد ، ولكن بعضهم كما قلنا لا يؤمنون بالاجتهاد ، والآخرون يؤمنون به ولكنهم يؤثرون السلامة .

تحويل المذاهب بالتعصب من نعمة الى نقمة :

سبق أن قررنا أنه منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان التفكير يختلف حول بعض المسائل ، وقد كان لعمر رأى غير رأى الرسول فى مسألة أسرى بدر وغيرها ، واختلف رأى عمر مع رأى أبى بكر فى بعض المسائل أيضا كما اختلف على مع عمر ، وكان الاختلاف فى الحكم راجعا الى الاختلاف الطبيعى فى العقول ، أو الاختلاف فى فهم الآية أو الحديث ، فمثلا يقول الله تعالى « فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث » (١) . وقد تبع ابن عباس صريح اللفظ فأعطى الأم الثلث سواء أكان مع الأبوين أحد الزوجين أو لم يكن ، وقال الجمهور ان القاعدة العامة هى ألا تفضل

---

(١) سورة النساء : الآية ١١ .

الأنثى الذكر المساوى لها فى الجهة والقرب • ولذلك أوّلوا الآية ، فقالوا إن للأم ثلث الباقى عند وجود أحـد الزوجين ، وعلى هذا وجـد عندنا رأيان ، وأحيانا كانت توجد آراء ثلاثة أو أكثر •

وقد برهن السابقون من المسلمين فى العصر الزاهر على سعة أفق ، وانفساح صدر ، كان كل منهم يحترم اجتهاد الآخر احتراما كاملا ، ففى خلافة عمر يقضى علىٌّ فى مسألة يرى عمر فيها رأيا آخر ، فلما قيل لعمر : لم لا تقضى برأيك والأمر لك ؟ أجاب : إننا نقضى بالرأى ، والرأى مشترك ، ولسـت أدرى أى الرأيين أحق عنـد الله •

وفى الآية السابقة يسأل ابنُ عباس ابنَ عمر : كيف تعطى الأم ثلث الباقى والقرآنُ يقرر لها الثلث ؟ فيجيب ابن عمر : هذا رأيى ولك رأيك •

وفى عصر الأئمة اختلفوا كثيرا ، واتفقوا كثيرا وكان كل منهم يقرر الرأى الذى يؤديه اليه اجتهاده دون أن يهاجم الامام الآخر أو ينال منه ، وتكوّن للمسلمين مجموعة من الآراء قبل عصر الأئمة وفى خلال ذلك العصر ، ولا نزاع أن هذه الآراء نعمة كبيرة للمسلمين ، انها تقدّم لنا ذخيرة واسعة ، انها نتاج أفكار كدّت وجدّت لتقدم لنا أطيب النتائج ، فما على المسلمين الا أن يستعرضوا هذه الآراء التى بنيت على اجتهاد حصيف ليختاروا منها ما يلائم حياتهم ويتناسب مع ظروفهم •

وجاءت عصور التقليد أو عصور الظلام ، واذا كان المجتهدُ يُجلّ اجتهاد الآخرين • فذلك لادراكه ما يستلزمه الاجتهاد من كدح ذهن وسعة اطلاع ، انه كالقائد البطل يُجِلّ خصمه القائدَ البطل ، ان المجتهد يأخذ الحرية لنفسه وهو لذلك يدرك قيمتها ويمنحها الآخرين ، أما المقلد فقـد عاش على حساب المائدة التى أعدها شيوخ مذهبه ، ولم يرجع للقرآن

---

(١) معجم الادباء جا : ص ٢٤٧ •

الكريم والحديث الشريف اللذين هما المصدر الأساسى لما حفلت به آراء الأئمة من اتجاهات ، فهو لذلك لم يدرك ما بذله المجتهدون من جهد ، وهو بعبارة أدق حرم نفسه الحرية فحرمها بالتالى على الآخرين ، وأصبح يرى كل رأى خالفه باطلا ، ويرى كل مذهب ضالا الا مذهبه ، ويعتقد أن كل الناس على ضلال الا أولئك الذين اتجهوا اتجاهه ، وشب بذلك عداء طويل بين المذاهب المختلفة ، وأسفر العداء عن معارك طاحنة ، وأسفرت المعارك عن خراب ودمار ، وقد شمل هذا الدمار كثيرا من البلدان ، وحسبك أن تقرأ فى معجم البلدان لياقوت لترى أنه فى عدة مواضع يقول : وقد خربت هذه البلدة بسبب الخلاف بين الشافعية والحنفية •

وكثيرا ما أحدث الحنابلة شغبا فى بغداد ويقرر ياقوت أنهم اعتدوا بالضرب والايذاء على الخطيب البغدادى وهو يلقى درسه فى جامع المنصور ، لا لشيء الا لأنه لم يكن يتبع معهم مذهب ابن حنبل •

ومنذ بضع سنين شهدت حادثا من هذا النوع أوشك أن يسبب شرا كثيرا ، ولكن الله سلم ، وقصة ذلك أن مذهب الشافعى هو مذهب الأغلبية الساحقة من سكان مصر ، ولكن بعض الطلاب فى الأزهر كانوا يدرسون مذهب أبى حنيفة رجاء أن يحصلوا على وظائف فى المحاكم الشرعية التى كانت موجودة فى مصر وكانت تسير على مذهب أبى حنيفة • وقد ذهب أحد هؤلاء الطلاب الى قرية زميل له ليزوره ويبقى عنده بضعة أيام ، وجاء يوم الجمعة وذهب الضيف والمضيف الى المسجد حيث اجتمع رجال القرية جميعا ، وبينما كان الخطيب يلقى الخطبة أحس الناس بهمس ، انقلب الى حديث مرتفع ، فحركة ، وكان ذلك الضيف مصدر هذه الحركة التى انتهت بانسحابه من المسجد صارخا فى وجه زميله : ان صلاتك باطلة ، وتكاثرت الكلمات على فيه فلم يعد الناس يميزون كلامه المضطرب •

ماذا حدث ؟

سأل الضيف مضيفه وهما يجلسان بالمسجد : ما مذهب الخطيب ؟

أجاب المضيف : شـــافعى .

— وكيف نصلى خلف شافعى ؟

— كل فقهاء البلدة يتبعون مذهب الشافعى وكل السكان كذلك .

— ولكن أنا وأنت كيف نصلى خلفه ؟

— إنى أصلى خلف هذا الإمام منذ عرفت الصلاة .

— هل أنت متأكد أنه مســح ربع رأسه فى الوضــوء أم اكتفى كالشافعية بشعرة أو ببعض شعرة ؟

— أنا غير متأكد أنه مسح ربع رأســـه .

— إذاً فصلاتنا باطلــة .

* * *

وبدأ الحديث همسا كما قلت ، ولكنه اشتد وانتهى بانسحاب الضيف ، وتساءل الناس عما حدث ، وخمدت الفتنة لعامل واحد هو اهتمام أهــل الريف باحترام الضيف والتجاوز عن هناته .

هنا عقلان جامدان ، لم يستطع الضيف أن يصلى الجمعة ولو — على أشق الاحتمالات — قضاها ظهرا بعد ذلك ، ولم يستطع المضيف أن يتترح ذلك عليه ، انه الجمود وقصر النظر أمام المشكلات الاجتماعية ، وأمام حق المجتمع على الفرد ، ولكنها صورة من صور المحن التى عادت بالضرر البالغ على العالم الاسلامى بسبب اختلاف أتباع المذاهب .

وهناك كذلك أهل السنة والشيعة ، وطالمـا اشتعلت الخصومـات وقامت المنازعات بين هاتين الطائفتين الكبيرتين ، ولا نزاع أن كثيرين من المغرضين وأعداء الاسلام انتهزوا فرصة هذا الخلاف المذهبى ودخلوا يوسعون هوته ويباعدون بــين الشــقيقين ، ولو أنصف هــؤلاء وأولئك لأدركوا أنهما فرعا أرومة واحدة ، ولكن للأسف كان الخلاف يشتد أحيانا

حتى يثق السنى بمسيحى أكثر من ثقته بشيعى ، ويثق الشيعى بيهودى اكثر من ثقته برجل من أهل السنة ، مع أن أهل السنة والشيعة يتفقون فى فى أخطر الأمور ، يتفقون فى مبادىء الاسلام كلها وقوانينه وتشريعاته . فلماذا ينسون ذلك ويبحثون عن نقاط الخلاف ؟

وفى إندونيسيا عصبية من نوع آخر ، عصبية ليست مذهبية ولكنها وثيقة الشبه بالعصبية المذهبية ، فالأغلبية الساحقة من مسلمى اندونيسيا تتبع مذهب الامام الشافعى ، وبهذا نجت اندونيسيا من الاختلاف المذهبى ، بيد أنها منيت بخلاف من نوع آخر ، ذلك هو قيام الأحزاب والجماعات الاسلامية التى يقرب مجموعها من عشرة ، ويمكن القول إن الوئام غير تام بين هذه الطوائف ، وان النفور كثيرا ما ينتشر بين تابعيها ، ومن مظاهر ذلك النفور أن يُنْزِل المصلون فى أحد المساجد خطيب الجمعة من فوق المنبر لأنه يتبع حزبا اسلاميا غير الحزب الذى يتبعه سكان هذه المنطقة ، ومن مظاهره كذلك أن يبدأ رمضان عند طائفة فى يوم ، ويبدأ عند طائفة أخرى فى يوم آخر ، وقد حدث فى سنتين متتاليتين وأنا بأندونيسيا أن يصبح الصباح وأتباع هذا الحزب صائمون وأتباع حزب آخر مفطرون لأن الصوم عندهم يبدأ فى اليوم التالى . أما الخلاف بين هذه الأحزاب فى المشاكل الداخلية والخارجية فكثيرا ما يشتد حتى تتسع الهوة بين طوائف المسلمين ، والعجيب فى الأمر أن كل هذ الخلاف يتم باسم الاسلام واسم مبادىء الاسلام .

تشبث بالقديم :

فى بعض الأحوال أتيح لمنطقة من مناطق العالم الاسلامى أو لقطر من أقطاره حاكم أو زعيم غيه رغبة فى الاصلاح الاجتماعى أو الثقافى أو النهضة بالمؤسسات الفكرية بوجه عام .

وكان المفروض أن ينتهز رجال الدين هذه الفرصة فيستجيبوا لهذه الإصلاحات ، وتندفع المؤسسات الاسلامية الى الأمام ، ولكن الذى حدث

أن بعض رجال الدين رفضوا اتجاهات الاصلاح فى حالات كثيرة وتمسكوا بالقديم ، وفى حالات كثيرة أنشأ المصلحون السياسيون مؤسسات جديدة توافق اتجاهاتهم ، وتركوا المعاهد والمؤسسات القديمة تغط فى نوم عميق .

أراد الحكام أن يصلحوا الأزهر ، وأن يشمل الاصلاح قاعات المحاضرات ، ومرتبات المدرسين ، واعانات الطلاب ، ونظم الدراسة ، وموادها ، وطرقها ، أو بعبارة أخرى أن يتطوروا به مع الزمن . ولكن رجال الأزهر فى ذلك العهد أو رجال الدين ثاروا وأبدوا سخطهم فتركهم الحكام وتركوا أزهرهم وراحوا ينشئون المدارس الابتدائية والثانوية ، والعالية ويؤسسون الجامعات ، وأدخلوا فى هذه وتلك ما عنّ لهم من اصلاح وتطور .

وكانت المحاكم الشرعية هى المحاكم الوحيدة فى مصر ، وأراد الحكام أن يجعلوا قانونها حيا متطورا ، فأشاروا بتأليف لجنة تستعرض القوانين الاسلامية للمذاهب كلها وتختار منها أصلحها وأكثرها ملاءمة للزمن وتتطور بها عن طريق الاجتهاد لتسد حاجات العصر ، إذ كما يقول الشيخ المراغى « لم يكن الفقه الحنفى وحده بسادّ حاجات المجتمع ، وحاجة الحكومات والدول فى التشريع والتنظيم » ولكن الفقهاء رفضوا ذلك الاتجاه ، وقاموا الاجتهاد . وأصروا على أتباع مذهب أبى حنيفة وحده لأنه مذهب الخلافة التركية ، فترك الحكام المصريون المحاكم الشرعية على حالتها ، وأسسوا المحاكم المدنية ، وقصروا المحاكم الشرعية على النظر فى الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث ، ثم بعد فترة ألغيت هذه المحاكم الشرعية نهائيا وضمت اختصاصاتها وضم قضاتها الى المحاكم المدنية .

ولم يلتفت رجال الدين الى البنت وأهملت المرأة اهمالا تاما كما سبق أن ذكرنا ، ورأى الحكام أن اهمال نصف الأمة يعود على الأمة كلها

---

(١) أنور السادات : نحو بعث جديد ص ٢٤ .

بالضرر ، وأن عدم تربية الأم ينشىء جيلا من الرجال بعيدا عن الكمال ، ولم تتحرك المعاهد الاسلامية لتعليم البنت فأنشأ الحكام المدارس للبنت وشجعوها على التعليم ، وعندما بدأ الأزهر يفكر فى فتح أبوابه للبنت كانت مصر تعج بالطبيبات والمدرسات والموسيقيات وغيرهن ممن تخصصن فى الدراسات المختلفة وأثبتن نجاحا ظاهرا كما سبق القول •

والحكم الاسلامى حكم شورى لمصلحة المحكومين بلا نزاع ، وكان على الفقهاء أن يتطوروا بدراسة نظم الحكم حسب الظروف والأحوال ، وأن يبينوا مَنْ هم أهل الحل والعقد ، ويبينوا طرق اختيار الخلفاء ، ولكنهم لم يفعلوا ، فاقتبس الحكام هذه النظم من أوربا • وقد حدث مثل هذا أيضا بالنسبة للقوانين ، فان توقف الفقهاء عن الاجتهاد أوجد فراغا فى عالم التشريع ، فاضطر الحكام الى اقتباس القوانين من بلجيكا وفرنسا ، والعجيب أن الفقهاء قد يثورون على الحكام لاقتباسهم القوانين الأوربية ، وطالما صاح الفقهاء فى وجه الحكام بالآية الكريمة « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » (١) ، وتجاهل الفقهاء أنهم هم الذين لم يشرحوا ما أنزل الله ، وأنهم هم الذين أهملوا الدراسة والبحث والتفكير ، ليحصلوا من المصادر الاسلامية على ما تحتاجه الدولة من قوانين •

ونحن نلهث الآن لتطبيق الشريعة الاسلامية ، وليتنا نحقق هذه الغاية ، وقد كان الزمام فى أيدينا فلما غفلنا عنه ، والتقطه سوانا بدأنا نصرخ لاستعادته فى العهد الحاضر عندما صح المسار وتيقظ رجال الدين ، وعلت كلمة الحق فى عصر الحرية والنور • •

وقبل أن نطوى الحديث عن ذلك الموضوع نقول بقوة وايمان أن حديثنا عن الفقهاء لا يمس من قريب أو بعيد هؤلاء العباقرة المجتهدين من الفقهاء فى الماضى والحاضر ، أولئك الذين أحسنوا لدينهم وللمسلمين فيما كتبوه

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٧ .

وما أبدوه من آراء ، لقد كان هؤلاء قادة أحرارا . وقد لاقوا من معاصريهم من الفقهاء كثيرا من العنت كما سبق القول ، إننا فى هذه السطور نذكر أسماء بعضهم تيمنا وطلبا للخير والبركة ، واعترافا بما أخذنا من بحوثهم وآرائهم وسيرتهم ، إن منهم هذه الأسماء اللامعة : الغزالى — ابن تيمية — ابن القيم — عز الدين بن عبد السلام — محمد بن عبد الوهاب — حسن العدوى — محمد عبده — المراغى — شلتوت — عبد الحليم محمود — آل الندوى — المودودى — عثمان دانفديو — همكا وعلماء الجمعية المحمدية بأندونسيا ، وكثيرون سواهم ينتمون لمختلف الأقطار الاسلامية .

ضلالات عقائدية أضعفت العالم الإسلامى

فى فترات الضعف التى مرّ بها تاريخ المسلمين مُنِىَ العالم الاسلامى بجماعات من أعداء الاسلام عجزوا عن مقاومته وهم خارج دائرته ، فتظاهروا بالدخول فيه ليحاربوه من الداخل فذلك أيسر لهم وأحرى ألا يثير ثائرة المسلمين ضدهم ، وكانت حربهم هذه المرة حربا عقائدية فنفثوا سمومهم ونشروا ضلالاتهم متظاهرين بأنهم يحققون الحق وينيرون السبيل ، وقد تكلمنا بافاضة عما فعله مدعو التشيع فى هذا المضمار (١) فى عصور الاسلام الأولى .

وهناك نوع من الضلال العقائدى لا يزال قويا ، ولا يزال له دعاة وأتباع يُعَدّون بالآلاف والملايين ، ويكثر هؤلاء فى شبه القارة الهندية ، ويعملون جاهدين على نشر معتقداتهم فى مناطق مختلفة من العالم وبخاصة منطقة الشرق الأقصى ، وهؤلاء أيضا مسلمون فى أصل تفكيرهم ، ولكن ألوانا من الاغراء دفعتهم الى الانحراف ، ثم أصبح الانحراف أساسا لمذهبهم وأفكارهم ، وسنعرض من هؤلاء نموذجين أحدهما عن أتباع الشيخ « معين الدين شيستى » والآخر عن الأحمدية (القاديانية) .

---

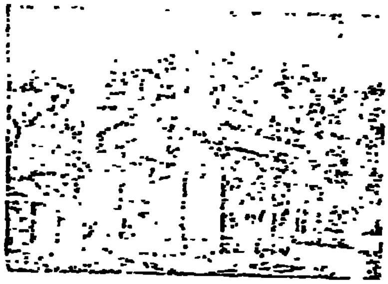
(١) الجزء الثانى من موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية للمؤلف ص ١٥٠ — ١٦٦ من الطبعة الثامنة .

معين الدين شيستى وباب الجنة :

نحن أتباع « معين الدين شيستى » نكتفى بنشر وثيقة مهمة يقوم هؤلاء الأتباع بتوزيعها فى مختلف الأقطار الاسلامية بالشرق الأقصى، داعين الناس للحج الى الضريح المقدس الذى يثوى به الشيخ ، وقد أرسلت نسخ جمة من هذه الوثيقة أو الدعوة الى اندونيسيا عندما كنت هنـاك ، وأرسلت وزارة الشئون الدينية نسخة منها لى لأرد على مـا جاء بها . فكتبت ردا مفصلا على هـذه الخرافة وقامت الوزارة بطبع هـذا الرد وتوزيعه ، ويكفى هنا أن أنشر هذه الوثيقة بلغتيها الأوردية والإنجليزية ، وأن أدون ترجمتها العربية ، وسيرى القارىء مقدار ما تحويه هذه الوثيقة من ضلال ، وقد كان الانجليز إبان احتلالهم للهند يؤيدون هذه الحركات ويمدونها بالمال ، ويبدو أن هذه الحركات لا تزال تجد من حكومة الهنـد التشجيع والتأييد :

وفيما يلى هذه الوثيقة .

Arbab Hassan Library Mohammadia Chishti (R.A.) AJMER (INDIA



[illegible]

عرس مبارک

[illegible]

(This year Urs will be celebrated from 2nd to 7th February 1957

SPECIAL KHWAJA URS FAIR

The day of Khwaja Urs Fair is drawing near. With my best Dua and good wishes I am inviting you and your family on this auspicious occasion.

There is a good arrangement in my house for Ziarats, lodging with latrine and all kinds of facilities are given to the visitors for performing Ziarat with family. Moreover there is a [illegible] in my house.

This year the Urs Shareef of Sultanul-Hind Hazarat Khwaja Moinuddin Chishti (R. A. Gareeb Nawaz) will be held from the 2nd February to the 7th February 1957 equivalent to the Islamic year 1st Rajjab to the 6th Rajjab 1376 Hijri.

On this Urs fair the Jannati Door of Khwaja Saheb's Rouza Shareef will be opened and it will remain opened for 6 days continuously. By this time all the devotees who are present in the Durbar enter in the Jannati Darwaja and make Tawaf 7 times walking around the Rouza Mobarak as the Hajees do in Meeca Moazzama. It is said that people who will enter in this Door will also be able to pass through the Door of Jannat after their demise.

Moreover it is the great interest of all devotees of Allah who intend to perform Haj but unable to do so owing to the adverse pecuniary circumstances or due to some other cause the time of Haj is over, they may attend Urs fair of Khwaja Sahib and attain much benefit performing [illegible].

Thus a good number of people assemble together during this great festival, make [illegible] perform Ziarat and console their hearts with full hopes and much satisfaction.

It seems that all troubles taken in the name of Khwaja Sahib on journey are changed into peace and tranquility.

So those who could not attend the last Urs of Khwaja Baba it is really a golden opportunity for them to perform Ziarat and get their desires fulfilled.

On the sixth day of Urs the anniversary Fateha and Qul are performed and on the ninth day of Rajjab 'Bara Gosal' is celebrated.

So if you or anyone of your kith and kin intend to visit the holy Shrine during this Urs Fair kindly inform me with a letter or a telegram 4 or 5 days before your starting, so that I may make all necessary arrangements for your accommodation.

In case you are unable to attend on this sacred occasion for some special reasons, you may take part in Fateha Sharif by sending whatever amount you can afford to send as Nazar, Niaz, and offerings for Koran Khani, Milad Shareef, Fateha, etc.

Please mention your clear and full address so as to enable me to send you Tabaruk and Doonama. Please distribute my addresses to those who are willing to visit Ajmer or send Nazar and Niaz.

At the time of correspondence please write my full address as well as yours. Just after Fateha some Tabaruk and Doonama are sent to the respective senders.

I am performing prayer and making special Dua for you and your family all these days for your welfare, success in business, exalted position, everlasting fame, sound health, long life, peace and prosperity. (Ameen).

Please note.—Take my address card with you while you are coming down at Ajmer and show this card at Ajmer Station [illegible] has no body may adopt any unfair means.

Yours ever Dongo,

SAHEBZADA SYED ZIAUDDIN CHISHTY
S/o LATE HAJI SYED JALALUDDIN
Gaddinashin Khanqah-e-Gesbara,
KAMAL MANZIL, CHHATRI GATE
Dargah Shareef, P.O. Box No. 71
AJMER (India)

Adarsh Printing Press, Ajmer.

وترجمتها العربية هى :

عرس مبارك

« أصبح قريبا ذلك اليوم الذى حدد لافتتاح العرس السنوى المبارك لمولانا عميق الأسرار الشريف سلطان الهند حضرة السيد معين الدين شيستى ، وأنتهز هذه الفرصة لأدعوك وأدعو عائلتك لحضور هذا الافتتاح وهذا العرس ، وبهذه المناسبة قد تمت باستعدادات واسعة لأهيىء لك ولأسرتك ولجميع الزائرين ضيافة بمنزلى تشمل تقديم المكان والطعام ، وسيستمر العرس من اليوم الثانى الى السابع من شهر فبراير سنة ١٩٥٧ (١ — ٦ من شهر رجب سنة ١٣٧٦ ﻫ) .

« وفى هذا العرس سيفتح « باب الجنة » المؤدى الى الروضة الشريفة ، وسيظل مفتوحا مدة ستة أيام ، وسيباح للمحبين والمريدين أن يدخلوا هذه الجنة ، وأن يقوموا بالطواف سبع مرات حول الروضة الشريفة كما يفعل الحجاج فى مكة المعظمة ، ومن المأثور أن هؤلاء الذين سيعبرون باب الجنة الى الروضة ستفتح لهم أبواب الجنة بعد موتهم .

« وأكثر من ذلك فان أحباب الله الذين ينوون الحج الى مكة وتمنعهم ظروف خاصة عن القيام بذلك ، يمكنهم أن يجيئوا لزيارة روضة الشريف ، وسيجنون منفعة عظمى من هـذه الزيارة .

« وستفد فى أثناء هذا الاحتفال العظيم وفود كثيرة ، حيث يقومون بالطواف والزيارة ويملئون قلوبهم بالأمل والغبطة .

« وكل آلام السفر التى يتحملها الوافدون لهذه الزيارة ستنقلب لهم أمنا وهدوءا وسكينة » .

* * *

هذه دعوة لا تحتاج الى تعليق طويل ، ويلزم أن يمعن القارىء النظر فيها وأن يحاول أن يفهم ما بين سطورها ، وأن يدرك هدف المقارنة التى

عقيدة عن الطواف والروضة الشريفة ، وباب الجنة ، ولو أتيح لأتباع معين الدين شيستى أن يقولوا ما فى نفوسهم لأعلنوها صريحة ، بأنه لا داعى للحج الى مكة وأن فى روضة الشيخ الكفاية ، ولا داعى لمبادىء الاسلام ويكفى أن يعبر المريدون باب الجنة ليضمنوا النجاة يوم الحشر ، ولكن هؤلاء أعوزتهم الشجاعة من جهة ، وأرادوا خداع الجماهير من جهة أخرى فوقفوا هذا الموقف الذى لا يخفى على كل ذى بصيرة •

القاديانية أو الأحمدية :

تنسب هذه البدعة الى « قاديان » احدى قرى اقليم البنجاب بشبه القارة الهندية ، وتنسب أحيانا الى شخص مبتدعها « أحمد » القاديانى ، فيقال « الأحمدية » •

وقد ولد غلام أحمد عام ١٢٥٢ هـ (١٨٣٩م) مـن أسرة تنتمى الى الترك ، وهى فى الأصل وافدة من سمرقند ، ولكن غلام أحمد أخذ ينسب نفسه عندما بدأت دعوته الى الفرس ويذكر أن أمه من سلالة الفاطميين •

وأسرة غلام أحمد كانت غنية تمتلك أملاكا واسعة فى « قـاديان » بالبنجاب ، ولكن أحد أجداده خسر هذه الأملاك فى حرب ضد السيخ الذين كان لهم نفوذ كبير فى المنطقة ، وعلى أثر هذه الهزيمة طردت الأسرة من قاديان •

وفى عهد سلطة الانجليز بالهند تمت صفقة مشبوهة بين الانجليز وبين والد غلام أحمد بمقتضاها أعاد الانجليز الى ميرزا مرتضى والد غلام أحمد أكثر ممتلكاته فى نظير أن تقدم هذه الأسرة خدماتها للانجليز ضد الهند من جانب وضد المسلمين فى كل مكان من جانب آخر ، ويقول غلام أحمد عن رد هذه الممتلكات « ••• ثم رد الله الى أبى بعض القرى فى عهد الدولة البريطانية » (١) •

---

(١) كتاب التبليغ ص ٧٦ •

وعن الخدمات التى كانت الخيانة طابعها يقول غلام أحمد :

« دلّت الوثائق التاريخية على أن والدى وأسرتى كانوا من كبار المخلصين لحكومة الانجليز من أول عهدها ••• وقد قدم والدى فرقة مؤلفة من خمسين فارسا لمساعدة الحكومة الانجليزية فى ثورة عام ١٨٥٧ وتلقى على ذلك رسائل شكر وتقدير من رجال الحكومة ، وكان أخى الأكبر (غلام قــادر) بجوار الانجليز على جبهة مــن جبهات الحرب ضــد الثائرين الهنــود (١) •

وتلك خيانة خطيرة من هذه الأسرة ضد الشعب الهندى ، الــذى كانت أسلحة الانجليز تحصده حصدا خلال هذه الثورة ، وغلام أحمد يثبت أن أسلحة هذه الأسرة ورجالها تعاونت مع الانجليز ضد الوطن الذى تعيش به هذه الأسرة • ان هذه الكلمات تنبىء عن خيانة وتنبىء كذلك عن وقاحة وفجور ، فما كان أجدره أن يخفى هــذه الأحداث المخزية ، ولكن الرجل الذى تقوّل عــلى الله وحارب الاسلام ليس ببعيد عليه أن يحــارب المواطنين ويتحدث عن هذه الحروب بهذه الروح المنحرفة •

ولنعد لحياة غلام أحمد لنذكر أنه تزوج مرتين ، وطلق الأولى التى انجبت له ولدين ، أما زوجته الثانية فجاءت بعد ادعاءاته الدينية ، ولذلك كانوا يطلقون عليها « أم المؤمنين » وقد انجبت له عددا من الأبناء •

وتاقت نفسه لزواج ثالث ، وحــدد الفتاة التى أراد أن يتزوجهــا وأعلن أن ذلك قضاء الله وارادة السماء ، وتحدى بذلك العالم ، وخابت نبوءته فلم يتزوج هذه الفتاة (٢) ، بل تزوجت سواه ، وكان ذلك كافيا لبيان ادعاءاته وأكاذيبه ، ولكن الذين يرحبون بالضلال كثيرون •

---

(١) كتاب البرية ص ٣ و ٥ •
(٢) أبو الحسن الندوى : القاديانى والقاديانية ص ١٠٢ •

وكانت حياة غلام أحمد أقرب للفقر والفاقة بعد وفاة أبيه ، فلما بدأ دعواه انهالت عليه الدنيا من البسطاء والمخدوعين حتى انتقل بحياته الى الترف والنعيم ، بل الى الاسراف والبذخ مما أثار عليه بعض أتباعه .

وعرف شباب غلام أحمد بانحراف صحى ونفسى ، فقد مرض بأمراض الهستريا والنوبات العصبية ، وكان يعارض استعمال الدواء للأمراض ، ويزعم أن ارادة الله ينبغى ألا تقاوم ، والدواء مقاومة لارادة الله بالمرض .

مراحل ادعاءات القاديانى :

إن المطلع على تاريخ هذا الرجل يرى أنه اتخذ عدة مراحل فى ادعاءاته على النحو التالى :

١ — دعوة الاصلاح والتجديد وكان ذلك فى المدة (١٨٧٩ — ١٨٩١) وكان يزعم خلال هذه الفترة أنه مأمور من الله بإصلاح العالم ، والدعوة الى الاسلام ، وأنه يعمل لتجديد هذا الدين . وقد لاقى نجاحا عظيما خلال هذه المرحلة ، فالهند بلاد المعتقدات والخرافات والأساطير ، وهذا الرجل يدعى أنه ملهم ومأمور من الله ، وهذا رفع ° أنه .

٢ — الادعاء بأنه المسيح الموعود : وأنه جاء ليدك العقيدة الصليبية وليكسر الصليب ويقتل الخنازير .

وهذه الوعود الخلابة جذبت المزيد من البله لاتباعه ، وقد كانت هذه المرحلة بين سنتى ١٨٩١ و ١٩٠٠ .

٣ — وفى المرحلة الثالثة وصل قمة الادعاء فقد قال عنه أحد مريديه . ان الميرزا غلام محمد مرسل من الله ، والايمان به واجب ، والذى يؤمن بالأنبياء ولا يؤمن به يفرق بين الرسل ، وقد طاب هذا الادعاء للميرزا فعندما حصل خلاف بين أتباعه أمامه حول هذه المرحلة صاح فيهم

« لا ترفعوا أصواتكم فوق صـوت النبى » وقال فى كتـابه « المسـألة القاديانية ص ٢٨ » أنا نبى وفقا لأمر الله وتكون آثما إن انكرت هذا ، وكانت هذه هى المرحلة الأخيرة من ادعاءاته وقد بدأت من سنة ١٩٠٠ حتى وفاته سنة ١٩٠٨ .

وقد وصل الى قمة الكذب والادعاء عندما ذكر مقارنة بينه وبين سيد الخلق وضح فيها أنه وصل الىقمة الروحانية التى لم ينلها نبىٌ قبله .

ومخافة انفضاض أتباعه عنـه أعلن أن رسالته مؤيدة للاسـلام لا ناسخة لشريعته .

وفيما يلى أهم معتقدات القاديانية :

— يرى القاديانية أن ميرزا غلام أحمد القاديانى مؤسس الحركـة الأحمدية هو المسيح الموعود والمهدى المسعود وأنه رسـول الله يوحى اليه (١) .

— الآيات القرآنية التى تنص عـلى أن محمداً خاتم الأنبياء وأن رسالته خاتمة الرسالات يؤولها القاديانية ، فيرون أن الذى خُتِمَ هو نبوة التشريع لا نبوة التجديد والدعوة (٢) .

— وبناء على هذا يدعى غلام أحمد أنه نبى يوحى إليه ، ويكلمـه الله (٣) ، ومن ألفاظه فى ذلك : أنا على بصيرة من رب وهاب بعثنى عـلى رأس المائة لأجدد الدين وأنوّر وجـه الملّة ، وأكسر الصليب ، وأطفئ

---

(١) تحفة البغداد لمؤسس الجماعة فى عدة أمكنة .
(٢) دعوة الأحمدية وغرضها لمؤسس الجماعة ص ٢٩ — ٣٠ .
(٣) الاستفتاء لمؤسس الجماعة ص ١٦ .

نار النصرانية وأنا المسيح الموعود والمهدى المعهود ، من الله على بالوحى والإلهام ، ويخاطبنى كما تكلم رسله الكرام (١) .

وقال الميرزا بعدم الجهاد للتحرر من الاستعمار ، وأوجب طاعة الحكومة البريطانية المحتلة وقال عنها ، انها أقامت الأمن وأظلتنا بظلها (٢) ، وفسر قوله تعالى « وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين (٣) » بأن الربوة هى السلطة البريطانية التى كانت لنا أمنا وراحة ومستقرا حسنا (٤) .

وهكذا حشدت المراجع الأحمدية بصور من الضلالات الدينية والخيانات الوطنية ، ومات الزعيم دون أن يكسر الصليب كما وعد ، ودون أن يجعل الاسلام يعم جوانب الأرض كما تعهد ، ومع هذا لا يزال له أتباع يعدون بالملايين ، ولا يزال هناك دعاة يحملون هذه الدعوة الى بقاع كثيرة من الأرض .

وربما احتاجت الأجيال الأولى فى صدر الإسلام الى دليل يبرهن على أن محمدا خاتم الأنبياء ، أما بالنسبة لجيلنا فقد برهنت الحياة العملية على ذلك ، اننا نستعرض الأنبياء والمرسلين فنجدهم متلاحقين مع فترات وجيزة بين هذا وذاك ، بل ربما وجد رسولان فى وقت واحد كما كان إبراهيم ولوط ، وكما كان اسماعيل واسحق ، أما محمد فقد انقضى على وفاته أكثر من أربعة عشر قرنا ، ولم يظهر فى خلال هذه الفترة الطويلة من تحققت رسالته أو حتى من يدعيها ، اللهم الا الخرافة التى جاء بها الأسود العنسى أو سجاح أو ذلك القاديانى ، وعلى هذا فكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين شىء حققته الحياة العملية وبرهنت عليه الأيام كما برهنت على سواه مما قال به محمد بن عبد الله .

---

(١) الاستفتاء لمؤسس الجماعة من ص
(٢) المودودى فى الميزان ص ١٩٥ .
(٣) المؤمنون ٥٠ .
(٤) الاستفتاء ص ٤٦ بالهامش .

أما الاسلام وكونه آخر الأديان ، فالسبب فى ذلك أن هذا الدين حمل بين طياته أسباب خلوده ، إنه دين الدنيا والآخرة ، دين كل زمان ومكان ، وقد سبق أن أوضحنا هذا بمزيد من الشرح والبيان ، ودين كهذا ينظم صلة الفرد بالفرد وصلة الفرد بالمجتمع ، وصلة الفرد بخالقه ؛ دين متطور يستجيب لحاجات الناس فى كل زمان ومكان فى حدود مبادئه السمحة : دين كهذا يحمل بين طياته — كما قلنا — أسباب خلوده ، وقد مرت القرون وستمر دون أن يجيء دين آخر ، وماذا سيحمل الدين الجديد للناس من عناصر لم يقدمها الاسلام للانسانية ؟

ومع هذا فهناك هذه الضلالات ، وهناك سواها من الانحرافات التى يكثر انتشارها فى البلدان التى لم تزدهر بها الدراسات الاسلامية بعد ، ومن واجب الحكومات الاسلامية والمصلحين المسلمين أن يعملوا جادّين لإزالة هذه الضلالات ، ووقاية الفرد المسلم من خطرها وتحصينه بالفكر الاسلامى الصحيح ، ليكون نواة صالحة فى المجتمع الاسلامى المنشود •

نهاية غلام أحمد :

توفى غلام أحمد القاديانى فى مايو سنة ١٩٠٨ ، وكان قد أجرى مباهلة مع مولانا « ثناء الله » فدعا كل منهما على الآخر ، وقد قبلت دعوات مولانا ثناء الله فأصيب غلام أحمد بالطاعون ، ومات فى لاهور ونقل الى قاديان حيث دفن فى مقبرة يسميها أتباعه « مقبرة الجنة » وكان عمره تسعا وستين سنة •

القاديانية بعد موت غلام أحمد

الحكيم نور الدين :

كان من أتباع غلام أحمد مريد اسمه « الحكيم نور الدين » وكان أبعد في الضلالة من شيخه ، وهو الذى كان يهيىء الأفكار والمعتقدات ويوحى بها الى غلام أحمد ، وكان غلام أحمد يعلنها بعد أن عرف سذاجة الكثيرين من أتباعه ، ولمكانة الحكيم نور الدين من الدعوة وصاحبها تولى قيادة هذا الإثم بعد موت مؤسس القاديانية ، وقد ظل هذا فى منصبه حتى توفى سنة ١٩١٤ .

الميرزا بشير الدين محمود :

هو ابن غلام أحمد ، وقد استخلفه الحكيم نور الدين قبل وفاته ، وبعد وفاة نور الدين تولى بشير الدين وكانت سنة خمسا وعشرين سنة .

شعبتان :

ولم تلبث هذه الحركة الضالة أن انقسمت فرقتين :

١ — شعبة « قاديان » ويتزعمها الميرزا بشير نور الدين سابق الذكر ، وهى تسير سيرة الزعيمين الأولين وتقرر بوضوح نبوة غلام أحمد ، وفى هذا يقول ابنه : لقد أعتقدوا أن كنز الله قد نفدت ، ما قدروا الله حق قدره ، انكم تتنازعون فى نبى واحد ، وأنا أعتقد أنه سيكون هناك ألف نبى بعد محمد » (١) .

٢ — شعبة « لاهور » ويتزعمها محمد على اللاهورى من زعماء هذه الحركة ، وكانت هذه الشعبة لا تقول بنبوة الميرزا غلام أحمد ، ويقنعون

---

(١) أنوار خلافت ص ٦٢ .

بأنه المسيح الموعود ومجدد الاسلام والمهدي المنتظر ، ولم يكونوا مدفوعين لهذا الاتجاه احتراما للاسلام الحنيف ، بل كانوا يخافون أن تؤثر عقيدة النبوة في المسلمين الذين اتبعوا مخدوعين زيف هـذه الحركة ، وتجعلهم ينفضون عن تأييدها ، فاتجاههم كان وسيلة للحفاظ على نجاح الحركـة الزائفة ، ولكن ذلك لم يقبل من شعبة « قاديان » وبهذا يصف المفكرون هذه الشعبة بالمراوغة والغموض وخديعة المسلمين حتى لا ينفضوا عـن الحركة بسـبب مبالغات شعبة قاديان (١) •

والشعبتان تغمرهما الضلالة والانحراف ، والانتماء لأي منهما محظور على المسلمين ، ولم تكن هذه الحركة الا نوعا من مجاهدة الاسلام ومحاربة الوطنية ، والا تأييدا للانجليز في الهند وفي كل مكان ذهب له هذا الاستعمار ، فلما خدع بهذه الحركة عدد من الناس أصبح من أهداف الحركة جمع المال والثراء على حساب المخدوعين •

دراستي في الأزهر

في أحاديثي عن الأسباب التي أضعفت المجتمع الإسلامي وتنتسب للدين ، ينبغي أن أقدم دراسة « شاهد عيان » فأقدم صورة دقيقة لحياتي بالأزهر ، فانها ستساعد على فهم هذا الموضوع مساعدة كبيرة •

وأبدأ بأن أذكر أن العالم الاسلامي كله يهتم بالأزهر اهتماما كبيرا ، ذلك المعهد التليد الذي خدم الدراسات الاسلامية ، واللغة العربية أكثر من ألف عام ، ولا يستطيع باحث يتحدث عن المجتمع الاسلامي أن يتخطى الأزهر دون أن يتحدث عنه قليلا أو كثيرا ، وإذا أهمله بعض الباحثين لسبب أو لآخر فإنني لا أستطيع إهماله وقد قضيت فيه أزهى فترة في عمر الانسان •

وأستطيع أن أقرر بادي ذي بدء أنه لو لم يكن الأزهر موجودا لتغير تاريخ المسلمين تغيرا كبيرا ، وحسبك أن تدرك أنه كان الملجأ الوحيد للعلم

(١) حسن عيسى عبد الظاهر : القاديانيـة : نشأتها وتطورها ص ١٥٩ — ١٦٤ باختصار وهذا الكتاب مفيد في موضوع القاديانية فقد عاش مؤلفه في جو من نشاط هذه الحركة ودرسها عن قرب •

فى عصور الظلام الحالكة الطويلة التى مرت بالمسلمين ، لقد امتد الظلام اليه بلا شك ، ولكنه والحق يقال ظلت فيه شعلة من النور تغالب هـذا الظلام وتقاومه ، وقد لعب الأزهر دورا كبيرا جدا فى حياة المسلمين فى جميع الأقطار ، ان مشعل النور الذى يقود المسلمين فى اندونيسيا ويوجههم ، مصدره الاندونيسـيون الذين تعلموا فى أروقة الأزهر أو تفقهوا عـلى شيوخ أو كتب وثيقة الصلة بهذه الأروقة ، وان انسياب الاسلام الى قلب افريقية كان أكثره على أيدى افريقيين أو عزب عاشوا فى رحاب الأزهر وتلقوا العلم فيه ، وقل مثل ذلك فى جميع الأقطار الإسلامية دون استثناء .

أمـا فضل الأزهر على مصر فقد شـمل الناحية الثقافية والناحية السياسية ، لقد كان الأزهر هو المدرسة الوحيدة بالعالم الاسلامى تقريبا حتى مطلع القرن التاسع عشر ، فأى علم وأية ثقافة وأية معرفة منتظمة شاملة كانت لا تتبع إلا من الأزهر .

وكان الأزهر يحل مشكلات الطلاب المصريين والوافدين بسرعة هائلة ، فما ان يصل الطالب الى القاهرة ويتجه للأزهر حتى يجد حلا لكل ما كان يتخوفه من متاعب ، انه يجد فى الأروقة حلا لمشكلة السكن ، ويجـد فى « الجراية » حلا لمشكلة الطعام ، ويجد فى الحلقات المنتشرة فى أرجـاء الأزهر حلا للمشكلة العلمية .

وكـانت الأروقة معدة لطلاب العالم الاسـلامى كله ، فهناك رواق التكرور ورواق جاوه ورواق الأتراك ورواق الشـام ورواق المغاربـة وغيرها من الأروقة التى جعلت الأزهر أشبه ببيئة أمم .

وللمصريين هناك رواق البحاروة والشراقوة والصعايدة والفيومية .

وكانت هبات الناس لطلاب الأزهر كثيرة وموفورة من حين الى حين .

ولما بدأت النهضة الثقافية فى مصر وبدأ ارسال البعوث الى أوربا كان الأزهر هو المعين الـذى اختير منه الطلاب للمعـاهد التى أنشئت ،

والبعثات التى أرسلت وبعد أن انتشرت المدارس بمصر وكثرت الجامعات ظل الأزهر يمثل المكان الوحيد الذى يلجأ له الفقراء والمعوزون فيجدون العلم والعون المادى وطالما خرج من هؤلاء عباقرة كانوا قادة للأمة ومصدر توجيه ومنبع عرفان •

وفى حيـاة مصر السياسية لعب الأزهر دورا عظيما ، فمنه انبعث الصوت الذى هتف بالاستقلال ، وتوعد المستعمرين ، وكان منبره منبر مصر ، وساحته ملتقى القادة والزعماء وطالما زلزلت الاجتماعات فيه أقدام الطغاة وهزت كيانهم ، ولهذا كان كثير من المستعمرين يضطرون الى مهاجمته أو مهاجمة المقاومة فيه •

ضعف بعـد قوة :

لقد لعب الأزهر أخطر دور فى خدمة الثقافة الاسلامية واللغة العربية طيلة قرون طويلة ، ثم استكان للأسف لنوم طويل أغرق فيه أحيانا مما سبب أن تتفوق عليه بعض المدارس والجامعات المصرية حتى فى الدراسات الاسلامية التى تخصص فيها ؟ لقد سارت دراسـة التاريخ الاسـلامى والحضارة الاسـلامية والفلسفة الاسلامية والفقه الاسـلامى والفقه المقارن والأدب العربى فى الجامعات المصرية شوطا طويلا ناجحا أخشى أن يرجح اذا قيس بما فى الأزهر اليوم من دراسات مماثلة . وعندما فكر الأزهر فى دفع زورقه للأمام لجأ الى أساتذة الجامعات المصرية ليعلموا به هذه العلوم ، ولكن جو الأزهر لم يسمح لهم أن ينهضوا بهذه الدراسات فيه نهضتهم بها فى الجامعات المصرية ؛ فتوقفوا - عن استمرار العمل ، وقد كنت شخصيا واحدا من هؤلاء •

وأنا بطبيعتى الشخصية والثقافية عميق الصلة بالأزهر ، ولهذا فعندما أكتب عنـه أكتب بحب ورفق ، واذا انتقدت كان نقدى بناء ، وأنا دائما أرجو أن يعود لهذا المعهد العريق رونقه وبهاؤه ، وفى السطور التالية وصف شاهد عيان لحقبة أمضيتها بالأزهر ، وهى تعد من أنضر العهود الأزهرية

لما كان بها من دقة فى التعليم ودقة فى الامتحانات ، ودع هذا فلننظر ماذا كان بهـا •

لقد عشت فى الأزهر تسع سنين ابتدأت وسنى حوالى خمس عشرة سنة ، وانقضت وأنا فى الرابعـة والعشرين وفارقت الأزهر بعد ذلك ، ولكنى فى الحقيقة ظللت متصلا به ، متصلا به بثقلفتى وبأصدقائى وأقاربى الذين يتعلمون ويعلّمون فيه •

وبمناسبة سنى فى الأزهر أذكر أننى سئلت مرة فى أوربا هذا السؤال :

ما أهم الأحداث والمفارقات التى حدثت لك بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين ؟

وسألت أنا بدورى : لماذا تقصدون هذه الفترة من العمر ؟

وتلقيت الجواب : انها فترة الشباب المضطرب : مجازفات ، رحلات ، رياضة ، حب ، أخطاء ، أزمات نفسية ، خيال ، أمل ، تردد ، إقبال •••

وفكرت فى هذه السن وفى حالتى وقتها ، أجبت : لم تمر على هذه الفترة بعـد •

وقال محدثى بمكر : هل لم تصل بعد الى الثامنة عشرة ؟

قلت : لقد وصلت فى حساب الزمن . ولكنى كنت فى هـذه الفترة طالبا بالأزهر ، فلم أعرف المجازفات ولا الرحلات ولا الرياضة ولا الحب ولا الخيال ولا الأمل ••• وانما عرفت ألفية ابن مالك والمتون والشروح والحواشى ، وكنت طالبا مخلصا للعلم ، فكانت هذه الدراسات هى عالمى الذى فتحه لى الأزهر دون أن يفتح لى بابا سواه •

رحمة الله على هذا الشباب الذى ذوى بين هذه الجدران !

ولنعد للقصة من أولها :

وأنا بطبيعة الحال لا أقصد بسرد موجز لدراستى فى الأزهر أن أروى قصة شخصية ، فمن حق القارىء ألا أشغله بأشياء خاصة بى ، ولكنها قصة الأزهر كما رأيته ورآه معى الآلاف من الطلاب ؛ أو بعبارة أخرى هى سبب من الأسباب التى أدت الى ضعف المجتمع الاسلامى .

ولعل من حقى أن أقرر أن معرفتى بالأزهر كانت أعمق من معرفة الجمهرة الغالبة من الطلاب به ، وسبب ذلك أننى كنت طالبا حريصا الحرص كله على العلم ، وكنت أتمتع بجانب من الذكاء لا بأس بـه ، ولأضع لك هذه الحقائق فى أرقام أدق بيانا وايضاحا ، أقرر أننى لا اذكر أننى تخلفت درسا واحدا ولا يوما واحدا طيلة هذه السنين ، وأننى كنت أول الناجحين فى جميع الامتحانات التى دخلتها بالأزهر ابتداء من الفرقة الثالثة الابتدائية حتى أنهيت القسم الثانوى ، أما فى الفرقة الأولى الابتدائية فكنت الثالث ، وكنت الثانى فى الفرقة الثانية ، ثم أصبحت الأول بعد ذلك ، ويدخل ضمن هذه الامتحانات السبع التى كنت أول الناجحين فيها امتحانات الشهادات العامة على جميع المعاهد الأزهرية فى القطر كله ، وكان يتقدم لامتحان هذه الشهادات عدة آلاف من الطلاب .

لقد منحت الأزهر كل نفسى ، وأقبلت عليه اقبالا نادرا ؛ وكنت موضع تقدير الشيوخ وحبهم ، فماذا منحنى الأزهر ؟ وماذا منحنى هؤلاء الشيوخ ؟ وماذا لحقنى من الحرمان بسبب التحاقى بالأزهر ؟

الجواب فى ايجاز تام غير مخل ، وبانصاف شامل هو :

حرمنا الأزهر حرمانا تاما كل تفكير فى الناحية الاجتماعية والحياة العامة ، لم يكن فى أزهرنا حفلات ولا رحلات ولا رياضة ولا آمال ، وانما كانت الدراسة أشبه بعملية ميكانيكية لا حياة فيها ولا طعم لها ، ولم تكن الصحف تعرف طريقها الى الأزهر ، فاذا اشترى طالب صحيفة الجهاد أو

الأهرام كان موضع القيل والقال ، مع أن مكاتب الصحف كانت تزدحم بمحررين من الأزهر ، ولكن هؤلاء كانوا أشبه بالمتمردين على التقاليد .

وهكذا أمضينا هذه السنين قانعين ببيئة محدودة ، وطعام زهيد ، ولباس خشن ، وكنا في المجتمع المصرى نكوّن طبقة تكاد تكون منعزلة ، لها زيّها الخاص ولغتها المتحذلقة ، كما أن لها تفكيرا اجتماعيا قل أن ينسجم مع تفكير الآخرين .

أما من الناحية العلمية فان الأزهر لم يمنحنا قط شيئا يتناسب مع سننا وثقافتنا حينذاك ، وانما أعطانا الأزهر علما انتفعنا به ولكن بعد سنين طويلة من تحصيله ، أو أعطانا علما لا نفع فيه على الاطلاق ، ولعل من الانصاف أن أثبت أن كثيرا من العلوم التى أنتفع بها الآن قد حصلت عليها بين جدران الأزهر ، وقد كانت حينذاك ألغازا ومعميات فأصبحت الآن زادا علميا كثير الخير .

ومن العلوم التى لم أنتفع بدراستها فى الأزهر على الاطلاق علم الكلام ، فقد درسته بالأزهر عدة سنوات ، ولكنى لم أعرف منه شيئا عن «الله» ذا بال ، وانما انغمست فى اصطلاحات زادت تفكيرى غموضا واضطرابا حتى تمنيت ايمان العوام ، بل العجيب أن أساتذتنا كانوا يحسدّون لنا ايمان العوام ، ذلك الايمان الشاحب الهزيل اذا جاز أن نطلق عليه كلمة الايمان . وبدأت أدرس المنطق وانتهيت منه ، دون أن أنال منه قليلا من المعرفة أو كثيرا .

وحفظت قطر الندى وألفية ابن مالك وغيرهما من المتون عن ظهر قلب ، ثم خضت فى شروحهما ، ثم ارتقيت الى الأشمونى فالصبّان ، وأذكر أننى كنت مرة غارقا فى استذكار باب التصغير بما فيه من فروض وتعقيدات فصادفت بعض مشكلات عسيرة لم أستطع فهمها ، فشكوت الى زميل يكبرنى سنا ودراسة ، وكنت أجله لأنى كنت أراه ينشر بعض مقالات

فى مجلة « الرسالة » ويظهر اسمه بها فيثير زوبعة من الاعجاب عند بعض الناس ، وزوبعة من الحسد عند بعضهم ، وعاصفة من السخط عند من رأوا اللغة قواعد ، وعدوا هذه الآداب مضيعة للغة .

سألت هذا الزميل عما صادفنى من مشكلات فى باب التصغير ، فوعد بأنه سيقدم لى الاجابة بعد دقائق ، وبرّ بوعده ، فما هى الا دقائق قليلة حتى عادلى يحمل بضعة من الكتب ، وضعها أمامى وقال لى : اقرأ هذه الكتب ، فهى مختلفة الموضوعات فاذا وجدت بها اسما مصغرا كان من الممكن أن تضيع وقتك فى دراسة باب التصغير ، واذا لم تجد اسما مصغرا كان عليك أن تترك هذا الباب إلى الأبد . وترك هذا الزميل معى هذه الكتب وانصرف .

وداخلنى شعور مضطرب بين أن أثور عليه لأنه يريد أن يبعث فىّ الشكوك فى العلوم التى وهبتها نفسى وروحى ، وبين أن أقتنع باتجاهه وأستفيد بتجاربه ، ولكنى قرأت فى هذه الكتب على كل حال ، وعنيت وأنا أقرأ فيها وفى سواها من كتب التفسير والحديث والفقه والتاريخ أن أحاول أن أجد اسما مصغرا ، ولكن هيهات ! .

وانقلب تفكيرى الى غير باب التصغير فشمل باب الاعلال والابدال والترخيم وغيرها من الأبواب ، بل تعدى الصرف الى النحو والبلاغة .

وكنا فى البلاغة ندرس كتابا كبير الحجم كثير الأجزاء اسمه « السعد » وحدث مرة أن التقيت بتريب لى كان تلميذا بالمدارس الثانوية التابعة لوزارة التربية والتعليم ، وكنت أحمل أجزاء الكتاب الأربعة ، فسألنى : ما هذه ؟ فقلت : كتاب السعد فى البلاغة . ودهش قريبى وظن أن معرفتى بالبلاغة ترجح معارفة عشرات المرات ، وصادف أنه كان يستذكر درس البلاغة قبل وصولى ، فى الكتاب المقرر عليهم « البلاغة الواضحة » وصعب عليه اجراء استعارة ، فاستعان بى لأقدم له العون وما كنت أستطيع ذلك ، لأن اهتمامنا فى الدراسة لم يكن يرمى الا الى فهم ألفاظ

السعد وعباراته ، أما المادة فى ذاتها غلم تنل من المؤلف ولا من المدرس عناية قليلة أو كثيرة ، وهكذا عجزت عن افادة قريبى ، ونضح عرقى ، وإن كنت لم أعدم وسيلة للتخلص حرصا على حرمة السعد ، وعلى ماء وجهى أن ينضب .

وكنت أقرأ كلام الله فأحسه وأتذوقه أو قل اتذوق اكثره ، فلما قرأت التفسير استعجم على التفسير والقرآن معا ، وقد أوردت فيما سبق نماذج من أقوال المفسرين .

وكان هناك درس يسمى أدب اللغة ، وكان علينا أن نحفظ فيه أن الشعر ضعف فى هذا العصر وقوى فى ذاك ، وأن الكتابة والخطابة كان حالهما كذا وكذا ، أما الشعر نفسه وأما النثر نفسه ، فلم نر منهما الا قليلا مما ورد فى النصح أو الموعظة . وأما الكتب التى ألفت فى هذه العصور فلم نسمع ولا حتى عن أسمائها .

أما من جهة المشايخ ومقدار انتفاعنا بهم ، فانى أقرر نتيجة لعمق صلتى بالكثيرين منهم ، أن أغلبهم كان يتمتع بخلق شخصى رائع . كان من الممكن أن يعد الكثيرون منهم نماذج طيبة من هذه الناحية ، ولكن الناحية الهامة التى تعنينا ، ناحية كونهم مدرسين ومربين ، فانه لم يكن بينهم الا القليلون جدا الذين استطاعوا أن يمسوا نفوسنا ، ويصلوا الى أعماقنا ، وقل منهم من كان له تأثير روحى فينا ، وربما يكون من الانصاف أن نلتمس لهم العذر فى ذلك ، فالتربية الحقة هدف سام ، والطاقة الروحية غاية بعيدة المنال ، ولم تتح الفرصة لهؤلاء ليتزودوا بهذا الزاد ، وإذا كان بعضهم قد أتيح له قسط من ذلك فانه كان نتيجة كفاح شخصى ومواهب ذاتية ، والحق أننى كانت لى معرفة شخصية بباقة من هؤلاء ، الشيخ شفيع ، الشيخ أحمد المصلحى ، الشيخ عبد السميع شبانة ، الشيخ سيد البز ، الشيخ الشرقيتى .... أجزل الله ثوابهم .

ومن الناحية العلمية فان أغلب ما كانت تتجه اليه عناية المدرس هو حل ألفاظ الكتاب ، والويل للمدرس والطلاب إذا كان المؤلف — وكثيرا ما

كان المؤلفون — ركيك العبارة ضعيف الأسلوب مضطرب التركيب ، وكثيرا مـا كانت الفكرة واضحة لنا جلية ، ولكن العناية بالفكرة لـم تصل الى درجة العناية بطريقة أخذ الفكرة من هذه الألفاظ ، لقد كانت الألفاظ أشبه بالمقدسة ، وكانت المقدرة على حلها هى العلم كلـه •

والعجيب ، ولكن ذلك ليس عجيبا على من دخل الأزهر أو عانى كتبه ، أنك تقرأ المتن فتفهم أكثره أو كله ، فاذا ذهبت تقرأ الشرح عجزت عن فهم أكثره أو كله ، فـاذا ذهبت الى الحاشـية والتقرير قابلت ألغـازا ومعميات • هل يريد القارىء أمثلة تؤيد ذلك الادعاء ؟

إن قارئى على كل حال أحد شخصين ، ان كان أزهريا فقد عانى من ذلك الشىء الكثير ، وان كان غير أزهرى فلن يكون له صبر لقراءة هـذه الأساليب ، وعلى كلّ فلنعط نموذجا قصيرا لموضوع يعرفه القارىء أيا كان اتجاهه الثقافى ، مقتبسين هذا النموذج من :

متن « المنهـاج » لأبى زكريـا يحيى النواوى

وشرحه « تحفة المحتاج بشرح المنهاج » لابن حجر •

وحاشية الشرنوانى على ذلك الشرح للشيخ الشرنوانى •

يبتدىء النواوى متن المنهاج بقوله : بسم الله الرحمن الرحيم •

ونحن لا شك نعرف هذه الجملة قبل أن ندخل الأزهر ، ونبدأ بهـا كثيرا من أعمالنا ، ونحس بمعناها ان لم يكن تفصيلا فاجمالا ، نحس أنها تفيد الاستعانة بالله فى هذا العمل الذى نبدؤه •

ولكن ابن حجر يشرح هذه الجملة كلمة كلمة ، ولنأخذ مثالا للكلمة الأولى منهـا ، إذ يقـول ابن حجر عنهـا :

(باسم) أى أؤلف أو أفتتح تأليفى • والباء للمصـاحبة ، ويصح

كونها للاستعانة نظرا الى أن ذلك الأمر المبدوء باسمه تعالى لا يتم شرعا بدونه • وأصل اسم سمو من السمو وهو الارتفاع ، حذف عجزه وعوض عنه همزة الوصل ، فوزنه افع ، وقيل افل من السيما وقيل اعل من الوسم ، وطولت الباء لتكون عوضا عن الحذف ، وهو إن أريد به اللفظ غير المسمى اجماعا ، أو الذات عينه ، كما لو أطلق ، لأن من قواعدهم أن كل حكم ورد على اسم فهو على مدلوله ، أو الصفة كان تارة غيرا كالخالق ، وتارة عينا كالله ، وتارة لا ولا ، كالعالم ، ولم يقل بالله حذرا من ايهام القسم ، وليعم جميع أسمائه تعالى •

وينتقل ابن حجر بعد ذلك الى كلمة (الله) ثم الى كلمة (الرحمن) وهكذا •

أما الشرنوانى فيخصص ثلاث صفحات من الحجم الكبير ليعلق على شرح ابن حجر لكلمة (باسم) وهذا التعليق يتناول تقريبا كل كلمة من كلمات ابن حجر ، ونقتبس من هذه الحاشية تعليق الشرنوانى على الكلمة الأولى من كلمات الشرح :

(قوله أى أؤلف) بيان لمتعلق الباء على أنها أصلية ، وقيل زائدة فلا تتعلق بشىء ، فمدخولها مبتدأ والخبر محذوف ، أو بالعكس والأول أصح ، فالمتعلق اما فعل أو اسم ، وعلى كل اما خاص أو عام ، وعلى كل اما مقدم أو مؤخر ، وأولى هذه الاحتمالات الثمانية أن يكون فعلا لأنه الأصل فى العمل ، ولقلة الحذف عليه ، ولكثرة التصريح بالمتعلق فعلا ، وأن يكون خاصا لأن الشارع فى شىء انما يضمر فى نفسه لفظ ما جعل التسمية مبدأ له ، فالمبسمل المسافر يلاحظ أسافر ، والآكل يلاحظ آكل ، وهكذا • وأن يكون مؤخرا ليوافق الوجود الذكرى للوجود الخارجى ، وليفيد القصر كما فى قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » وانما قدم فى قوله تعالى « اقرأ باسم ربك » لأنه مقام ابتداء القراءة وتعليمها لأنه أول ما نزل ، فكان الأمر بالقراءة أهم باعتبار هذا العارض ، وكثيرا ما ترجح فى البلاغة

الأهمية العرضية على الأهمية الذاتية اذا اقتضى الحال ذلك كما هنا ، ولم يقتصر الشارح على المؤلف مع أنه أولى ، لما مر ولتعم البركة جميع التأليف بخلاف مادة الافتتاح مثلا ، فان البركة خاصة بالابتداء للاشارة الى جواز تقديره عاما وان كان الأولى تقديره خاصا .

* * *

وبعد . إذا كان القارىء قد ضاق بهذه السطور فاني أذكره أنني أمضيت تسع سنين كادحا فى هذا العناء : واذا كان بعض الطلاب قد أهملوا أو اكتفوا بالقليل . فقد كنت حريصا على السبق ، وهذا دفعنى الى مواصلة العمل ، ومحاولة تحصيل كل شىء ، واذا كان أستاذنا الامام محمد عبده ثار على دراسات الأزهر عندما عرفها فان ثورتى لم تأت الا متأخرة . بل انها — والحق يقال — لم تكن ثورة وانما كانت نقدا هامسا خفيفا . تسألنى لماذا ؟ فأجيب انه ربما يرجع الى نوع من الهدوء فى الطبع من جهة ، ومن جهة أخرى أننى كنت عقدت العزم على أن أتعلم ، ولم يخطر ببالى قط أن أوثر الزراعة على العلم كما خطر ببال أستاذنا الامام ، ثم لم يكن أمامى مكان للتعليم الا الأزهر لعامل لادخل لى فيه هو عامل السن ، فان أبى كان قد مات فى طفولتى المبكرة تاركا لنا ثروة لا بأس بها وتجارة كبيرة اذا قيست بمتاجر الريف ، ولما كنت الابن الوحيد لأبى فقد اتجهت الأنظار إلى إعدادى لمواصلة هذه التجارة ، وهكذا لم يلحقنى أهلى بالمدارس فى سن مبكرة حتى وصلت الخامسة عشرة ، وأحسست بعدم الميل للتجارة وبالرغبة الجارفة فى التعلم ، ولم يكن هناك معهد علمى يقبل الطالب فى هذه السن المتقدمة إلا الأزهر .

ولم تختتم حياتى بالأزهر الا بمظلمة وقعت علىّ ، فقد اتجهت وأنا بالقسم الثانوى الى قراءة بعض كتب الأدب ودواوين الشعراء ، فتربت عندى ملكة أدبية لا بأس بها ، والمهم أننى عندما وصلت الفرقة الرابعة بالقسم الثانوى كنت خطيبا معروفا بين خطباء الطلاب ، وكنت عضوا

بارزا فى اللجان التى كانت تعنى بالمسائل العامة السياسية والأزهرية ، فلما وصلت الفرقة الخامسة وهى آخر فرقة فى القسم الثانوى كنت أهم خطيب بين الطلاب ، وكانت مقاليد الحركات كلها فى يدى ويد نخبة من الطلاب يتعاونون معى ، وكنت بمعهد الزقازيق على صلة بباقى المعاهد الأزهرية وباللجنة العامة بالقاهرة ، وفى تلك الأثناء كانت هناك حركات سياسية وحركات تتصل بمستقبل الأزهر ، وكانت اللجنة العامة بالقاهرة ترسل لى خطابات عن الخطط التى تتبع ، أو تسأل رأيى عن اتجاه الطلاب نحو نقطة ما ، وقد سمح شيخ المعهد لنفسه سامحه الله — ولن أذكر اسمه هنا اشفاقا عليه من حساب التاريخ — أن يفتح هذه الخطابات ويعرف ما بها ، فلما أعلنّا مرة الاضراب متعاونين مع باقى الطلاب لخير مصر وخير الأزهر ثار الشيخ وأصر على الانتقام ، كان يعتقد أن الانتظام فى الدروس هو فوق الوطنية وفوق الاصلاح ، وأنه قد ينيله حظوة عند بعض ولاة الأمور ، حظوة تقدير لحزمه على الأقل ، فأنزل بزعماء الطلاب عقوبات قاسية ، شملت الفصل من المعهد ، والحرمان من دخول الامتحان عاما أو الحرمان من دخول الدور الأول . أو قطع بدل الجراية عن الطلاب بضعة شهور ، وقد شفع لى تقدمى ورضاء جميع الشيوخ عنى فكانت عقوبتى الحرمان من دخول الدور الأول ، وأمضيت صيفا مريرا أستذكر فيه ، وأعِدّ نفسى للامتحان ، فى حين كان كثير من رفاقى قد نجح فى الدور الأول .

وقد قوّت هذه العقوبة عزمى على مغادرة الأزهر ، فالتحقت بكلية دار العلوم بعد نجاحى الفائق فى ثانوية الأزهر وحصولى على أكبر مجموع للدرجات فى هذا الامتحان ، وقد وجدت أن بعضا من آثار الدراسات الأزهرية قد تسربت اليها ، ولكن ذلك كان قليلا اذا قيس بما حققته فى ميادين أخرى علمية واجتماعية .

تسع سنين قضيتها فى الأزهر ، فيها عمل يكاد يكون متصلا وفيها جدّ لم يعرف التوانى ، كنت أعمل صيفا وشتاء ، فلما شببت ونفضت الطوق ،

وانجابت عن بصرى الغشاوة ، بدأت أفكر فى الربح والخسارة ؛ فماذا رأيت ؟

فى كفة الربح نضع ما ذكرناه من قبل من علوم ومعارف كانت عندما تلقيناها ألغازا ومعميات ، ولكنها أصبحت عندما تقدمت بنا السن والثقافة زادا علميا كثير الخير .

وفى كفة الخسارة نذكر ذلك التكرار الممل فى النحو والصرف وفى الفروع الافتراضية بالفقه ، ونذكر كذلك علم المنطق ، وسوء الطريقة فى تفسير القرآن الكريم ، كما نذكر الحرمان التام من اللغات الأجنبية ومن قراءة كتب الأدب كالأغانى والعقد الفريد ، والحرمان من دراسة الحضارة الاسلامية والتاريخ الاسلامى .. وفقه المذاهب .

وانتهيت من كلية دار العلوم حاصلا على الليسانس مع درجة الامتياز ، فأتاح لى ذلك أن توفدنى جامعة القاهرة للدراسة بأوربا ، فالتحقت بجامعة لندن ثم بجامعة كمبردج ، وكافحت كثيرا لأثبت قدمى ، وأرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ وعوضت ما فاتنى .

هل تغيّر الأزهر والأزهريون بعد ذلك ؟

الجواب عندى فيما يتعلق بالأزهر بالنفى ، وفيما يتعلق بالأزهريين بالايجاب ، فالذى شكا منه الامام محمد عبده من سوء المناهج شكونا نحن منه ، ولا يزال الطلاب منه يشكون (١) ؛ أما فيما يتعلق بالأزهريين فان تغيرا واسعا قد حدث ، فالطالب الأزهرى لم يعد منعزلا كما كان من قبل ؛ ...

(١) صدر سنة ١٩٦١ قانون جديد قيل أنه يتجه لتطوير الأزهر ، ولجعله جامعة تشمل كل فروع الثقافات . والذى يهمنا هنا هو مدى ما حصلت عليه الدراسات الاسلامية والعربية من تطور فى ظل هذا القانون ، والحق أن هذا القانون أضر بهذه الدراسات أبلغ الضرر . فأحسن الطلاب بالقسم الثانوى يتجهون لشعبة العلوم وبالتالى لكليات الطب والهندسة والعلوم ؛ ولا يبقى لكليات الازهر الاصيلة (اللغة العربية والشريعة واصول الدين) الا ضعاف الطلاب ، وهناك عيوب أخرى كثيرة لهذا القانون شرحناها عند الحديث عن هذا القانون فى الجزء التاسع من « موسوعة التاريخ الاسلامى » .

لقد تسربت اليه الثقافة العامة التى انتشرت بالقطر كله ، ووجدت الصحف والمجلات طريقها إلى الأزهر ، ويعتَدُّ الطلاب الأزهريون أكثر الطلاب المصريين اقبالا على المحاضرات العامة ، ولم تعد دور الخيالة حراما أو فى حكم الحرام كما كانت من قبل ، ونشطت بالأزهر الألعاب الرياضية وغيرها من عوامل التقدم والتطور ، ثم حدث شىء ذو بال ينعم به طلاب الأزهر الآن ولم يكن شائعا من قبل ، فمنذ أصبح التعليم فى مصر مجانا أو قريبا من المجانية ، أقبل الطلاب الفقراء على مدارس الحكومة ، وشقوا طريقهم الى الجامعات المصرية ، وقام بجانبهم أخوة لهم أو أقارب يتلقون العلم فى الأزهر ، وعلى هذا نجد الآن طالبا بكلية الطب يسكن مع أخيه الأزهرى وابن عمه الطالب بكلية الآداب ، ولم يكن ذلك شائعا من قبل اذ كانت المصروفات المدرسية تقسم المجتمع المصرى الى طبقتين ، طبقة الأغنياء واليهم وحدهم ييسر التعليم بالمدارس والجامعات ، وطبقة الفقراء ، وليس لهم ملاذ إلا الأزهر • واختلاط الأزهريين بطلبة الجامعات كان مصدر نفع مزدوج •

وهذا كما قلت تطور من جهة الطالب نفسه ، أما المحاولات التى تبذل لتعديل مناهج الأزهر فلم تقدر لها بعد عوامل النجاح •

وبعد ، هل يسمح لى حضرات المشايخ بالأزهر الشريف أن أذكرهم بحقيقة أعتقد أنها لا تغيب عنهم ؟ هى ان الذين خدموا الدراسات الاسلامية والدراسات العربية ، وأبانوا للناس ما فى الدين من جمال • وما فى لغة القرآن من حلاوة وطلاوة لم ينبت أكثرهم فى بيئة أزهرية ، وقليل أولئك الذين نبتوا فى هـذه البيئة ولكن سرعان مـا تنكرت لهم تربـة الأزهر وانقلبت تجاربهم ، ولسنا فى حاجة الى أن نذكر اسم جمال الدين الأفغانى وخودا بخش ومحمد عبده وسيد أمير على وهيكل والعقاد وطه حسين وأحمد أمين وفريد وجدى وغيرهم ، ولسنا فى حـاجة كذلك الى أن نشـير الى ما يخرجه أساتذة الجامعات المصرية ومدرسوها من كتب حية فى الدراسات الاسلامية المتنوعة ، أعتقد أن ذلك غنى عـن البيان ، ولكنى أثبت بكثير

من التقدير النتاج الذى بدأ الجيل الأزهرى الجديد يسهم به فى النهوض بالثقافة الاسلامية ، ولا نزاع أن الأجيال الأزهرية القادمة تستطيع أن تحقق نجاحا أوسع ، لو أُصلِحتْ المناهج وبذلت عناية جدّية باللغات الأجنبية واستقامت طرق التدريس ، ونظم التربية بهذا المعهد التليد .

* * *

إن الغيورين على الأزهر يتحتم أن يبذلوا جهداً عظيماً حتى يستطيعوا أن يفخروا بحاضر الأزهر كما يفخرون بماضيه ، ولن يدوم مجد يتحدث عن الماضى اذا لم يكن معه حاضر مشرق ، ومستقبل مأمول ، وينبغى أن نتذكر دائماً أن الأزهر كان وحده فى عصور الظلام ، ولكنه الآن يعيش فى خضم من المنافسات ، وذلك يستدعى محاولة التفوق دائماً فالبقاء فى النهاية للأصلح .

خاتمـة :

وهكذا تدهور العالم الاسـلامى تحت عبء الأسباب السـياسية الداخلية والأسباب الخارجية والأسباب التى تنسب ظلما للدين الحنيف ، هذه الأسباب التى اصطلحت على النيل من الاسلام ووالت ضرباتها ضده ، ونالت منه •

وجاءت بعد ذلك أجيال من الناشئين ، فرأوا ما آل له أمر العالم الاسلامى ، رأوه مملوءاً بالمساوىء ، فيه ضعف وفيه حسد ، وفيه رشوة ، وفيه رجعية ، وفيه تأخر ثقافى ، ورأوا رجال الدين يحرسون الرجعيـة ويسير الكثيرون منهم فى ركاب الملوك والرؤساء ، ولم يكن هؤلاء الناشئون يعرفون عن روح الاسـلام ، وأخلاق الاسلام ، ومبادىء الاسـلام ، وفلسفة الاسلام شيئا ، ولم يجدوا فى بضاعة رجال الدين ما يجذبهم إلى دراسة الاسلام ، ولم يأخذ أحد بيدهم إلى الغزالى وابن مسكويه وابن القيم • وعَرَفَ كثير من هؤلاء بطريق أو بآخر حضارة أوربا وتقدمها ، فتنكروا بالشرق ، وتنكروا للاسلام ، بل صرح بعضهم أن الدين هو أساس ما نعانيه من تأخر وتخلف ، وأن لا أمل فى أن ينال الشرق مكانة مرموقة ، وهكذا أصبح كثير من الناشئة ، بل من المثقفين معاول تأخذ بنصيب وافر فى هدم صرح الاسلام وعرقلة تقدم الشرق •

يا الله ! ! ! كيف استطاع العالم الاسلامى أن يصمد أمام هـذه العواصف الهوجاء ، والأعاصير القاسية التى هبت عليه من كل اتجـاه ، كيف ؟ إنه أنت يارب حميتَه ورعيتَه ، ولو تخليتَ عنـه عينك لهـوى وانتكث صرحُه ، أمام هذه القوى الهائلة التى تعاونت ضده من الداخل والخـارج •

الباب الخامس

الطريق إلى الإصلاح

مقدمة :

يبذل الطبيب أقصى جهده فى فحص المريض ليتعرف أسباب دائه ومبعث آلامه ، حتى اذا أدرك هـذه الأسباب وعرف كنهها ، استطاع أن يقرر مدى الأمل فى شفاء المريض ، فاذا ضعف الأمل أو انقطع استسلم الطبيب وانتظر المريضُ القدرَ المحتوم ، واذا قـوى الأمل بدأ الطبيب يصف الدواء ، ويقود مريضـه الى ساحل النجـاة •

ونحن قد ورثنا عالما اسلاميا هزيلا شاحبا ، وذهبنا نتقصى أسباب ضعفه ودواعى هزاله ، حتى ظهر لنا مصدر الدواء ومنبع الشـكوى ، ويقودنـا ذلك الى التساؤل •

هل من أمل فى النجاة ؟ وما الطريق الى الاصلاح ؟

وعن السؤال الأول نجيب فى قوة واصرار : نعم هناك أمل كبير فى النجـاة ، وان المريض — مع أن المرض قد طـال عليه واصطلحت عليه الآلام — فتىٌ القلب شديد البنية ، قاوم يوم كانت الأعاصير تهب عليه قاسية مهلكة ، حتى اذا بدأت طلائع النور انتفض كالطير كـان هاجعا فى ظلام الليل فلما ترقرق ضوء الفجر صفَّق وهتف مرحبا بالصباح ، فالأمل فى النجاة قوىٌ ، برهن عليه المريض نفسه عندما دبَّ فيه النشاط وعاودته العافية مع أنه لم ينل بعد الا الجرعات الأولى من الدواء •

تلك هى الاجابة عن السؤال الأول ، كلمة واحدة قوية حاسمة : نعم ، هناك أمل كبير فى النجاة ، أما الاجابة عن السؤال الثانى ، أما وصـف الدواء ، فيحتاج الى عناية وتوفيق ، فالطريق الى النجاة لازال مملوءا بالأشواك ، ونحن المسلمين نعرف العقبات الجسام التى يجب أن نتخطاها ، وندرك المشكلات التى تعوق سير القافلة ، ولكنا عقدنا العزم على أن نناضل حتى نصل بالعالم الاسلامى الى المكانة الجديرة به •

على أنى أحس بفيض من التفاؤل وكثير من الأمل فى أننا سـنحقق غايتنا بشىء من اليسر والسهولة ، ذلك لأن أمامنا صورة المجتمع الاسلامى فى عهده الزاهر ، وأمامنا عناصر ازدهاره ومقومات نجاحه ، وأمامنـا

كذلك صورة واضحة عن الأمراض التى هاجمت هذا العالم ، وشوهته وأوشكت أن تفتك به ، فليس علينا اذا أردنا أن نعيد صرح المجتمع الاسلامى الا أن نداوى المرض ونزيل الشكوى ، ثم أن نقتبس عناصر الازدهار فى المجتمع الاسلامى الأول لنهتدى بها فيما نحن بسبيله من عمل .
ومن الواضح أننا لا نقصد أن نبنى مجتمعا اسلاميا على نفس الصورة التى كان عليها المجتمع الاسلامى الأول ، فان الظروف التى نعيش فيها الآن تختلف فى كثير من الاتجاهات عن تلك الظروف التى تكوّن بها ذلك المجتمع الاسلامى الأول ، ولكن الذى نقرره بادىء ذى بدء هو :

أولا — أن نهتدى فى تكوين المجتمع الاسلامى الحالى بالعناصر التى حققت للعالم الاسلامى الأول ازدهاره ورفاهيته .

ثانيا — أن النظم الاسلامية تحمل فى طياتها فكرة التطور لتناسب كل زمان ومكان ، فالأساس هو هو لا يتغير ، ولكن شروحه وتفريعاته عندما يحسن استغلالها ستمدنا بكل ما يحتاجه المجتمع الجديد من مقومات النجاح .

وعلى ذلك فالدراسة القادمة ستقتبس التوجيهات من الدراسة السابقة ، وستعالج الدراسة القادمة الموضوعات الآتية التى هى فيما أرى ابرز الأسس للاصلاح المنشود :

أولا — إعادة تكوين الفرد المسلم والأسرة المسلمة .

ثانيا — العودة للتعرف على أسس تكوين المجتمع الاسلامى واحياء هذه الأسس والتمسك بها .

ثالثا — القضاء على الأسباب التى ذكرناها من قبل والتى أدت لضعف العالم الاسلامى .

رابعا — الاصلاحات العلمية .

خامسا — الجامعة الاسلامية

وسنتحدث بشىء من التفصيل عما يلزم تفصيله من هذه الموضوعات :

أولا — اعادة تكوين الفرد المسلم والأسرة المسلمة

بَعُدَ المسلم عن الاسلام بعدا شاهقا حتى أصبح فى كثير من الأحوال لا يحمل من الاسلام الا اسمه ، وهناك مسلم آخر خضع لتقاليد لا يعرف مصدرها ولكنه يتبعها على أنها الاسلام وهى ليست من الاسلام فى شىء ، ولذلك كان لابد علينا أن نعيد تكوين الفرد المسلم ، وأن نأخذ بيده الى دائرة الاسلام السهل الصحيح .

وتكوين الفرد المسلم فى زمننا هذا مخالف لتكوين الفرد المسلم الذى تم فى مكة ، اذ أن الظروف والأحوال تختلف الآن عما كانت عليه منذ أربعة عشر قرنا . لقد نقل **الاسلام العربى فى مكة من السيف الى المسألة ،** ومن القوة الى القانون ، ومن الثأر الى القصاص ... ولكن المسلم الذى نريد أن نعيد تكوينه الآن ليس هو العربى الذى كان يلجأ الى السيف ، ويَخضَع للقوة ويُخضِع بها غيره ، ويدين بالثأر ، انه المسلم فى جميع بقاع الأرض عربية وغير عربية متمدينة أو متخلفة ، نريد أن نعيد هذا المسلم **الى رحاب الاسلام** : أو قل نريد أن نحمل له رسالة الاسلام ونزفها اليه (١) ، نريد أن نساعده ليرفع الصدأ عن نفسه ، وأن يزيل عن كيانه الخرافات التى يعتنقها على أنها الدين .

اننا ننظر الى العالم الاسلامى فنرى للأسف ألوانا من الرذائل تفشت فيه أكثر مما تفشت فى أى مكان آخر ، وكثيرون من غير المسلمين يرتبط عندهم العالم الاسلامى أو قل : يرتبط عندهم الاسلام بهذه الرذائل ، ارتباط النهار بالضوء والليل بالظلام ، فاذا ذكر **الاسلام تمثل لهم الجهل**

---

(١) نشير هنا على القارىء ان يطالع كتاب « الاسلام » من سلسلة « مقارنة الاديان » للمؤلف .

والحسد والبغضاء والطبقية والرشوة وغيرها من الصفات الذميمة .
نريد أن ندحض هذه الفرية ، ونزيل هذه الغشاوة ، ونعيد الأمور الى نصابها :
أن نذكر من تعاليم القرآن ما يحقق الحق ويبطل الباطل ، ويبرز توجيه الاسلام فى هذا السبيل ، ثم أن ندعو المسلمين الى العودة للدين الصحيح والتمسك بآدابه وأهدافه .

نريد أن نقول لهم ان الإسلام يدعو للعلم ، ويمقت الحسد ، ويهاجم الرشوة ، فاذا جهل المسلمون أو حسدوا ، أو رشوا أو ارتشوا ، فهم متمردون على تعاليم الدين ، خارجون على ارشاداته وآدابه .

فاذا استطعنا أن نرسم للمسلم صورة سريعة من مبادىء الاسلام ومن خلق الاسلام ، واذا استطعنا أن نجذب المسلم الى هذه الدائرة الخلقية ، فقد أعدنا تكوينه وخلقنا من الركام نفسا وضاءة وروحا عالية ، ولعلمن السهل أن نرسم اطارا يحوى أبرز اتجاهات الاسلام الخلقية ، وأما جذب المسلمين الى هذه الدائرة الخلقية فهو عمل يحتاج الى تكاتف القوى واصلاح نظم التعليم ، والى دعاة ومرشدين عمرت قلوبهم بالايمان ، وفاضت نفوسهم اخلاصا وحماسة ، ولكن الصبح بدأ يشرق ، وبدأت أفواج الشباب المتحمس فى جميع الأقطار الإسلامية تحمل مشعل النور ، ولم يبق علينا الا أن نقدم الزاد لهذا الركب السائر الى الأمام فى ثقة ويقين ، وذلك بأن نعطى الفرد المسلم مأخلاق إسلامية ، وبخاصة الأخلاق المتصلة بالمعاملات .

لقد اتجه كثير من المسلمين بالاسلام اتجاه عبادة ، وحسبوه صلاة وصوما وتسبيحا ، وتناسوا جانب المعاملة فيه ؛ ونحب أن نوضح أن الاسلام يهتم اهتماما كبيرا بالمعاملة ، ومن القواعد التى وضعها الأصوليون أن حقوق الله مبنية على المسامحة وحقوق الانسان مبنية على المشاححة .
فاذا قصر مسلم فى حق من حقوق الله فان التوبة النصوح تغفره ، وعفو الله قد يشمله ، ولكن ايذاء الناس لا يغتفر الا اذا عفا الناس ،

فرد الحقوق شرط أساسى من شروط التوبة . وحسن المعاملة بكل مـا تحمله هذه الكلمة من معنى أصلٌ من أصول الاسلام • بل أصل مهم جدا ، فالاسلام يتطلب من الفرد المسلم أن يسير على هَديه ليس فقط فى مبادىء الاسلام الخمسة ، بل أيضا فى الأسس التى وضعها الاســلام لتنظيم علاقات الناس بالناس أفرادا وجماعات على دعائم من الحب والعدالة والقانون ، وجعل الاسلامُ هذه الأخلاق جزءا منه بحيث لا يكمل الدين دونهـــا •

وقد ورد أن رجلا قال للنبى : يا رسول الله ، ان فلانة تكثر الصلاة والصوم والصدقة ، ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها ، فقال هى فى النار ••

ولست أنوى هنا أن أكتب عن خلق المسلم ، وأن اعطى صورة كاملة عن اهتمام القرآن والحديث بالمعاملة والأخلاق ، فان هذه الأخلاق ليست مجهولة ، ولكن الذى نريده هو اتباعها والتمسك بها ، فاذا أراد المسلم النجاح فى الدنيا والآخرة فان التمسك بهذه الأخلاق من أهم وسائله •

وليسأل المسلم نفسه : أأنا مسلم حقيقة أو اسما ؟ هل أتبع هـذه الأخلاق ؟ وأيا ما تكون الاجابة فنحن ندعو المسلم الى العودة الى رحبة الاسلام وسماحته وصفائه ، ندعوه أن يحاول جهده ليأخذ أكبر نصيب ممكن من الأخلاق الاسلامية ، ويرجع الى دين الفطرة ، وأن يفهم الاسلام على حقيقته ويفهم ما يوجبه الاسلام عليه تجاه الخالق الأعظم ، وتجاه نفسه وأسرته ، وتجاه المجتمع الاسلامى ، وتجاه المجتمع الانسانى بأسره •

فإذا انتشلنا المسلم أو انتشل المسلمُ نفسَه من عالم الخرافات والتعقيدات والأوهام ، ووضعنا المسلم أو وضع المسلمُ نفسَه فى رحاب الاسلام الصحيح ، كان ذلك المسلم خير أساس نستطيع أن نقيم عليه صرح المجتمع الاسلامى الشامخ •

والعجيب أن كثيرين من الناس يَصيحون مطالبين بتطبيق الشريعـة

الاسلامية ، وجدير بهؤلاء أن يسألوا أنفسهم : هل طبقوا هم الشريعة الاسلامية فى أخلاقهم ومعاملاتهم ؛ هل يؤدى الواحد منهم عمله خير أداء ؛ وهل بعُدَ تماما عن الرشوة والإهمال والغيبة ... ؟ إن هذا هو أول خطوة وأهم خطوة لتطبيق الشريعة الإسلامية .

الاسلام والمجتمع الصغير (الأسرة) :

وبعد أن نربِّيَ الفرد هذه التربية الاسلامية الصحيحة ، وفى طريقنا الى تكوين مجتمع اسلامى قويم ، يجدر بنا أن نوجه عناية الى تكوين وحدات المجتمع الاسلامى ، أى الى تكوين الأسرة ، وقد رسم لنا الاسلام الطريق لذلك ، اذ اهتم بالأسرة اهتماما بالغا ، وتمشّى اهتمامه بها خطوات عمّت جميع مراحل تكوينها .

فعن الأم والأب يقدّم القرآن أجمل وصية للأولاد ، قال تعالى :

— وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا (١) .

— ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك إلىّ المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا (٢) .

فاذا كبر هذا الابن وأراد أن يكوّن له بيتا وأن يختارَ له زوجة ، سمع هتاف الرسول به :

---

(١) سورة الاسراء الآيتان ٢٣ — ٢٤ .
(٢) سورة لقمان الآيتان ١٤ — ١٥ .

— تخيروا لنطفكم فان العرق دساس .

فاذا اختار زوجته رسم له الاسلام طرق المعاملة التى يجب أن تسود هـذا البيت الجديد :

— ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة (١) .

— وعاشروهن بالمعروف (٢) .

— خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى (٣) .

فاذا دب بينهما خلاف رسم الاسلام طريق حسمه :

— واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع (٤) .

— وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصـلاحا يوفق الله بينهما (٥) .

ويخوف الاسلام من الطلاق ، ويقرر أن اللجوء إليه لا يكون إلا للضرورة القصوى :

— أبغض الحلال الى الله الطلاق .

— تزوجوا ولا تطلقوا فان الطلاق يهتز منه العرش .

فان كان لابد من الطلاق فالاسلام ينظم وقته وعـدده ويبين حق المرأة بمقتضاه :

---

(١) سورة الروم الآية الثانية .
(٢) سورة النساء الآية ١٩ .
(٣) رواه ابن حيان فى صحيحه .
(٤) سورة النساء الآية ٣٤ .
(٥) سورة النساء الآية ٣٥ .

— إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة (١) .

— الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان ، ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا (٢) .

— وللمطلقات متاع بالمعروف (٣) .

ولا يقف الاسلام عند رعاية الأسرة الصغيرة ، بل يرسم الاسلام للمسلم حقوق أقاربه عليه :

— يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين (٤) .

— وآت ذا القربى حقه (٥) .

— وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله (٦) .

تلك نماذج قليلة لعناية الاسلام بالأسرة ، ولا نزاع أن الذى يدرس الاسلام وفلسفته وحضارته وأخلاقه يجد تفاصيل رائعة للحقوق والواجبات والآداب التى نظمها الاسلام لخلق أسرة متحابة متعاطفة تصلح أن تكون جزءا سليما من مجتمع اسلامى سليم .

---

(١) سورة الطلاق الآية الأولى .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٩ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٤١ .
(٤) سورة البقرة الآية ٢١٥ .
(٥) سورة الاسراء الآية ٢٦ .
(٦) سورة الأنفال الآية ٧٥ .

ثانيا — أسس تكوين المجتمع الاسلامى وإحياؤها

لقد اتضح لنا عند دراسة أسس تكوين المجتمع الاسلامى أن هذه الأسس مقدسة ، فهى تنفيذ لتشريعات سماوية وردت فى القرآن الكريم وفى أحاديث الرسول ، وعلى هذا فاحياء هذه الأسس أمر لازم لا محيص عنه اذا أردنا أن نعيد بناء المجتمع الاسلامى ، وان نهيىء له مسيرة حميدة .

فلابد من العناية بالمسجد والتطور به ليناسب العصر على نحو مـا ذكرنا عند الحديث عنه .

ولابد من اشاعة الحب والتعاون والمؤاخاة بين أفراد المجتمع الاسلامى

ولابد من التعاون الكامل بين المسلمين وغـير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، على أن يشمل هذا التعاون جميع النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعيـــة .

ولابد من العودة للشورى الحقيقية التى رسمها الاسلام ، والقضاء على الديكتاتورية قضاء تاما ، فحكم الفرد ، والاستبداد ، كانا وسيظلان من أخطر الأسباب لتقويض أى مجتمع ، وقد انتشر حكم الفرد فى العالم الاسلامى للأسف ، انتشارا واسعا يفوق ديكتاتورية الاتحاد السوفيتيى : فقد أسقط النظام السوفيتيى خورشوف وهـو فى أوج عظمتـه ، ولكن المستبدين بالعالم الاسلامى لا يستطيع أحد أن يسقطهم .

ولابد من العودة للنظام الاقتصادى فى الاسلام ذلك النظام الذى واجه المشكلة الاقتصادية أروع مواجهة وانتصر عليها ؛ حمى مال الغنى مادام هذا المال قد جاء عن طريق صحيح وأدى حق الله ، وقضى حاجة الفقير بتهيئة العمل له وبدفع جزء من مال الغنى إليه .

ولابد أن يصبح قادة المسلمين قدوة حسنة للناس ، فمن الشـائع أنهم يحكمون لتحقيق أغراضهم ، ويسترون مخازيهم فى حياتهم بالقوة

والجبروت ثم تبرز هذه المخازى بعدهم ويشيع ما كانوا يخفون ، ولا يتعظ من يخلفهم جهلا وعمى عن الحق .

ولابد من احياء روح الاسلام ليتحقق قول الرسول صلوات الله عليه « لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

هذا هو الدواء الأول لنعيد المسلمين الى الطريق الصواب ، فاذا لم يعودوا لهذه الأسس فهم يتمردون على الاسلام ، وهم يحملون تبعة هذا التمرد ، وعليهم أن يعرفوا أن سبب اخفاقهم هو جهلهم بالأسس المهمة التى يبنى عليها المجتمع الاسلامى .

ثالثا ــ القضاء على الأسباب التى أدت لضعف العالم الاسلامى

لقد رأينا فيما سبق تلك الأسباب التى أدت لضعف العالم الاسلامى ، ومن المحتم لنصل الى الاصلاح المنشود أن نقضى على هذه الأسباب تماما ، وإذا كانت بعض هذه الأسباب قد اختفت ، فإن بعضها لا يزال موجودا وتعمل هذه فى المجتمع ما يعمله السوس والآفات بالطعام والزروع •

فمن العوامل الداخلية لابد من الاهتمام بتربية الداعية المسلم ، ولابد من إحياء الأخلاق الاسلامية والتمسك بها ، وإحياء الحضارة الاسلامية وتدريسها فى المدارس والمعاهد والجامعات ، ولابد من القضاء على الحكام الفاسدين وعلى أتباعهم ، ولابد من محاولة إيقاف النشاط المدمر الذى يوجد بالعالم الاسلامى بواسطة ما يسمى « الفرق الاسلامية » وعلينا أن نتذكر دائما أن نواحى الاتفاق بين الشيعة والسنة مثلا كثيرة جدا ، ومن العار أن نتناسى هذا ونبحث عن نواحى الخلاف •

ولابد من القضاء على المؤسسات التى تكيد للاسلام فى غفلة عن المسلمين كالروتارى والليونز وأنصار السلام وأمثالها ، فهذه آفات تشد الكثيرين للانحراف الدينى والوطنى ، ومن عجيب أن أتباعها يدعون أنهم يقدمون بعض المساعدات الاجتماعية عن طريقها ، كأن المساعدات الاجتماعية لا تتحقق الا عن طريق مؤسسات مشبوهة تتخذ مركزها فى شيكاغو ، ويتولى الصهاينة أمرها •

ويدعون كذلك أنهم لا يتأكدون من انحراف هذه المؤسسات ونقول لهم ان الشبهة وحدها كافية للبعد عن مؤسسات تتهم بالخيانة الدينية والوطنية ، مرة أخرى الشبهة وحدها تكفى ، ولدينا ما هو أكثر من الشبهة والظنون •

ويفرحون بتخفيضات كبيرة تقدمها لهم الطائرات والفنادق إذا قدموا

برحلة ، ونسوا أن الهيئات الصهيونية تدفع الفَرْقَ للإغراء ، بدليل أن هذه التخفيضات الواسعة لا تُقَدَّم للجمعيات الأخرى •

وعن العوامل الخارجية نذكر أن الحركة الصليبية لا تزال قوية فى العالم الاسلامى متخذة طرقا جديدة ليست أقل خطرا من الطرق التى استعملها الصليبيون خلال هجماتهم على الشام ومصر سنة ١٠٩٦م وما بعدها ؛ والطرق الجديدة هى اسرائيل ، وهى امتداد للصليبيين يحمل كل حقد الصليبيين وحقد اليهود جميعا والدولار الأمريكى يمثل خنجرا ساما يصوبه اصحابه لقلوب المسلمين ، فالأمريكيون لا يقدّمونه الا اذا ضمنوا ربحا سريعا له من تراث المسلمين وقيمهم ، وربحا فى المدى البعيد من أموالهم ، انه سلاح أمضى من الصواريخ ، فليعمل المسلمون على الاستغناء عنه بجهدهم ، وبمحاولة انتاج ما يحتاجون اليه ، حتى لا يقفوا كالمتسولين أمام جماعة لا تكن للمسلمين أى حب وتقدير •

ولنتذكر أن اسرائيل سنة ١٩٦٧ زحفت على مناطق عربية واسعة هى أجزاء من مصر وسوريا والأردن وفلسطين ولم تحرك أمريكا ساكنا بل باركت هذا الزحف ، فلما تقدمنا سنة ١٩٧٣ لنسترد أرضنا أسرعت أمريكا بسلاحها الفتاك تقاوم زحفنا لاسترداد أرضنا • حسابهم على الله •

ويشيع أن إسرائيلَ وراء السموم البيضاء وأنواع المخدرات التى تندفع الى بلادنا ، فلنقاوم بكل عزيمة هذه الآفات المدمرة •

ولنتذكر كذلك أن الصليبين تحالفوا فى الماضى مع المغول لتدمير العالم الاسلامى ، وهم الآن يتحالفون مع اليهود لنفس الغرض ، فلنتههم •

وهكذا اذا كان الاستعمار العسكرى قد توقف فان صوراً من الاستعمار قد حلت محله ، تتمثل فى الخبراء والقروض والمعاهدات غير المتكافئة ، فلنحذر كل ذلك ، ولنفتح عيوننا حتى لا نؤخذ على غرة •

وعن الأسباب التى ترتبط بالاتجاهات الدينية علينا أن نعرف أن الإسلام إشراقة نور للبشرية . وأنه لا يمكن أن يوجد به أى أثر

للتخلف والضعف ، ولذلك نلتزم بأن نصلح أنفسنا حتى ننتفع بهذا الدين العظيم ، وأمامنا مصادر الاسلام لنستمد منها القوة التى استمدها أجدادنا السابقون فحققوا أعظم نصر فى أقصر وقت •

فالدين الاسلامى دين شورى ، ودين عدالة اجتماعية ، ودين متطور يناسب كل زمان ومكان كما أسلفنا ، وهو دين يحتـرم العقل ويقدره ، ويستجيب لحاجات الناس والمجتمع ، وهو دين يهتم بالجانب الروحى ، فاذا توقف بـه بعض الناس ، أو اتجهوا به اتجاها ماديا صرفا فهذا خطأ لابد من تصحيحه •

ولم يقاوم الدين قط الاصلاحات العلمية والاجتماعية ، فليسكن أولئك الذين يقاومون الاصلاحات باسم الدين •

والاسلام لا يقبل الشرك بأية صورة من الصور ، فأولئك الذين يقيمون القباب للأولياء ويحجون اليهم ويهتفون بهم لقضاء حاجتهم ••• عليهم أن يعرفوا أن هذا ليس من الاسـلام فى شىء ، فالله وحده هو المعطى والمجيب وهو قريب يجيب دعوة الداعى اذا دعـاه •

وليس لمسلم أن يكفّر مسلما إذا خالفه فى الرأى ، فالعقيدة سر بين الله والناس ، فما دام الانسان قد أعلن اسلامه فليترك ما وراء ذلك لله سبحانه وتعالى •

وقد أفسدت الضلالات العقائدية ما شاء لها أن تفسد كمـا فعلت خرافة معين الدين شيستى ، وكما فعلت القاديانية، ولابد من إيقاف هذا الباطل ومحاربته ليعود الناس إلى الإسلام الصحيح ، وتكون المواجهة فكرية ، وبالحكمة والموعظة الحسنة ، وأغلب الظن أن تأثيرها سيكون حاسما مع الزمـــان •

أما الأزهر الشريف والمعاهد الاسلامية فى كل مكان فعليها أن تطور الدراسة فيها ، وأن يكون بها خلق الاسلام واضحا ، وأن يكون المتخرج فيها واسع المعرفة بالفكر الاسلامى واللغة العربية •

رابعا ـ الاصلاحات العلمية

العلوم التى نعنيها هنا هى العلوم العقلية وعلوم الشريعة جميعا ، فكلاهما لازم لصلاح الدنيا والآخرة ، وكلاهما يعانى تخلفا فى العالم الاسلامى ، لعل الأوان قد آن لازالته ، ولعل الوقت قد حان للقضاء على هذا التخلف وسنتكلم فيما يلى كلمة عن كل طائفة من هاتين الطائفتين :

العلوم العقلية :

تخلف العالم الاسلامى تخلفا واضحا فى العلوم النظرية والعقلية وأصبح المسلمون فى الكثير الغالب عالة على سواهم فى التطور العلمى ، مع أن لهم تاريخا حافلا فى ميدان العلوم والفلسفة ، فقد كانوا حماة للعلم ورعاته عدة قرون حين كان الظلام يكسو أوربا ، وحين كانت أمريكا لا تزال فى طى الغيب وفى عالم المجهول ، « إنهم كانوا الأساتذة الذين ثقفوا العالم الحديث بنتاج العالم القديم ، ففتحوا بذلك أمام التفكير الأوربى آفاقا جديدة ، وهزوا العقل الأوربى وحملوه على البحث والمناقشة فى أمور كان يأخذها بالتسليم والخضوع » (١) وشملت الدراسات العلمية عند المسلمين شتى المعارف ، شملت الفلسفة وعلوم الرياضة (الحساب ـ الجبر ـ الهندسة ـ المثلثات ـ الفلك) والعلوم الطبيعية (الكيمياء ـ علم الحياة ـ الطب ـ التشريح ـ الصيدلة) وغيرها من الدراسات ، وكان لهم فى كل منها باع طويل » (٢) .

ثم مر الزمن وضعف المسلمون فى شتى الميادين ومنها الميدان العلمى ،

---

(١) عمر فروخ : عبقرية العرب فى العلم والفلسفة ص ١٧ .

(٢) انظر الكتب الآتية عن جهد المسلمين فى الدراسات العلمية :

ا ـ عبقرية العرب فى العلم والفلسفة للدكتور عمر فروخ .

=

على أن ضعف المسلمين فى المجال العلمى كان فى الحقيقة أثرا من آثـار ضعفهم السياسى ، فالنهضة العلمية المبكرة فى العالم الاسلامى لم يكن من الممكن أن تستمر فى ازدهارها فى ظل المماليك الأتراك ومَنْ شاكلهم من الحكـام الجهلة الذين لا يعرفون الا البطش والتدمير والذين يحاربون البنـاء والتفكير .

على أن الضعف العلمى الذى بدأ فى عهود المماليك وصل غايته فى عهد الاستعمار الأوربى للدول الاسلامية ، فقد كان هذا العهد عهد الابتكار والفكر ، ولكن الغرب شل عقول المسلمين وحرمهم التفكير ، ولا يمكن أن ترجى نهضة علمية فى جو من الارهاب والقيود والعبودية ، وفى جو من الفقر والمرض والجهل ، تلك الآفات التى بذرها الغرب فى الدول الاسلامية التى أخضعها اليه .

وقد تعلم الغرب من المسلمين ، وكانت الجامعات والمدارس الاسلامية فى الأندلس وصقلية والشام ومصر مراكز اشعاع عالمى ، التحق بها الطلاب الأوربيون فنهلوا منها ، ثم كانت معارفهم هذه أساسـا لنهضة أوربا ، فالحقيقة أن الغرب أخذ قبس المعرفة الأول من المسلمين ، بيد أن المسلمين

=

٢ — مآثر العرب فى الرياضيات والفلك للاستاذ منصور حنا .

= ٣

Goerge Sarton : The Incubation of Western Culture in the Middle Eest

٤ — تراث العـرب العلمى فى الرياضيات والفلك للاستاذ قـدرى طوقـان .

٥ — علم الفلك وتطوره عند العرب لكارلو نلينو .

٦ — Browne : Arabian Medicine

٧ — طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة .

٨ — Encyclopaedia Britannica

٩ — الفكر الاسلامى : منابعه وآثاره الذى ترجمه المؤلف عن اللغة الانجليزيـة .

تهاونوا بعد ذلك ، وسار الغرب قدما حتى حقق تقدما كبيرا فى الاختراع والبحث والصناعة •

نهضـــة أوربا مدمرة :

ولكن النهضة العلمية التى وصل لها الغرب هى فى الحقيقة نهضـــة مدمرة ، تهدد العالم كله بالفناء ، وتتركه قبل الفناء يعيش فى خوف ووجل متوقعا الخراب والدمار ، أو بعبارة أخرى يعيش يترقب الفناء ، مئات الملايين من الجنيهات يمكن أن تسعد البشر ، ولكنها بدلا من ذلك تنفق لانتاج القنابل الذرية والهيدروجينية التى تعد للقضاء على البشر ، وكل ذلك لأن هذه المدنية ملحدة ، مدنية بنيت على نظام اقتصادى ، أباحت للانسان أن يقتل أخاه الانسان ليحصل على ما فى يده من طعام أو كساء ، ولم يدخلها عنصر الأخلاق ولا عنصر الايمان ، ومن هنا فهى سراب يضىء ولكنه ضوء خداع ، فلقد بلغت النهضة الصناعية فى ألمانيا غايتها قبل الحرب العالمية الثانية ، وكانت ألمانيا فى المقدمة بين دول العالم مدنية وحضارة ، ولكن هذه المدنية المدمرة كلفت العالم ملايين البشر يخرون صرعى وجرحى فى الحرب التى شنتها ألمانيا ، أو التى دفعت اليها ، وكان تفتيت الذرة أرقى ما وصل له الفكر الانسانى ، ولكن سرعان ما دمر وأفنى فى اليابان قبل أن يعرف الناس من خيره قليلا أو كثيرا •

ليست هذه هى المدنية التى نريدها ، نريد مدنية تخدم البشر وتساعد على رفعة شأن الانسان ، نريد مدنية خيرة لا مدنية شريرة مهلكة ، والطريق الى ذلك أن ينمو العلم فى بيئة تعرف الدين وتعرف الأخلاق : حتى يعمل العقل منطلقا حرا الا من قيد الايمان وقيد الأخلاق ؛ وهذه البيئة هى البيئة الاسلامية ، وقد آن للمسلمين بعد أن تحرروا سياسيا أن يسيروا فى نضالهم العلمى ، وأن يأخذوا دورهم فى الاختراع والابتكار والصناعة ، وهـذه السطور تكتب وقد خطت كثـير من البلاد العربية والاسلامية شوطا طيبا فى هذا المجال ، فانتشرت فى أنحائها المصانع

وبدأ انتاجها يظهر ، ويرجى أن تسير قدما فى هذا الطريق ، وأن تسير معها الدول الاسلامية الأخرى ، وسيكون نتاج مصانع العالم الاسلامى خيرا وبركة عـلى الانسان لا تدميرا وتخريبا .

ولسنا فى حاجة الآن لأن ندافع عن العلم ونؤيده ضد هجمات الفقهاء ، فقد ولى الزمن الذى كان الفقهاء فيه يتحكمون فى العلم ويستأذنون قبل أن تدرس الطبيعة والكيمياء ، وأصبحت معامل البحث فى العالم الاسلامى حرة طليقة ، وليس على الشباب المسلم الا أن يجد ويكدح الذهن : وأن يعرف ما وصلت له أبحاث العباقرة العالميين ثم يحاول أن يخطو بعد ذلك خطوة الى الأمام أو خطوات .

وليفطن المسلمون الى حقيقة هامة ، هى أن ما حصلوا عليه من حرية واستقلال سيضيع ويفنى اذا لم يحرسه المسلمون بالتقدم العلمى والتقدم الاقتصادى أو قل الاستقلال الاقتصادى ، وان من أسلحة الاسـتعمار الحديثة التى اقترحها الغرب وروسيا بعد ان فشلا فى الاستعمار السياسى أن يستعمرا الدول اقتصاديا . وكثير من الناس كما قلت من قبل يصفون الدولار الأمريكى بأنه سلاح من أقسى أسلحة الاسـتعمار ، وأشدها بطشـا ، وأكثرها تدميرا ، وأنه يوقف القوى الناهضة ، ويحول دون تحقيق أى تقدم فى أى ميدان .

والعجيب أن القروض أعباء بدون نتائج فى كثير من الحالات ، فاذا اقترضنا من أمريكا مائة مليون دولار لمشروع ما ، ألزمتنا بتوظيف خبرائها وشراء معدات منها ، فيعود بذلك أكثر القرض الى جيوبهم .

وحراسة الاستقلال تحتاج الى سلاح لابد أن نعمل على أن ننتجه ، وألا نقنع بشرائه من الغرب ، فان هذا يجعل تجار السلاح ملاكا للحرية .

وليست الأسلحة فقط هى التى يجب أن يعنى بها العالم الاسلامى ، وانما يجب أن يعنى بشتى الشئون العلمية ، وبنواحى التقدم الصناعى

الذى يضمن له استقلالا اقتصاديا ويحرس استقلاله السياسى ، وبخاصة أن الدول الاسلامية من أكبر دول العالم فى انتاج البترول ، وأن بها المواد الأولية اللازمة لكثير من الصناعات ، وأن الأيدى العاملة بها متوافرة ، والعقول المفكرة كثيرة ، ولم يبق الا أن نحرر هذه العقول ، وننطلق هذه الأيدى ، ونبدأ النضال .

العلوم الشرعية :

لقد اتضح لنا من قبل ما وصلت له الدراسات الشرعية من تخلف حتى عدها الباحثون من العوامل التى سببت تدهور العالم الاسلامى . ولابد لنا فى نهضتنا الحالية أن نصلح هذه الدراسات ، حتى يعود الدين كما كان فى صدر الاسلام ، وكما يجب أن يكون دائما مصدرا من مصادر النهضة ، وضوءا ينير لنا ونحن نبنى مجدنا ونحث الخطا الى الغـاية الحميـــدة .

وقد فصلنا القول — فيما سبق — فى المشكلات التى جعلت مـن الفقهاء ومن الدراسات الشرعية عائقا يوقف تطورنا ويحول دون نهضتنا ، والسبيل الذى نصفه الآن للعلاج والقضاء على هذه المشكلات ، هو :

— اعادة الجانب الروحى للدراسات الاسلامية .

— الاجتهاد الذى يوفق بين الاسلام ومصالح النـاس فى حدود مبادىء الاسلام العليا ، ويوضح ما لايزال خافيا مـن تفاصيل النظم الاسلامية .

— الانتفاع بالمذاهب الاسـلامية المختلفة .

— ايضاح أن الدين للبشر لا للملائكة ، بمعنى أن المسلم ليس معصوما وكل ما يطلبه منه الاسلام أن يبتعد عن الكبائر ، وأن يتحاشى الصغائر بقدر الامكان ، وأن يكثر من الحسنات ، ويؤدى التزامات الاسلام وأركانه ،

فان فعل ذلك كانت له السلامة تبعا لقوله تعالى « أما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية » .

— ثم التقريب الثقافى بين بلدان العالم الاسلامى .

— وأخيرا لابد أن يأخذ علم مقارنة الأديان وعلم الحضارة الاسلامية مكانهما الرفيع بين الدراسات الاسلامية .

وقبل أن نزيد هـذه المسائل وضوحا نقرر أن القيام بهـذا العمل الاصلاحى سيتطلب جهدا كبيرا ، ولكنا لن نعفى المسلمين ملوكهم ورؤساءهم وقادتهم وعلماءهم من البدء القوى والسير الحثيث لبلوغ هذه الغاية ، والخروج بالمسلمين من الظلمات الى النور .

واعادة الجانب الروحى للدراسات الاسلامية تستلزم أن نعيد — بروح جديدة — كتابة الفقه الاسلامى ، ونعيد تفسير القرآن الكريم ، وتمحيص كتب الحديث ، ثم أن نعيد كتابة التاريخ الاسلامى والفلسفة الاسلامية ، وأن ندون تاريخ الحضارة الاسلامية ، بل كان علينا أن نعيد كتابة علوم تتصل بالدراسات الاسلامية كقواعد اللغة العربية وكالبلاغة العربية ، وقد قام جيلنا بحمد الله بالكثير من ذلك كما سبق القول .

واذا كان القارىء قد أحس أن هذا العمل صعب المنال ، فأنا أهدىء من روعة وأقرر له أن طلائع الباحثين المجاهدين قـد بدأت فعلا تعمل لتحقيق هذه الغاية فى مختلف الميادين ، وما علينا الا أن نساعد هذه الطليعة حتى تتخلص من بقايا الماضى التى تلاحقها وتتسرب أحيانا الى عملها . ثم علينا أن نوحد هذه الجهود ونشد أزرها ماديا وأدبيا حتى تصل الى الهدف ، ولن يمضى وقت طويل حتى يكون معنا فقه يصور لنا روح محمد ابن عبد الله وأصحابه حين كانوا يقومون بالفتيا ، ويكون معنا تفسير لا يعنى بقواعد اللغة وعلوم البلاغة واختلاف الفقهاء ، وانما يعنى بجمال القرآن ،

ويبرز ما فيه من صور رائعة ، فى أسلوب يفهمه أولئك الذين قصّروا عن التحليق مع القرآن فى اعجازه وسموه ، وهكذا فى مختلف الدراسات .

أما عن الاجتهاد فهناك تراث واسع خلّفه لنا السابقون الأولون ، وبخاصة الخليفة عمر ، وما علينا الا أن نسير على ضوئه ، فلا يمكن أن يسير المسلمون ويبقى الاسـلام بعيدا عنهم ، نريد رأى الاســلام فى المشكلات التى تشغل الناس ، ولا نريد من الفقهاء أن يقفوا موقفا جامدا يجعل الاسلام يتعارض مع حاجات الناس ، أو أن يقفوا موقفا صامتا فيما يشغل الناس من أحوال ، ولأضرب لك مثالا يبين الخير الذى يعود عـلى العالم الاسلامى من اجتهاد الفقهاء : كانت مصر والعالم الاسلامى كله تسير فى الميراث على قاعدة أن الأحفاد الذين مات أبوهم قبل جـدهم لا يرثون من جدهم شيئا اذا كان لهذا الجد ابن مباشر ، فهذا الابن يحجب أبناء الابن ، وكم ترتب على هذه القاعدة من شرور ، فأنا واخوتى مثلا لم نرث شيئا عن جدنا لأن أبانا مات قبله ولنا أعمام حجبونا عن الميراث ومات بعض الأعمام بعد ذلك وآل ميراثهم الى أولادهم ، فأخـذ أولاد أعمامنا ميراث جدنا ولم ننل نحن شيئا منه مع أن أبانا كان ساعد أبيه فى تكوين هذه الثروة .

وفكر الفقهاء المصريون فى هذه الحال ومثالها وهى كثيرة الوقوع أو قل فى الحقيقة ان الحكومة المصرية هى التى فكرت ، ولجأت الى الفقهاء لايجاد حل لهذه المسألة ، ووجد الفقهاء الحل الموفق فى شريعتنا السمحة بنظام « الوصية الواجبة » وصدر به قانون سنة ١٩٤٣ ، وأصبح معمولا به فى مصر منذ ذلك التاريخ ، وبمقتضى هذا الحل أصبح أولاد الابن المتوفى يأخذون نصيب أبيهم أو ثلث التركة (الأقل من هذين النصيبين) عـن طريق وصية واجبة يلزم أن يقوم بها الجد لهم . فاذا لم يقم بها الجد اعتبر كأنه قام بها ، ونفذت .

هذه صورة رائعة من صور التطور فى الشريعة الاسلامية ، نذكرها مؤكدين أن فى شريعتنا عشرات الأمثلة أو مئات الأمثلة لها لو درسناها بروح مؤمنة طليقة تعمل للخير وللصالح العام •

ونحن نهتف بالحكومات الاسلامية أن تكوّن كل منها هيئة لهذا الغرض ، وعلى المجتهد الفرد أو على هذه الهيئة أن تدرس المعين الأساسى للشريعة الاسلامية وهو القرآن الكريم والحديث الشريف ، ثم تعمل على ادراك الاسلام واتجاهاته ، ثم تحيط باجتهاد السابقين الأولين ، ثم تدرس آراء الفرق الاسلامية كأهل السنة والشيعة ، وآراء أصحاب المذاهب الأربعة وغيرها من المذاهب ، ثم تدرس المجتمع الذى يعيش فيه المسلمون وتعرف حاجات هذا المجتمع وضروراته ، ثم تلقى هذه الهيئة بفتاواها فى ضوء هذه الدراسات •

وإذا لم يتفق أعضاء هذه الهيئة على قرار موحّد فى موضوع من الموضوعات ، فلتصدر الهيئة قرارها بأن هناك اتجاهين فى الهيئة ، وعلى كل مسلم أن يختار ما يراه منهما •

كثير من الخاتر والمنافع يمكن أن يتوقعه المسلمون من هيئة كهذه ، ومن دراسات تتخذ هذا الاتجاه ، ومن الحق أن نقرر أن مصر تدخل فى تشريعاتها كثيرا من آراء الشيعة وبخاصة الامامية والزيدية الذين هم أقرب طوائف الشيعة لأهل السنة ، وقد تكونت فى مصر هيئة تسمى « جماعة التقريب بين المذاهب الاسلامية » وينتمى اليها علماء من أقطار مختلفة ، ومن مذاهب متعددة متحابين متعاونين ، ينظرون بخجل الى ما دونه التاريخ من صراع بين أتباع المذاهب المختلفة ، ويدركون أن الفرق والمذاهب الاسلامية — اذا بعدت عن الأغراض الذاتية — ليست الا فروعا لدوحة واحدة هى الاسلام ، ويجب أن تعمل متساندة لاسعاد المسلمين •

ويوم تتكوّن هيئة اسلامية للبحث والاجتهاد سيكون عليها أن توضح

من النظم الاسلامية نقاطا لا تزال غامضة ؛ ستضع نظاما للشورى لـه تفاصيله ونظمه ، وستبين من هم أهل الحل والعقد ، وغير ذلك من الأمثلة التى لم يبحثها الأولون •

وتسألنى : لماذا أهمل الباحثون الكتابة عن نظام الشورى وأهل الحل والعقد فى عصور التدوين ؟

وأجيب : أن مثل هذه النظم السياسية ليست فى الواقع الا تقليلا لسلطة الخلفاء والملوك والأمراء ، ولم يستطع الفقهاء أن يتكلموا فيهـا مجاملة لهؤلاء أو خوفا منهم ، كما لم يستطيعوا أن يتكلموا عن تقييد تعدد الزوجات لأن هؤلاء الحكام كانوا من هواة التعدد دون قيد أو شرط •

وربما كتب بعض الفقهاء ثم ماتت كتابتهم فى حياتهم أو بعدهم لهذا السبب نفســه •

إن المسلمين لا يزالون يذكرون بالتمجيد والتعظيم جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده والحاج دحلان وغيرهم من طليعة الباحثين والمفكرين المسلمين ، ونود أن نقول بصراحة إن عندنا اليوم أفغانيين كثيرين جدا • ويجب أن يحقق علماء اليوم أضعاف ما حققه علماء الأمس ، فكل شىء مهيأ لنهضة إصــلاحية كبــرى •

التعين للبشر :

وهنا نقطة اصلاحية مهمة نود أن نلفت لها الأنظار ، وهى أن الدين الاسلامى دين للبشر ، فمن الملاحظات التى أدركتها ، تحامل العلماء على الشبان ، فاذا أخطأ شاب صوروه فى صورة المتمرد ، وأبرزوا خطيئته وكبروها وتناســوا حسناته واتجاهاته الخيرة ويهاجم ابن تيمية هــذا الاتجاه ، ويقرر أن من حماية الحياة الدينية والخلقية أن تحمى المجتمع

من الغلو في الدين ومن أن يُنزلَ البشر منزلة الملائكة أو المعصومين (١) ، ونحب أن نوضح لهؤلاء أن هذه الطريقة ليست طريقة اسلامية ، انهـا طريقة تقوم اذا فرض أن السيئات تأكل الحسنات ، أمـا في الاسـلام فـ « إن الحسنات يذهبن السيئات » كما جاء في القرآن الكريم (٢) والحسنات تأكل السيئات كما تأكل النار الحطب كما وضح ذلك الرسول عليه السلام .

فنحن نقولها كلمـة صريحة : ان الاسلام دين العـاصي والمطيع ، والحكيمُ من الفقهاء هو الذي يجذب العصاة الى رحاب الطاعة ، ويوليهم من سماحته وصفاته ما يحبّب لهم العودة للطريق القويم ، فان الإعراض عن هؤلاء يزيدهم إعراضا عن الاسلام وبعدا عن تعاليمه ، وعلينا من جهة
عن هؤلاء يزيدهم اعراضا عن الاسلام وبعدا عن تعاليمه ، وعلينا من جهة
أخرى أن نحثَّ العاصي في ناحية أن يحاول أن يقلل مـن عصيانه فيها ، ومن ناحية أخرى أن يكثر من حسناته حتى ترجح حسناته سيئاته « فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشـة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هـاوية » (٣) .

ونسوق هنا بعض آيات القرآن التي تقوّي الأمل في عفو الله :

— إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (٤) .

— ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون (٥) .

— يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً (٦) .

---

(١) الحسبة ص ٣٧ .
(٢) سورة هود الآية ١١٤ .
(٣) سورة القارعة الآيات ٦ — ٩ .
(٤) سورة النساء الآية ١١٦ .
(٥) سورة الأعراف الآية ٢٥٦ .
(٦) سورة الزمر الآية ٥٣ .

التقريب الثقافى بين بلدان العالم الإسلامى :

بقى بعد ذلك أن نتكلم كلمة عن التقريب الثقافى بين بلدان العالم الاسلامى ، وقد دعانى الى ذلك ما لاحظته حين زياراتى لأقطار العالم الاسلامى ، والذى يقوم بمثل هذه الزيارات يدرك الفرق الكبير فى الدراسات الاسلامية بين ما حققته جامعة القاهرة مثلا وبين مالا يزال يدرس فى بعض الأقطار الاسلامية الأخرى ، حتى لقد اضطررت بعد أن زرت فى اندونيسيا كثيرا من معاهد العلم والمكتبات ورأيت مستوى تدريس الدراسات الاسلامية واللغة العربية ، أن أقول إن الاسلام فى مصر يوشك أن يكون غير الاسلام فى اندونيسيا ، وان اللغة العربية هنا غيرها هناك .

إن الفقه الاسلامى والفقه المقارن الذى يدرس بكلية الحقوق بجامعة القاهرة بعيد كل البعد عن الفقه الذى يدرس فى أندونيسيا ، وان الفلسفة الاسلامية التى يتلقاها طلاب جامعة القاهرة غير الفلسفة الإسلامية التى يشتغل بها الطلاب الأندونيسيون ، وتاريخ الحضارة الاسلامية يوشك الا يكون معروفا فى اندونيسيا على الاطلاق ، وقل مثل هذا فى التفسير والحديث وغيرهما من الدراسات الإسلامية .

أما اللغة العربية فى اندونيسيا فقد رأيت بنفسى أن طريق تقديمها هو تعليم ألفية ابن مالك ويجرى ذلك للطلاب المبتدئين الذين لم يعرفوا بعد كلمة واحدة فى اللغة العربية ، فألفية ابن مالك تشكل لا على أنها قواعد ، بل على أنها اللغة نفسها ، وطلاب الأزهر وكلية دار العلوم وكلية الآداب تعودوا أن يفروا من ألفية ابن مالك مع ثقافتهم العالية فى اللغة العربية ، فاذا فر منها الطلاب الإندونيسيون فان لهم كامل العذر ، لأن الطالب يبدأ دراسته للغة العربية ظانا أنه سيعرف لغة القرآن بما لها من آداب وثقافات وما كتب بها من تاريخ وفلسفة ، ولكنه يمضى السنين غارقا فى عجمة الألفية دون أن يحقق أى هدف ، فيفر من الألفية وان كان فراره منها يعتبر فى الواقع فرارا من اللغة العربية كلها .

وما يقال عن اندونيسيا يقال عن سواها فى كثير من الدول الاسلامية بل يقال عن بعض المعاهد المصرية التى لا تزال متخلفة شوطا طويلا أو قصيرا عن الغاية التى وصلت لها الدراسات فى جامعة القاهرة وغيرها من الجامعـات المماثلة .

من المسئول عن هذا التفاوت الضخم ؟ وأيا ما كان الجواب فنحن نقرر بقوة ضرورة التقريب الثقافى بين هذه الدول الاسلامية الشقيقة ، فيجب ألا تنقطع وفود الطلاب والمعلمين بين هذه الدول ، وكل ما تحققه دولة من تقدم فى الميدان الثقافى يجب أن يقدم بسرعة الى غيرها من الدول الإسـلامية .

على أن هناك شيئاً يمكن أن يعد خاصا باندونيسيا من بين الدول الاسلامية ، ويتضح ذلك مـن المقارنة التى يمكن أن نجريها بين طالبين مسلمين أحدهمـا مصرى والثانى إندونيسى ، وكل منهما يتعلم الطب أو الاقتصاد فى بلده . ماذا نرى من الفرق بينهما فيما يختص بالدراسات الإسـلامية ؟ .

نجـد الطالب المصرى يعرف مقدارا لا بأس به مـن الدراسات الاسلامية ، تلقاه قبل أن يصل الى كلية الطب ، تلقاه فى المدرسة الابتدائية والاعدادية والثانوية أما زميله الاندونيسى فالمقدار الذى يعرفه عن الدين الاسلامى وعن الدراسات الاسلامية ضحل أو لا شىء على الاطلاق ، فإن الدين الاسلامى لا يجد أية عناية فى المدارس التابعة لوزارة المعـارف الأندونيسية ابتدائية كانت أو اعدادية أو ثانوية ، فاذا لم يتح للطالب دراسة فى البيت مر خالى الوفاض من هذه الدراسات وتلك العقيدة .

ونرجو أن تتدارك إندونيسيا وما ماثلها من البلدان الاسلامية هذا النقص ، فالدراسة الروحية من أهم العوامل لتكوين المواطن الصالح ، وخلق الإنسان الكامل أو القريب من الكمال ، وتدل الأنباء الواردة حديثا من إندونيسيا أن هذا القطر الشقيق الكبير بدأ يتدارك ما فاته فى هـذا المجـال .

خامسا ـ جامعة الدول الإسلامية

ضرورتهــا :

أوضحنا فيما سبق أن عداء الغرب للعالم الإسلامى هو عداء دينى ما فى ذلك شك ، فاذا هاجمت احدى دول الغرب أو هاجمت هذه الدول مجتمعة مصر مثلا ، فليس هذا العداء موجها الى مصر بذاتها وانما هو موجه الى جزء من أجزاء العالم الاسلامى ، فاذا انتصر الغرب فى هجومه على هذا العضو انثنى يهاجم عضوا آخر وهكذا دواليك .

ومن الضرورى ، وقد وضحت هذه الحقيقة ، أن تترتب عليهــا نتيجة لا محيص عنها ، هى أن يحس العالم الاسلامى بهذا الخطر ، وأن يجمع شمله ، ويقابل الأحداث خيرها وشرها كتلة واحدة ، ترد الاعتداء وتواجه الاســتعمار .

إن العدو متعاون بأقوى ما تحتمله هذه الكلمة مــن معنى ، فعلى المسلمين أن يتعاونوا ، والا كانت فرقتهم أكبر عون يقدمونه لهذا العدو ، وكانت أقوى الأسباب التى تقود الى هزيمتهم .

ونحب أن نوضح بادىء ذى بــدء أن الارتباط بين أجزاء العــالم الاسلامى عمل شرعه الله وقرره ، وأن التهاون فى تنفيذه تضييع لمبدأ مهم من المبادىء الاسلامية ، استمع الى قوله تعالى :

ـ وإن هذه أمتكم أمة واحدة (١) .

ـ إنما المؤمنون إخوة (٢) .

ـ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض (٣) .

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٥٢ .
(٢) سورة الحجرات الآية العاشرة .
(٣) سورة التوبة الآية ٧١ .

وأوضح الرسول صلوات الله عليه هذه المسألة ايضاحا لا يحتاج الى مزيد ، استمع الى قوله : « إن سِلْمَ المؤمنين واحدة لا يُسالم مؤمنٌ دون مؤمن » •

والشريعة الاسـلامية بطبيعتها تخلق ارتباطا كبيرا بين معتنقيها ، ارتباطا يعتبر تضامنا طبيعيا ، أدركه المسلمون أو غفلوا عنه ، انهم يرتبطون عن طريق الصلاة ، حيث يتجهون جميعا الى الله يرددون نفس الكلمات ، ويؤدون نفس الأركان ، وهناك تصوير جميل وضعه باحث مسيحي يصور به المسلمين وهم يصلون ، ونحن نقتبسه فيما يلي : واذا نظرت الى العالم الاسلامى فى ساعة الصلاة بعين طائر فى الفضاء ، وقدر لك أن تستوعب جميع أنحائه بقطع النظر عن خطوط الطول والعرض ، لرأيت دوائر عديدة من المتعبدين تدور حول مركز واحد هو الكعبة ، وتنتشر فى مساحة تزداد قدرا وحجما منتهية من سيراليون (Sierra Leone) فى الغرب الى كانتون (Canton) فى الشرق ، ومن توبولسك (Tobolsk) فى الشمال الى رأس الرجاء الصالح (Cape Town) فى الجنوب (١) •

والى الكعبة المكرمة تتجه أفواج الحجاج من كل فج عميق ، تقطع الهواء أو تجوب الصحراء أو تشق عباب الماء ، فاذا وصلت هناك أفواجهم التقوا أسرة واحدة وامتزجت أحاسيسهم وأصواتهم فى التكبير والتهليل •

والقرآن الكريم يتلوه ويرتله ملايين المسلمين فى مختلف البقاع . ولو أتيح لإنسان أن يرى الكرة الأرضية ويسمع أصوات سكانها على النحو السابق لشاهد الآف المسلمين يجلسون فى خشوع وإجلال أمـام المصاحف ، ولسوف الآف الأصوات تتصاعد بآيات الذكر الحكيم •

وهناك شهر رمضـان حيث يصوم المسـلمون فى مختلف البلاد ،

---

(1) Hitti : History of the Arabs pp. 130-131.

فيشتركون فيما يسببه الصوم من جوع وحرمان ، وينعمون بما ينتجه مـن طهر وصفاء .

ويرتبط المسلمون إرتباطا طبيعيا فى تحريم الربا والخمر والميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، ويرتبطون ارتباطا طبيعيا فى قوانين الزواج والطلاق والميراث ، أو قل على العموم انهم يرتبطون فى العقائد والعادات والمعاملات والآمال ، ومثل هذه الارتباطات تجعل الارتبـاط السياسى بين هذه الأمم أمرا طبيعيا ، وتصور الفرقة بينها شيئا غريبا عن الاســلام وتعاليمه .

وقد تكون حكومات الدول الاسلامية مؤيدة لهذا التجمع السياسى أو معارضة له ، ولكن الذى لا شك فيه أن الشعوب تؤيده بل تسير نحوه ، أو قل أكثر من ذلك ؛ قل إنها تحس به وتعيش فيه وتتصرف بمقتضاه .

لقـد كنت فى إندونيسيا حين وقوع الاعتداء الانجليزى الفرنسى الصهيونى على مصر ، فماذا وجدت ؟ لم أحس أنى بعيد عن مصر ، وانما أحسست أنى فيها ، لقد توقفت الأغانى من الاذاعة المصرية فتوقفت من الاذاعة الأندونيسية ، وهب المصريون للوقوف فى وجه الاعتداء ، وهب الإندونيسيون يأخذون نصيبا كاملا من الجهاد فأحدثوا شللا فى مصالح المعتدين باندونيسيا وجادوا بسخاء مادى وأدبى لتكسب مصر المعركة ، وكأن كل من حولى كان مصريا يحس باحساسى وتسير فى عروقه دمائى .

وكنت بمصر حينما كانت إندونيسيا تصارع الاستعمار الهولندى قبل ذلك ، فشهدت مصر صاخبة ساخطة تقاوم المعتدين بعزم من حديد ؛ وكنا نحس بآهات الإندونيسيين ، وخيل الينا أننا فى مصر نسمع قصف المدافع التى كانت تصب نيرانها على إخوتنا بالأرض الخضراء ، فثمنا لا نألو جهدا ، ووقفنا بجانب الإندونيسيين حتى حققوا أمانيهم .

ثبت المراجع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ كتب التفسير .

٣ ـ كتب الأحاديث الستة .

٤ ـ مجموعة من كتب الفقه .

٥ ـ الأناجيل الأربعة .

٦ ـ Encyclopaedia of Islam

٧ ـ Encyclopaedia Britannica

٨ ـ دستور الجمهوريات السوفيتية .

٩ ـ وثائق ومعاهدات بين دول الغرب والدول الاسلامية .

١٠ ـ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ .

١١ ـ أحمد أمين : زعماء الاصلاح .

١٢ ـ أحمد أمين : فجر الاسلام .

١٣ ـ أحمد أمين : ضحى الاسلام .

١٤ ـ أحمد أمين : ظهر الاسلام .

١٥ ـ أحمد أمين : الشرق والغرب .

١٦ ـ أحمد أمين : يوم الاسلام .

١٧ ـ أحمد تيمور : نظرة تاريخية فى المذاهب الاربعة وانتشارها .

١٨ ـ أحمد زكى صفوت : عمر بن عبد العزيز .

١٩ ـ دكتور احمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية (١٠ أجزاء) .

٢٠ ـ دكتور احمد شلبى : السياسة فى الفكر الاسلامى والاقتصاد فى الفكر الاسلامى .

٢١ ـ دكتور أحمد شلبى : التربية الاسلامية .

٢٢ ـ دكتور أحمد شلبى : الفكر الاسلامى : منابعه وآثاره .

٢٣ ـ دكتور أحمد شلبى : مقارنة الأديان (٤ أجزاء) .

٢٤ ـ احمد ميرزا (مؤسس الاحمدية) : الاستفتاء .

٢٥ ـ احمد ميرزا (مؤسس الاحمدية) : فلسفة الأصول الاسلامية

٢٦ ـ احمد ميرزا (مؤسس الاحمدية) : نجمة البغداد .

٢٧ ـ الأصفهانى : الأغانى .

٢٨ — ابن ابى أصيبعة	: عيون الأنباء .
٢٩ — أنور السادات	: نحو بعث جديد .
٣٠ — بشير الدين محمود أحمد	: دعوة الأحمدية وغرضها .
٣١ — بشير الدين محمود أحمد	: What is Ahmadyyah
٣٢ — Browne	: A Literary History of Persia
٣٣ — البلاذرى	: فتوح البلدان .
٣٤ — البغدادى	: الفرق بين الفرق .
٣٥ — بهاء الدين العاملى	: الكشكول .
٣٦ — ابن تيمية	: السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية .
٣٧ — ابن تيمية	: الحسبة .
٣٨ — Thomas Arnold and Guillume	: The Legacy of Islam
٣٩ — الجاحظ	: كتاب التاج فى أخلاق الملوك .
٤٠ — الجاحظ	: البيان والتبيين .
٤١ — Gibb	: Muhammadanism
٤٢ — الجبرتى	: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .
٤٣ — Goldzihar	: مذاهب التفسير الاسلامى (ترجمة الدكتور النجار) .
٤٤ — الجهشيارى	: كتاب الوزراء والكتاب .
٤٥ — جورجى زيدان	: تاريخ التمدن الاسلامى .
٤٦ — حاجى خليفة	: كشف الظنون .
٤٧ — ابن الحاج	: المدخل .
٤٨ — ابن حجر الهيثمى	: تحفة المحتاج بشرح المنهاج .
٤٩ — ابن حجر	: الاصابة فى تمييز الصحابة .
٥٠ — حافظ وهبة	: جزيرة العرب فى القرن العشرين .
٥١ — ابن حجة الحموى	: ثمرات الأوراق .
٥٢ — ابن أبى الحديد	: شرح نهج البلاغة .
٥٣ — ابن حزم	: الفصل فى الملل والنحل .
٥٤ — دكتور حسن ابراهيم	: تاريخ الاسلام السياسى .
٥٥ — ابن حزم الأندلسى	: المحلى .
٥٦ — أبو حيان التوحيدى	: الامتاع والمؤانسة .
٥٧ — أبو حيان التوحيدى	: الصداقة والصديق .

٥٨ — أبو حيان التوحيدى : المقابسات .
٥٩ — الخضرى : تاريخ الأمم الاسلامية .
٦٠ — الخضرى : تاريخ التشريع الاسلامى .
٦١ — الخضرى : أصول الفقه .
٦٢ — ابن خلدون : المقدمة .
٦٣ — ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر .
٦٤ — Dinson : Emotion as The Basis of Civilization
٦٥ — الذهبى : تاريخ الاسلام .
٦٦ — الراهب ميتشو : رحلة دينية فى الشرق .
٦٧ — السبكى : طبقات الشافعية الكبرى .
٦٨ — Stoward : حاضر العالم الاسلامى (ترجمة عجاج) .
٦٩ — سديو : تاريخ العرب العام (ترجمة عادل زعيتر) .
٧٠ — سعيد الأفغانى : عائشة والسياسة .
٧١ — Sayid Ameer Ali : A Short History of the Saracens
٧٢ — سيد أبو الحسن على الحسنى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .
٧٣ — السيد ماضى أبو العزائم : أسرار القرآن .
٧٤ — السيوطى : تاريخ الخلفاء .
٧٥ — السيوطى : تبييض الصحيفة فى مناقب أبى حنيفة .
٧٦ — الشرنوانى : حاشية الشرنوانى على التحفة .
٧٧ — شهاب الدين بن احمد : المستطرف فى كل فن مستظرف .
٧٨ — الشيرازى : نهاية الرتبة .
٧٩ — الصابى : تحفة الوزراء .
٨٠ — صلاح الدين المنجد : خطط دمشق .
٨١ — ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية .
٨٢ — الطبرى : تاريخ الأمم والملوك .
٨٣ — دكتور طه حسين : الفتنة الكبرى (عثمان — على وبنوه) .
٨٤ — أبو الطيب محمد : الموشى .
٨٥ — ابن عبد البر : أدب المجالسة (مخطوط بدار الكتب ١٣٣ مجاميع م) .
٨٦ — ابن عبد ربه : العقد الفريد .

٨٧ — ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز .
٨٨ — ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول .
٨٩ — ابن العربى : أحكام القرآن .
٩٠ — عبد الرحمن الخثعمى : الروض الأنف .
٩١ — عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة .
٩٢ — عفيف طبارة : روح الدين الاسلامى .
٩٣ — دكتور على النشار : شهداء الاسلام فى عهد النبوة .
٩٤ — عبد المتعال الصعيدى : السياسة الاسلامية فى عهد النبوة .
٩٥ — ابن عساكر : تاريخ دمشق .
٩٦ — دكتور عمر فروخ : باكستان دولة ستعيش .
٩٧ — دكتور عمر فروخ : عبقرية العرب فى العلم والفلسفة .
٩٨ — عمر ابو النصر : على وعائشة .
٩٩ — عباس محمود العقاد : عبقرية محمد .
١٠٠ — عباس محمود العقاد : عبقرية الصديق .
١٠١ — عباس محمود العقاد : عبقرية عمر .
١٠٢ — عباس محمود العقاد : حقائق الاسلام واباطيل خصومه .
١٠٣ — عباس محمود العقاد : الديمقراطية فى الاسلام .
١٠٤ — غوستاف لوبون : حضارة العرب .
١٠٥ — الغزالى : احياء علوم الدين .
١٠٦ — الغزالى : الرسائل العشرة .
١٠٧ — الغزالى : فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة .
١٠٨ — أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر .
١٠٩ — فريد رفاعى : عصر المأمون .
١١٠ — Philp Hitti : History of the Arabs
١١١ — ابن قتيبة : عيون الأخبار .
١١٢ — ابن قتيبة : الامامة والسياسة .
١١٣ — ابن قدامة : نبذة من كتاب الخراج .
١١٤ — القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد .
١١٥ — دكتور قمر الدين يونس : الانسانية .
١١٦ — ابن القيم : أعلام الموقعين عن رب العالمين .
١١٧ — ابن القيم : زاد المعاد فى هدى خير العباد .
١١٨ — كشاجم : أدب النديم .

١١٩ — ابن الكلبى : الأصنام .
١٢٠ — كيرك : موجز تاريخ الشرق الأوسط (ترجمة عمر الاسكندرى) .
١٢١ — Lane Poole : Muh. Dynasties
١٢٢ — المـاوردى : الأحكام السلطانية .
١٢٣ — المـاوردى : أدب الدنيا والدين .
١٢٤ — المـبرد : الكامل .
١٢٥ — محمد أسد : الاسلام على مفترق الطرق .
١٢٦ — السيد محمد رشيد رضا : المنار (أعداد مختلفة) .
١٢٧ — السيد محمد رشيد رضا : يسر الاسلام .
١٢٨ — محمد حبيب أحمد : نهضة الشعوب الاسلامية .
١٢٩. — د. محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الاسلامية .
١٣٠. — د. محمد ضياء الدين الريس: الخراج .
١٣١ — محمـد عبده : الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية .
١٣٢ — محمـد عبده : رسالة التوحيد .
١٣٣ — محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام .
١٣٤ — محمد عبد الله عنان : تاريخ المؤامرات السياسية .
١٣٥ — محمد الغزالى : الاسلام والمناهج الاشتراكية .
١٣٦ — محمد صادق الصدر : الشيعة .
١٣٧ — محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية .
١٣٨. — الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت : الاسلام عقيدة وشريعة .
١٣٩ — ابن مكسويه : تهذيب الأخلاق .
١٤٠ — مصطفى الرافعى : اعجاز القرآن .
١٤١ — Macdonald : Muslim Theology
١٤٢ — منير الحصنى الخشينى : المودودى فى الميزان .
١٤٢ — النسيبى : كتاب مطلب السول فى غزوات الرسول (مخطوط بدار الكتب رقم ١٩٧٩) .
١٤٤ — Nicholson : A Literary History of the Arabs
١٤٥ — النووى : تهذيب الأسماء .
١٤٦ — Hell : The Arab Civilization
١٤٧ — ابن هشام : السيرة .
١٤٨ — دكتور هيكل : حياة محمد .

١٤٩ — دكتور هيكل : الصديق أبو بكر .
١٥٠ — دكتور هيكل : الفاروق عمر .
١٥١ — ياقــوت : معجم البلدان .
١٥٢ — ياقــوت : معجم الأدباء .
١٥٣ — أبو زكريا يحيى النواوى : متن المنهاج .
١٥٤ — يحيى بن آدم : الخراج .
١٥٥ — أبو يوسف : الخراج .
١٥٦ — يوسف عبد الرازق : معالم الهجرة .

رقم الايداع ٧٢٥٩ لسنة ١٩٨٥

وقل مثل هذا عن جميع الأقطار الاسلامية ، فحينما أرسلت بريطانيا فرقة هندية لتقاوم حركة استقلال اندونيسيا ثار زعماء الهند المسلمون مما اضطر بريطانيا لسحب القوات الهندية من اندونيسيا وذلك فى فبراير سنة ١٩٤٦ .

وفى حركة تونس والمغرب كانت الدول الاسلامية تقدم للمكافحين هناك من العون صنوفا وألوانا ، وقد ملأت فرنسا الدنيا صراخا من المساعدات التى قدمها المصريون للمجاهدين المسلمين فى الجزائر إبان حرب التحرير الجزائرية (١) .

وفى حرب السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ حين اندفعت القوات المصرية تدمر العدو الصهيونى وتقتحم قناة السويس وتحطم خط بارليف .. هب المسلمون فى كل مكان يحيون القوات المنتصرة ويؤيدونها ، وما إن توقفت الحرب بتدخل مجلس الأمن حتى عقدمؤتمر لاهور الاسلامى فى مارس ١٩٧٤ ، واتخذ المجتمعون قرارا حاسما بضرورة انسحاب العدو الصهيونى من الأرض العربية التى احتلها فى عدوان ١٩٦٧ ، وبضرورة إعطاء الشعب الفلسطينى حقوقه ، وتحرير القدس لتبقى عربية اسلامية عبر الزمان .

واذا تركنا الحركات العامة وجدنا الحركات الفردية شاهدا قويا على قوة الارتباط بين المسلمين مهما اختلفت ديارهم وبعدت أقطارهم .

يقول الأستاذ عبد الرحمن عزام : نزلت فى جبال الأرنؤوط بألبانيا ، ولا عهد لى بها ، ولا معرفة لأحد من أهلها ، فلمحت اسما اسلاميا على دكان فقدمت نفسى الى صاحبه ، وكأنما كنا على موعد رغم أن حديثنا كان بالاشارة ، وما لبث أن جاء لى بفقيه يعرف قليلا من العربية فتفاهمنا ،

---

(١) اقرأ خطاب السيد احمد بن بيلا الذى يصور هذه المساعدات فى الجزء الرابع من « موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الإسلامية » للمؤلف .

وتولى الرجل بعد ذلك أمرى كله ، وتنقلت بعد ذلك فى البـلاد والناس يوصى بعضهم بعضا بى ، ولو كنت بين أهلى ما وجدت منهم حبا أكثر مما اوجدته لى الأخوة الاسلامية فى تلك الأيام العصيبة ، أيام حرب البلقان ، بل اننى لا أزال أذكر أنهم أوجدوا لى فى كل بلد من يعرف العربية ومن يلازمنى لخدمتى ومعاونتى (١) •

وفى طهران عاصمة ايران يركب موظف مصرى سيارة (تاكسى) من بيته الى السفارة ، وهناك يرفض السـائق أن يتناول أجرا من المصرى ويقول له : دعنى أكرم فى بلادى أخا فى الدين والآمال (٢) •

وفى احدى الجامعات الاسلامية الاندونيسية التقيت بوفد من مسلمى الصين جاء لزيارة اندونيسيا ، وما ان التقينا حتى شد كل منا على يـد صاحبه وأحس الصينى والاندونيسى والمصرى أن هناك رباطا قويا يربط بينهم ، رباطا روحيا أسمى من كل رباط • وأذكر أنه طلـب منى أن القى خطابا فى هذا الاجتماع فتحدثت وشرحت الأحاسيس الطيبة التى تسود اجتماعنا وتسيطر علينا • وقارنت ذلك باجتماعات هيئة الأمم المتحدة حيث الفرقة • والنفور ، وحيث لا رباط بين المجتمعين الا كلمات جعلوها دستورا ثم أهملوها أو مزقوها •

وحسبك أن تطوف العالم الاسلامى لترى أنك دائما بين أهل واخوان ، لتدرك أن شـعوب المسلمين لا تعترف بالحدود الاقليمية التى صنعها الاستعمار ليمزق بها الوطن الاسلامى الواحد •

وقبل أن أتحدث عن طبيعة الارتباط الذى نريده ونسعى لتحقيقه بين دول العالم الاسلامى ، يجدر بى أن أوضح أن العصر الحديث أبرز لنـا

---

(١) الرسالة الخالدة ص ٤٨ •
(٢) جريدة الجمهورية ١٩٥٦/٩/٦ •

ألوانا من الروابط التى تقوم على أسس واهية اذا قيست بالأساس الذى يربط بين دول العالم الاسلامى ، فهناك مثلا حلف شمال الأطلنطى فوقوع بعض الدول على هذا المحيط كاف ليربط بينها وليوحد بين قوتها ، وهناك الدول الآسيوية الإفريقية التى يربط بينهـا وقوعها فى احدى هـاتين القارتين ، ولا نزاع أن هذه الروابط ليست بشىء اذا قيست بالروابط المتعددة الجوانب التى يرتبط بها المسلمون فى العقائد والعادات والمعاملات والعبادات والآمال كما سبق القول .

ما المقصود بجامعة الدول الاسلامية ؟

والآن نحب أن نوضح : ما هى جامعة الدول الاسلامية التى ندعو اليها ؟

الجواب عندى أنها ليست الجامعة الاسلامية التى تحدث الناس عنها من قبل ، انها ليست خلافة أو زعامة ، ولكنها شىء أسمى من هذا ، انها كمـا وصفها القرآن الكريم :

— إنما المؤمنون إخوة (١) .

— وإن هذه أمتكم أمة واحدة (٢) .

أو قل انها وضع أحاسيس المسلمين فى دستور يتّبع ويهتدى به ، أنها ارتباط فى الآلام والسرور ، فى الغنى والفقر ، فى الحرمان والوجدان ، فى الشدة والرخاء ، أنها رابطة تسخر من أن يظل المسلمون على صـلة بالولايات المتحدة وهى تؤيد إسرائيل فى عدوانها اللئيم ، وتسخر من أن يتفرق المسلمون شيعا وأحزابا حتى يتخطفهم العدو ، إنها رابطة تدعو الى وضع أسس ثابتة نابعة من هدى الاسلام وأعماق الشعوب ، لتحقق التعاون السياسى والتعاون الثقافى والتعاون الاقتصادى والتعاون الاجتماعى

---

(١) سورة الحجر الآية العاشرة .
(٢) سورة المؤمنون الآية ٥٢ .

انها رابطة تسعى لتحقيق الحديث الشريف « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضــه بعضــا » •

وكيف يتم هذا الارتباط ؟ هل يتم عن طريق خلافة ديمقراطية ؟ هل يتم عن طريق انشاء اتحاد الدول الاسلامية أو جامعة الدول الاسلامية ؟ هل يتم عن طريق معاهدات سياسية واقتصادية وثقافية حية ترتبط بهـا هذه الدول ؟ انى لا أحب أن أخوض هنا فى هذه الوسائل ولكنى أتطلع الى النتائج ، وأتطلع كما قلت آنفا الى وضع هدى الاسلام وأحاسيس المسلمين فى دستور يتّبع ويُهْتدىَ به ، والى ارتباط المسلمين فى كافة بقاع الأرض ارتباطا يجمعهم فى الشدة والرخاء ، والحرمان والخير ، والآلام والسرور •

إن القومية فى العصر الحاضر قوية ، فالمصرى يحب بلاده والاندونيسى يحب بلاده ، وهكذا ، ونحن لا نحارب القومية بل نقويها ، فهى من أسس الاسلام ، فقد روى فى الأثر : حب الوطن من الايمان ومن سبل تقويتها خلق ارتباط وثيق بين الدول الاسلامية يضمن السلامة والرقى لها جميعا يتمتع فيه المسلمون بأخوة صادقة وتعاون عميق ، ويتمتع فيه غير المسلمين بالحقوق الواسعة التى كفلها الاسلام لهم ، والتى نعم بها غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى فى عصره الزاهر •

فاذا أخذ المسلمون بهذه الأسس الاصلاحية حققوا للمجتمع الاسلامى ما تصبو له نفوس المسلمين من رقى وسؤدد •

والله ولى التوفيق •